WARD FURATI

ناجيات

شهادات حقيقية لناجيات سوريات من معتقلات نظام الأسد

كتبها : ورد فراتي

مكتبة 1701

جسور للترجمة والنشر

ناجيات سوريات
WOMEN SURVIVORS

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa

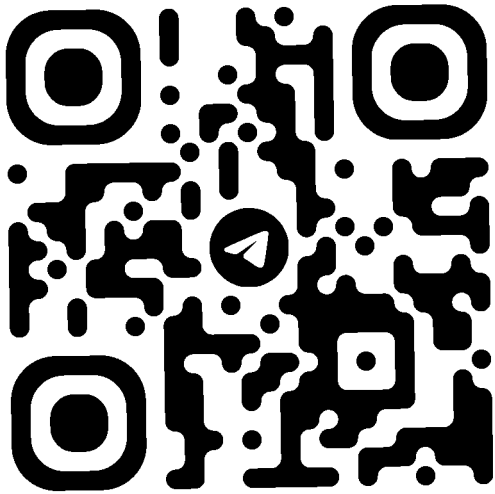

ناجيات

شهادات حقيقية لناجيات سوريات
من معتقلات نظام الأسد

ناجيات

شهادات حقيقية لناجيات سوريات
من معتقلات نظام الأسد

مكتبة 1701

كتبها
ورد فراتي

جسور للترجمة والنشر

ناجيات سوريات
WOMEN SURVIVORS

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر
ناجيات: شهادات حقيقية لناجيات سوريات من
معتقلات نظام الأسد/ كتبها ورد فراتي.
١٩١ ص.
ISBN 978-614-431-743-3
١. سوريا ـ تاريخ الحرب الأهلية، ٢٠١١.
٢. المرأة ـ سوريا ـ الروايات الشخصية.
320.95691

مكتبة
t.me/soramnqraa

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر جسور للترجمة والنشر»

رسوم: سليمان هلال

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لجسور
الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٣

جسور للترجمة والنشر
لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

ربما ستنجو
لكنك لن تعود
كما كنت

المحتويات

القصة الأولى: إنسان مع وقف التنفيذ ٩

القصة الثانية: يا حرية ٤١

القصة الثالثة: خذلتني سوريا ٦٥

القصة الرابعة: أنا مو بنان ٩٥

القصة الخامسة: ماما.. تعي لعندي ١١٩

القصة السادسة: قارئة الفنجان ١٣٩

القصة السابعة: حرة ١٦٣

إحصاءات ١٨٥

عن منظمة ناجيات سوريات ١٨٩

عن الشهادات في الكتاب ١٩١

القصة الأولى

إنسان مع وقف التنفيذ

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما هي أحلامنا؟ أحلامنا بسيطة جداً في هذه المدينة المنسية، وهي أكثر بساطة عندما تكونين فتاة تدرس في معهد إعداد المعلمين؛ التخرج والحصول على وظيفة في التدريس، ثم الزواج وإنجاب أطفال وتربيتهم، وربما موردٌ ماديٌّ جيدٌ يعين على تكاليف الحياة.

بهذا المقياس كنت محظوظة جداً، فقد حصلت على وظيفة في تعليم الموسيقى لطلاب الابتدائية من الصف الأول إلى الرابع، وعلى الرغم من أني اضطررت للتدريس في عدد من القرى الريفية البعيدة نسبياً إلا أني انتهيت أخيراً معلمة في مدرسة داخل مدينتي (دير الزور)، أعزف للأطفال نشيد البلاد على آلة «الأكورديون» أثناء تحية العلم الصباحية، وأختار ما شئت من الأغاني التي كانت تبثها قناة «طيور الجنة»، ليتعلموا ـمستعينين بالموسيقىـ بعض الأعداد والأسماء والألوان، فلم يتوفر حينها غرفة مخصصة للموسيقى تضم آلات يمكن للطلبة تعلم العزف عليها، وباستثناء بعض المدارس الكبيرة كان تعليم الموسيقى مقتصراً على من يدخلون «الكورال» المدرسي، الذي يسخّرون فيه أصواتهم الملائكية للشدو بأناشيد حزب البعث وتمجيد «الأب القائد».

هكذا كانت تمضي الحياة رتيبة لا تخلو من سعي إلى تحسين ظروفها، التي كانت أكثر من جيدة بالنسبة إلي، حتى إني تمكّنت من اقتناء سيارة شخصية كانت حلماً لمعظم أبناء جيلي من مواليد الستينيات، وقد رزقني الله ـوزوجيـ ولداً

وبنتاً، كانا زينة حياتنا، خاصة مع مرضٍ لازمني كان الحمل فيه يشكل خطراً عليَّ وعلى الجنين، لكن الله سلّم، لتكتمل بذلك صورة الحياة الهانئة كما تصورتُها.

لا أعتقد أن كثراً من أبناء البلاد كانوا يأملون في حياتهم بأكثر من هذا الذي وصفت؛ العمل والعائلة وإنجاز بسيط ربما يعطي نوعاً من الرضا عن الذات، ولست أبالغ حين أقول إن غالبية السوريين لم يكونوا يفكرون بما وراء ذلك، أو يتطلعون إلى «حقوق» أكثر من السلامة بالابتعاد عن كل ما يمس الحكم، فقد استقرت الحال منذ زمن على نظام حاكم لا يُسأل عما يفعل وفيما يفعل، وشعب يعيش في ظله ويدور في فلكه.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر كان يفرض نفسه دائماً على كل تفاصيل الحياة، إلا أننا اخترنا ضمنياً تناسيه، وباتت أمورٌ مثل اعتقال أحدهم شهوراً أو أعواماً في فرع أمني دون محاكمة أو حق في الزيارة فقط لأن «مخبراً» اختار أن يكتب «فيه» تقريراً باتت أمراً طبيعياً، وكذلك دفع الرُّشى الثقيلة التي تصل إلى درجة بيع المنزل لإخراج معتقل مظلوم بات أمراً طبيعياً، وبات الضبط التلقائي لردود أفعالنا وتعليم أبنائنا إياها بحيث لا يصل تململنا من مؤسسات الدولة المهترئة ومستوى الخدمات المعدوم والسلطة الأمنية الشرسة إلى حدّ انتقاد علني، أمراً طبيعياً أيضاً.

والآن عندما أنظر إلى كل ذلك أذهل من القدرة العجيبة لشعب كامل على التجاهل، كيف أمكن لنا أن نعلم أطفالنا أن يصمتوا؟! أن يبتلعوا الإهانة حين يكون مصدرها أمنياً، أن يعيشوا تحت قاعدة عامة سمعتها من والديّ وأسمعتها لولديّ: «الحيطان إلها أذان»، ثم أن نكمل حياتنا بشكل طبيعي جداً نعرّف فيه ألوان طيف الأحاسيس كلها، بحلوها ومرها، كأننا بشر طبيعيون؟!

يخيّل إليّ أحياناً أننا كذلك الطفل الذي ولد في المعتقل في قصة «ميشيل كيلو»[1]، تربى وعاش داخل المعتقل حتى بات هو عالمه كله، وعرّف ضمنه

---

(١) يروي المعارض السوري ميشيل كيلو قصة حدثت معه في فرع الأمن العسكري عن ابنة أحد الهاربين من النظام والتي حبلت وولدت ابناً في المعتقل، كان عمره ٥ سنوات عندما أحضر =

طيف مشاعره، الفرح والحزن محصور بين تلك الجدران، حتى يصبح أمرٌ يبعث على الاكتئاب والانهيار لدى إنسان خارج المعتقل هو الحياة الرتيبة التي يقبلها ذلك الطفل، ويصبح الفرح هو شعاع شمس يهرب من الجدران السميكة إلى داخل الزنزانة، أو توقف أصوات صراخ المعتقلين تحت التعذيب ساعة عندما تتبدل ورديات الجلادين، أما الحزن والكدر لدى ذاك الطفل، فأمر لا يمكن من أمثالنا تصوره.

هكذا كنا.. نعيش حياتنا ضمن معتقل لكنه أكبر من زنزانة فردية، نعرّف الفرح فيه بالحصول على ثمرة عمل شقينا فيه، والسعادة بمنزل صرفنا أعمارنا فيه لبنائه، ويكون طبيعياً جداً أن يسلبك كل ذلك أصغر عنصر أمن في أي فرع إن شاء ذلك، بل لعلنا طورنا منظومة قوانين كاملة تحكم العلاقة بيننا وبين الأمن، فصار «مقبولاً» أن تُعتقل وتُعذّب وتُغيّب وتُذلّ ويُعتدى على كرامتك إذا أسأت لفظاً أو إشارة إلى النظام، ومكرمة إذا غُضّ الطرف عن ذلك، وغير مقبول.. في الحقيقة لا أستطيع تذكر شيء غير مقبول. كل شيء كان ممكناً إذا شاء النظام.

لذلك، وعندما كنا نتابع أخبار ثورة تونس أواخر العام ٢٠١٠، لم يخطر لي ـولا حتى للحظةـ أنّ أمراً شبيهاً يمكن أن يحدث عندنا، فهو خبر من العالم الآخر خارج حدود «سوريا الأسد»، كما كانت قبلها أحداث فلسطين واحتلال العراق وغيرها من الحوادث التي مرت وانتهت.

وحتى عندما امتدت شرارة الثورة إلى مصر وسقط نظامها، لم يخطر لي شيء شبيه، لكني انتبهت إلى كلام يتردد عن «اختلاف سوريا عن غيرها»، وفي تلك اللحظة تحديداً لم يجُلْ في خاطري أن النظام هو من يبث هذه العبارات، ولم أجد في نفسي أي رغبة في حدوث شيء شبيه في سوريا، ليس خوفاً ولا حتى ارتياحاً، بل السؤال نفسه لم يدر في بالي! كانت فكرة أن شيئاً يمكن أن

= السجان ميشيل كيلو ليروي له حكاية، وحين بدأ الحكاية بـ «كان في عصفور»، لم يعرف الطفل ما العصفور، ولم يعرف الشجرة، ولا غيرها من الأشياء التي توجد بشكل طبيعي في حياتنا، وفهِم كيلو أن الطفل عاش حياته كلها في زنزانة باتت هي عالمه، ولا يعرف خارجها أي شيء.

يُسقط النظام غير واردة إطلاقاً، بل حتى فكرة البلاد دون وجود هذا النظام لم تكن أمراً يمكن أن أفكر فيه، كما لا يفكر أحد أن السماء ممكنة دون شمسها وقمرها ونجومها وغيومها، هي هكذا أمر من المسلمات: «سوريا الأسد».

اندلعت أخيراً شرارة الثورة السورية في درعا، وتناهت إلينا الأنباء عن مظاهرات فيها، واستيقظت في داخلي الأسئلة كلها:

هل يمكن أن تحدث ثورة؟

هل يجب أن تحدث ثورة؟

هل يمكن أن يذهب هذا النظام كما حدث في مصر وتونس؟...

لا أعلم إن كان ما يقال عن حجرات مقفولة داخل أدمغتنا نحبس فيها الأفكار التي تؤرّقنا صحيحاً، لكن كل تلك الأسئلة لم تكن وليدة خبر عابر كما أظن.

بالطبع لم أعتقد حينها أن ما حدث في درعا يمكن أن يمتد إلى غيرها، ثم وعندما امتدّ سريعاً حتى وصل إلى دير الزور لم أعتقد أنه سيغير أي شيء، إلا أنني كنت أحس بأن سرداباً منسياً في نفسي قد فتح، وخرجت منه الأفكار المصفّدة تكسر أغلالها لتجول في فكري، فتهاجم كل مسلّمة اعتقدتها عن بلادي وشكلها.

نعم كل ذاك الذي تعلمناه في المدرسة عن تاريخ سوريا لم يكن مجرد فقرات نحفظها لنقدم امتحاناً فيها، وليس مادة للتفاخر على غيرنا من الدول ذوات التاريخ القصير وإن سادت اليوم. هو حقيقة.. نحن كنا قبل هذا النظام، كانت لنا دول وأمجاد ونكسات وتفاعل مع الدنيا تأثّراً وتأثيراً، فلماذا يكون مستحيلاً أن يسقط هذا النظام إلى غير رجعة؟! لماذا يكون مستحيلاً أن تكون بلادنا متقدمة؟! ولماذا يكون مستحيلاً أن نقول ما نفكر فيه، وأن نرغب في التغيير ونسعى إليه وننجزه؟!

لم أتمكن من تبني رأي واضح حيال ما يجري، لكن أصوات هتافات الشباب تهزّ المدينة كل جمعة ـ ثم كل يوم ـ عملت في داخلي كما يفعل الهواء

بالنار، يذكيها فتضطرم، وإن كنت حذرة بما يكفي حتى لا أفصح عما في نفسي كما كانوا يفعلون بأصواتهم ملء الدنيا؛ ربما كان ذلك حذر الكهولة، فقد كان يفصلني عن معظم أولئك المتظاهرين ربع قرن من الزمان عشتها لا أعلم شكلاً آخر لهذه البلاد.

تحاملت على خوفي المتوقد أبداً، ووضعت نقاباً أخفي خلفه وجهي المتوجس، وانطلقت أتبع الأصوات إلى مظاهرة انتهت عند «دوار المدلجي» في المدينة، سمعت الهتافات كلها، ورددتها كلها دون أن تسعفني جرأتي المعهودة عني في تحريك شفتي، لم أستطع أن أنطق أياً من تلك الكلمات وإن كان كل ما فيّ ينطقها: «الشعب يريد إسقاط النظام»؛ عين تسمّرت لم ترمش، وحدقة توسّعت، وقلب يتسارع نبضه كأنه يخفق للمرة الأولى، وحركات سكنت.

لم أفكر حينها بالخوف من انتقام النظام إن أنا شاركت، ولكني ذهلت عن نفسي بجلال ما أرى، مئات الشباب اجتمعوا أمام منصة صغيرة، يرددون الهتافات خلف طفلة عرفتها وعرفت أمها، وفضاء يتسع مع كل تكبيرة، وأنا في زاوية قريبة أراقبهم ولا أستطيع المشاركة.

عرفت يومها إجابات أسئلتي كلها، وعرفت أن هذا النظام ليس أمراً حتمياً، وأن ما درجنا على اعتباره طبيعياً لم يكن إلا حالة مذِلة من الخنوع، وأن من حقنا الطبيعي ألا نُهان في كل مؤسسة ندخلها لاستخراج ورقة حكومية، وأن نرفض الفساد المقيم في كل ركن يدير منه هذا النظام بلادنا، بل من حقنا أن نتساءل عمّن أعطى الحق له أن يحكمنا رغماً عنا، من أعطاه الحق أن يقتل قدرتنا على التفكير كأحرار، فصاغنا جميعاً على مثال صيّرنا عبيداً لا أماني لهم أكثر مما تتمنى البهائم؟!

كان عليّ أن أنتظر بضعة أشهر فقط حتى أعرف إجابة هذا السؤال.. الحق هو أعطاه لنفسه، بالقوة، بالحديد والنار، بالرصاص من فوهات بنادق «الشبيحة» الذين كانوا يردون على الهتاف بالقتل، ثم أصبحت البنادق دبابات وطائرات، والرصاص قذائف وصواريخ وبراميل، أما الهتاف فبقيت أصداؤه تتردد من متظاهري الأمس أنفسهم، بعد أن حملوا السلاح لمواجهة آلة القتل تلك، وقسمت

المدينة إلى مدينتين: أغلبها القسم المحرر المدمر شبه الخالي من السكان، الذين لم يستطيعوا العيش تحت القصف وغارات الطيران، وبعضها الذي يحتله النظام ضمن حيّين من أحيائها غصّا بأبناء المدينة الذين خُيّروا بين الموت في المحرر والعيش في المحتل، فاختاروا ما تختاره غرائزهم وخشيتهم على أبنائهم، وعاشوا تحت سلطة فروع أمنية ازداد توحشها، وقهرٍ تعاظم شموله في المنطقة المحتلة.

أما أنا فلم يكن عليّ أن أختار أيّاً من ذلك، فمنزلنا كان في حي القصور، أحد الحيّين اللذين حافظ النظام على سيطرته عليهما، وكان علي أن أشاهد كيف كُدّس جل أبناء المدينة في حيين منها فقط.

في هذه المنطقة الصغيرة التي فصلت الجبهات جنوبها عن باقي المدينة، والجبل بالراجمات المتمركزة عليه غربها عن البادية، والنهر شرقها عن الريف، لم يكن مهماً كثيراً متابعة سير العملية التعليمية، لكن التظاهر بأنها مستمرة كان مهماً، سواء بالنسبة إلينا كمعلمين أو إلى النظام الذي كان يريد الحفاظ على بنية «دولة» تعمل كأحد أساليب الحرب، لذلك كانت المدارس التي اكتظت بالنازحين الذين سكنوا معظم صفوفها تفتح غرف الإدارة وسجل الحضور أمام المعلمين الذين يقدمون كل أسبوع أو أسبوعين لتوقيع حضور عن الفترة الماضية كلها، بما يخولهم استلام رواتبهم التي بقيت تأتيهم على رأس كل شهر، كما بقيت بعض الصفوف مفتوحة أمام الطلبة الذين يصر أهاليهم على إرسالهم للتعلم، وأمام عدد من المعلمين، سواء المسجلون أو المتطوعون من طلبة الجامعة لتعليم المواد الأهم: (اللغتان العربية والإنكليزية والفيزياء والكيمياء والعلوم والرياضيات..)، أما الحصص الترفيهية (الرسم والموسيقى والرياضة) -كما يسميها الطلاب- فلم تكن مهمة، فأي حصة رياضة سيحضر الطلبة وهم يعيشون حياتهم جرياً من طابور إلى طابور لتأمين مستلزمات حياة أسرهم؟ وأي لوحة سيرسمون وقد باتوا يعيشون جميعاً في «لوحة جرنيكا» ضخمة[٢]؟ أما الموسيقى فهي الغائب الحاضر كل يوم؛ أصوات الباعة المدلِّلين على فتات

---

(٢) لوحة غرنيكا أو جرنيكا (بالإسبانية: Guernica) هي لوحة جدارية استوحاها الفنان بابلو بيكاسو من قصف طيران قوات «حلف الصلب» كما بات يعرف لاحقاً، والذي ضم =

بضائعهم التي تصل إلى منطقتنا بصعوبة، والمولدات القليلة التي تؤمن الكهرباء ساعتين في اليوم لمن يستطيع تحمل ثمن الاشتراك فيها، والجلبة التي كان يصدرها كل شيء تقريباً في هذه المنطقة الصغيرة المكتظة، وفي خلفية كل ذلك أصوات الاشتباكات على الجبهة القريبة، ودوي القذائف والصواريخ تدك القسم الآخر «المحرَّر».

لم أجد في نفسي حرجاً من أخذ الراتب الشهري الذي لم يكن يكفي ثمن الطعام الذي نتناوله، بل كنت أعتقد أن كل ما آخذه ليس إلا جزءاً يسيراً مما أستحق، بل مما يستحقه أي أحد في هذه البلاد يعيش ضنك العيش اليوم بسبب نظام قرر أن تدمير البلاد وأهلها ثمن بخس لقاء احتفاظه بالحكم. أذكر أني في المَرة الأولى التي تسلمت بها راتبي بعد انقطاع بسبب إغلاق المدارس والاشتباكات في المدينة ابتسمت، مرّت أمامي يومها شخصية الموظف الشريف التي كان «أيمن زيدان» يتقن لعبها مرة إثر مرة في مسلسلات مختلفة تحمل الفكرة نفسها وإن اختلفت أحداثها، تبسمت لأني بتّ أعرف أن تلك المسلسلات لم تكن أكثر من بروباغندا إعلامية تحاول تحميل فشل الدولة للموظفين «المتقاعسين الفاسدين»، وتغيّب تماماً المنظومة المبنية أساساً بشكل فاسد يستحيل معها أن تعمل بغير فساد؛ إذ كيف لمن يأخذ راتباً يغطي ربع حاجته الأساسية من وظيفة يصرف فيها ثلث يومه حرفياً أن يعيش «شريفاً» كما تروج أسطورة مسلسلات زيدان؟! خاصة أنّ لكل منصب مهم في البلاد ثمناً يدفعه طالبه «رشوة» ليتسلّمه، ثم ما يلبث أن يستعيد كل ما دفعه أضعافاً مضاعفة من آلاف الرُّشى التي تصبح شرطاً لتسيير أي معاملة في مؤسسات الدولة، حتى بطاقة هويتك التي لا يمكن استخراجها دون مبلغ بسيط تعطيه للموظف الذي يقتطع منها جزءاً لمديره الذي يقتطع جزءاً لمديره، هكذا حتى تصب الأموال كلها عند صاحب الجيب الأكبر.. وليس هناك في البلاد من يمتلك جيباً أكبر من الرئيس نفسه.

= (ألمانيا ـ إيطاليا)، لمدينة إسبانية في ٢٦ نيسان/أبريل ١٩٣٧ حملت اللوحة اسمها، دعماً للقوميين الإسبان ضمن الحرب الأهلية الإسبانية.

على الرغم من أني لم أكن أعمل «عملياً» إلا أن الحفاظ على شبه حياة كان أمراً شاقاً يستنزف اليوم كله، لذلك لم أملك كثيراً من الوقت للتفكير في أي شيء. كنت أستيقظ باكراً في الصباح الذي ينزل ضوءُه دون عناء الاشتراك في مولدة ليعم الناس جميعهم، غنيهم وفقيرهم، مجرمهم وشريفهم، ثائرهم وشبّيحهم.. فقد أعادت ظروف الحرب للطبيعة اعتبارها، وبات الليل سكوناً وإن أرقته الاشتباكات والقصف، كما عادت لساعات الصباح الأولى أهميتها، فما يتنفس الصبح حتى تتنفس المدينة كلها، وأبدأ معه يوماً آخر شاقاً لا أعدّ ترتيبه، ولا يهمني كثيراً اسمه، فقد تشابهت الأيام كما تشابهت أحياء هذه المدينة، وما كان سابقاً «القصور» لم يعد يختلف كثيراً عن «الجورة»، وهما حيّان متباينان تباين الليل والنهار، لم يكونا يتشابهان إلا بمقدار نصيب كلٍّ منهما من اسمه؛ فالقصور حي راقٍ نسبياً يسكنه غالباً الموسرون، أما الجورة فحي شعبي تتراكم فيه المنازل فوق بعضها، ويجد فيه المعسر سبيلاً لحياة مستقرة كما تعرفها قواميسنا الخاصة، التي تجعل تملّك منزل ـأياً تكن حالتهـ شرطاً من شروط الاستقرار.

لكن مع سيطرة النظام على الحيين اللذين شهدا أكبر مجزرة عرفتها المحافظة، وثاني أكبر مجازر البلاد أواخر أيلول/سبتمبر عام ٢٠١٢، بأكثر من ٤٠٠ شهيد قضوا بطرائق إعدام وحشية متعددة بأيدي جيش النظام وشبيحته، تحول الحيان اللذان باتا «منطقة سيطرة النظام» إلى ما يشبه المخيم الكبير، وانتشرت الشوادر في كل مكان فيهما، أما الشوارع فتحولت إلى أسواق بسطات مفتوحة متصلة على الرغم من شُحّ البضائع المَبيعة، واتخذت المولدات الكهربائية الكبيرة لنفسها أماكن قريبة من زوايا الشوارع ليتسنى لأصحابها مد الكهرباء إلى أكبر عدد من المستفيدين، وغابت الخدمات الرئيسية، فلا عمال نظافة ولا مياه ولا كهرباء، واختفى اللون الأخضر تدريجياً من شوارع المنطقة بعد أن تحولت كل الأشجار إلى حطب للمواقد بدائية الصنع مع غياب المحروقات، وتبعتها أنواع الأثاث التي يمكن الاستغناء عنها، مع المقاعد المدرسية والأحذية والملابس القديمة، وكل ما يمكن حرقه طلباً للدفء، وساد في المدينة لونٌ واحدٌ لكل شيء، هو لون الطين.

تفقّد خزانات المياه التي نقلناها إلى داخل المنازل بعيداً عن السطوح بعد أن ثُقِبَت مرات عدة بالرصاص الطائش كان أولى المهام، وبناء على ذلك كان يمكن تقدير مسموحات هذا اليوم من استخدام المياه، هل نغسل وجوهنا؟ هل نتوضأ براحة؟ هل نقوم بتنظيف المنزل أو غسيل الثياب؟ أم نكتفي بالاقتصاد فيها يوماً أو يومين إضافيين؟ أما الاستحمام فكان يقتصر على اليوم الذي نقوم فيه بملء الخزانات، وفي الشتاء يكون توفر ما نسخن به المياه شرطاً إضافياً للاستحمام.

ثم تتتابع مهام اليوم الذي لا يكاد يبدأ حتى ينتهي، وحتى عندما لم يكن هناك حاجة لمغادرة المنزل، يكون النزول إلى السوق جزءاً رئيسياً من اليوم، فبالنسبة إلى امرأة اعتادت العمل ثلث يومها أعواماً طوالاً، تصبح فكرة الجلوس في المنزل ظلاً ثقيلاً مخيماً لا يزول إلا بمغادرته، حتى إن كانت الوجهة التجول في السوق لغاية التجول فقط، أما العبارة المعتادة التي يشيع استخدامها عند مغادرة المنزل للتنزّه «شمّة هوا» فلم تكن تصح تماماً في منطقتنا آنذاك، ولا أبالغ حين أقول إن المنزل كان أقل ازدحاماً من شارع السوق حينها.

اعتدت المشي في شارع الوادي الذي يقطع حي الجورة للتسوق (أو التنزه)، وأذكر تماماً تساؤلي كيف ضاقت علينا هذه المدينة حتى لم نعد نستطيع المشي في أزقتها دون الارتطام بالناس؟! وأين ذهبت تلك المساحات الشاسعة التي كانت طابعاً مميزاً لها؟!

أكاد أختنق هنا.

ذاك هو الشعور الوحيد الذي كنت أحس به.

بت أفهم تماماً كيف يمكن للبشر أن يعيشوا الحرب أعواماً، هناك لم يكن ماضٍ ولا مستقبل.. فقط اللحظة نفسها هي الموجودة، وحين تنتهي تضيع مع كل ما ضاع، وتبدأ لحظة جديدة أخرى لم يتم التحضير لها، بل لم يتم التفكير فيها، هي فقط لحظة جديدة نعيشها، وننتظر النهاية.

ربما كان لنزوحنا أثناء معارك تحرير المدينة الأولى، الذي أوصلنا إلى مدينة الرقة ثم منها بعد تحريرها وتعرضها للقصف في آذار/مارس عام ٢٠١٣ إلى ريف حلب فتركيا، أثرٌ كبيرٌ في قراري آنذاك.

فقد كنت أعرف أن إمكان الحياة خارج تلك البقعة المنسية موجود، وأن هناك حياة كاملة يمكن أن تكون أفضل فيما لو خرجنا، وأن كل ما يحول بيني وبينها هو أنا، نفسي التي تجرني لليأس وعيش الدنيا لحظة بلحظة، وانتظار شيءٍ ما لا أعلمه.

قضينا سبعة أشهر في تركيا قبل أن يقرر أحدهم أن الأمور استقرت في المدينة نسبياً، وأن منطقة النظام التي يقع فيها منزلنا ويعيش فيها أقرباؤنا آمنة، وأن العيش فيها ممكن حيناً من الزمن، تخفيفاً للمصاريف، وريثما يتم ابني دراسته في جامعة الفرات ضمن المنطقة نفسها.

كانت فكرة غبية، لكن للأفكار الغبية دائماً بريقها.

عدنا عبر حلب إلى الرقة فدير الزور، قطعنا مئات الكيلومترات الخارجة تماماً عن سيطرة النظام، وذهبنا إلى تلك البقعة التي تمترس فيها في حيَّي الجورة والقصور، لنخفف المصاريف، وليلتحق ابني بجامعته، ولنستنزف ما بقي من أرواحنا في حياة عبثية لا معنى حقيقياً لها.

أكاد أختنق هنا.

بقيت الفكرة تحاصرني حتى لم أعد أطيق الاحتمال؛ سأغادر إلى تركيا مرة أخرى، وهذه المرة لن أعود حتى أتيقن أن هذا النظام سقط وأن البلاد استقرت، أو حتى يعود كل شيء كما كان قبل الثورة.

تزامن قراري هذا مع سيطرة داعش على المناطق المحررة من المحافظة، بما فيها القسم الآخر من المدينة، في آب/أغسطس من العام ٢٠١٤. وعلى الرغم من أن النظام كان يركز في دعايته دوماً على أن المسلحين في صفوف الثورة هم جميعاً إرهابيون، لا فرق بين تشكيل وآخر منهم، إلا أن كل من في المدينة، بمن فيهم جنود النظام نفسه، لمسوا الفرق الكبير بين داعش وغيرها؛ فقبل سيطرتها على القسم الآخر من المدينة الذي يتحكم بطرق دخول المواد الغذائية وما شابهها إلى المنطقة الخاضعة لسيطرة النظام، لم نعرف نقصاً في أي شيء، ولم يتم منع دخول أي من المواد الغذائية أو الطبية وغيرها، لكن وبعد فترة من

سيطرة التنظيم على المدينة أصدر قراره بإغلاق كافة المعابر بين القسمين، ومنع دخول أي شيء إلى مناطق النظام، وبدأنا ندرك أننا الآن محاصرون فعلاً، وأن ما كان يروج له النظام من مواجهته لمجموعات إرهابية بات واقعاً، لكنه جزء من الحقيقة فقط.

فالمعركة الآن بين طرفين «إرهابيين» حقاً، لا يجد أيٌّ منهما في نفسه انتماء إلى الشعب، وكلاهما يستخدم الأهالي أداةً في حربه ضد الآخر، وإن كانت داعش مع كل الإجرام الذي امتهنته لم تستطع أن تقترب حتى من المرتبة التي حجزها النظام لنفسه في الدرك الأسفل من عتاة المجرمين، ولو كنت أؤمن بالتلبّس لاعتقدت أن هذا النظام من رأسه وحتى أصغر ضابط فيه ما هو إلا مجموعة من الأرواح الشيطانية التي تلبست بشراً، لم يبقَ لهم من بشريتهم شيء إلا هيئاتهم.

وضعت خطتي للرحيل نهائياً وبدء حياة جديدة في مكان آخر هو تركيا، وواجهت معارضة كبيرة من زوجي الذي أخبرته بخطتي لكنه رفض، وبقي مصراً على البقاء في المدينة أو التوجه إلى دمشق حيث يقيم عددٌ من أقاربه، لكن ما الفرق بين هذه المنطقة ودمشق؟

لا يمكن لأي كلمات في الدنيا أن تصف شعور العيش تحت قوة أمنية متوحشة، أعني لقد اعتدنا العيش أعواماً تحت حكم هذا النظام وسلطته الأمنية، لكنها لم تكن يوماً كما هي خلال سنين الحرب.

كشرت هذه السلطة عن أنيابها، وأطلقت العنان لأجهزتها الأمنية ككلاب مسعورة لا تجد ما تنهشه إلا نحن.. الشعب، وكان أن تحولنا فجأة لطرائد تعيش في الظلال، وتبتعد عن مرمى أنظارها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وتذعن عند كل مواجهة معها حتى لو كانت وقوفاً على حاجز تفتيش، أو استخراجاً لوثيقة حكومية، فكل ما تمثله أنت من أحلام وآمال يمكن أن ينتهي إذا شاء أصغر ضابط أن ينهيه..

مؤيدين ومعارضين، رجالاً ونساء وأطفالاً حتى.. نحن هنا تتمة عدد، هامش على متن حكاية تخطها البنادق.. وفقط البنادق.

لذلك حتى عندما رفض زوجي خطتي قررت المضي قدماً فيها؛ كشف علامات يستخرجه ابني ليتم دراسته في الخارج، ترتيب إنهاء تعييني كمعلمة والاستقالة، الترتيب مع قريبتي التي تعيش في تركيا لتؤمن لنا إقامتنا وطريق الدخول، وأخيراً جواز سفر جديد بدل الجواز الذي قمت بإحراقه عندما عدنا من تركيا، لأن ختم الدخول إليها المطبوع على صفحاته كان يعني أنك مشتبه به محتمل بالنسبة إلى فروع الأمن.

مضت خطتي كما يجب، استخرجت الأوراق وجمعت المال اللازم لرحلتنا وإقامتنا، وتقدمت بطلب استخراج جواز سفر بدل ضائع، وبقي فقط أن أتسلم الجواز ثم أقدّم استقالتي من وظيفتي وأمضي.

كان العام ٢٠١٤ قد شارف على الانتهاء، وكنت قد قررت أن أمضي خلال الشهر الأول من العام الجديد إلى حياتي الجديدة، وفي آخر أيام العام ذهبت إلى مبنى المعهد التجاري النسوي الذي تحول إلى قسم محاسبة للمعلمين لاستلام آخر راتب لي، وكنت أنوي أن أصرف جلّه على مأدبة متواضعة لأقاربنا بمثابة وداع بسيط غير معلن، فآذان الحيطان تزايدت، والقريب لم يعد يُؤمن جانبه، والأفضل الاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان.

وقفت في الطابور الطويل أمام المحاسب أنتظر دوري، وصلت، استلمت ووقعت، ثم عند استدارتي كان هناك شخص يسألني: «أنت فلانة؟».

دائماً ما أرجع إلى تلك اللحظة تحديداً، ماذا لو قلت: لا.. ماذا لو حاولت الإفلات قبل أن أركب تلك السيارة وأمضي إلى المكان الذي دفنت فيه روحي.. ماذا لو قاومت بأظافري حتى اضطررتهم إلى القيام بتصفيتي.. ماذا لو.. لعنت ماذا لو.

أخبرني أن عليّ الذهاب معهم لاستجواب بسيط يخص طلبي لاستخراج جواز سفر، كانت ملامحه طبيعية جداً وهو يردد: «ما تخافي.. شغلة سؤال وجواب».

«سؤال وجواب».. يعرف السوريون جيداً ما الذي تعنيه «سؤال وجواب» عند هؤلاء، يحفظون عشرات بل مئات قصص العذاب التي بدأت بـ «سؤال وجواب»، لكنهم دائماً عندما يسمعونها في موقف مشابه يختارون تناسي كل ما عرفوه يوماً، ويتمسكون بخيط أمل لا وجود له بأن القضية فعلاً ستكون «سؤال وجواب».

التفتّ إلى قريبتي التي تقف ليس ببعيد وغافلت العنصر الذي ينتظرني ودسست موبايلي والمبلغ الذي استلمته كراتب في حقيبتها، وهمست لها أن توصل الخبر مع الأمانة إلى عائلتي، ومضيت معهم.

كانت داعش قد بدأت تخرج إصداراتها المروعة إلى العالم عن تفننها بإعدام أسراها، وكان السؤال الذي يراود الجميع آنذاك هو كيف أمكنهم إقناع ضحاياهم بالسير هادئين إلى حتوفهم، ووضعت نظريات وسيناريوهات مختلفة عن الآلية التي يستخدمونها، لكن لا أحد تحدث عن اليأس وبصيص الأمل كنظرية! عن رباطة الجأش المزيفة التي تثبت الأطراف عندما يرتجف القلب، عن اليأس من النجاة وأنت تساق إلى حتفك أو ما يغلب على ظنك أنه حتفك، وعن بصيص الأمل الواهي بمعجزة تنجيك، هو ذاك اليأس ما يثبت الأطراف، فما الفائدة من استعجال الألم إن أنت قاومت، وبصيص الأمل ما يبقيك واعياً تترقب معجزة يخبرك الأمل ألا تفسدها بفورة غضب تريد منها إيذاء جلادك قبل أن يرديك، فلا أنت جثة لا حراك لها، ولا أنت تملك عزمك فتقاوم.

هي نفسها المعادلة التي تسوق بها الديكتاتوريات شعوبها إلى حتوفها طيّعة؛ يأس من المقاومة، وبصيص أمل صغير لا يجب أن يتعاظم فيذهب باليأس.

هكذا كنت أمضي إلى ذلك المكان الموحش المليء بالموت والخوف، أتعلق بالكلمة التي أعرف زيفها «سؤال وجواب»، وأرجو معجزة تنجيني.

اصطحبتني الدورية داخل الفرع إلى الطابق الأول، وجلس محقق خلف مكتبٍ يتبسم ويخبرني أن أهدأ وأن الأمر من أجل جواز السفر، سألني عن عائلتي كلها.. أسمائهم وأعمارهم وأشغالهم وأماكنهم وأولادهم وأزواجهم.. كل

شيء، ومع كل سؤال كنت أفقد الأمل أكثر بأن الأمر ليس حول جواز السفر فقط.

رجوته أن يخلي سبيلي لأن أهلي لا يعلمون أين أنا (حسب ما أخبرته)، وحافظ هو على وعوده المقتضبة بإخلاء سبيلي ريثما ينتهي من الأسئلة.

انتهت الأسئلة بعد ملف أزرق امتلأ بالإجابات، وساعتين من الزمن، ليستدعي المحقق عنصراً ويخبره أن يصطحبني إلى «تحت»!

كنا في الطابق الأول، و«تحت» كانت تعني الطابق الأرضي الذي يضم بوابة الخروج، وكانت تعني أيضاً ما تحت الأرضي، وهو المكان الذي يخنق الأصوات فلا تغادر هذا البناء كأنه مقبرة، ويصنع القصص التي تجول البلاد كلها لتبث الرعب في النفوس.

اقتادني العنصر إلى غرفة في الطابق الأرضي، عرفت لاحقاً أنها لرئيس المحققين «أبو ماهر».

نطق أبو ماهر السؤال الأول بلهجة أعادتني عقدين من الزمن إلى الخلف، إلى الوقت الذي تمكنت فيه أختي من إقناع أهلي بذهابي للسكن معها في إحدى مدن الساحل، بعد أن انتقلت مع زوجها إلى هناك.

أمضيت عامين تقريباً أثناء مرحلة دراستي الثانوية في مدينة تضم سنة وعلوية، لم يكن حينها هذا الأمر مفهوماً لدي، أعني الفرق بين السنة والعلوية، لكن كل شيء في تلك المدينة كان يصرخ بالفرق بينهما.

وعلى الرغم من أن الحديث عن الفروقات الطائفية لم يكن شائعاً هناك، على الأقل في محيطي، إلا أنني تمكنت سريعاً من امتلاك قدرة التمييز بين الطائفتين من اللهجة، كما تمكنت من ملاحظة توجس كل منهما من الآخر. على الرغم من كل ذلك لم أحس يوماً أن بيني كسنية وبين أحد من العلويين أي حاجز، ربما لأنني كنت غريبة عن المنطقة، أو لأنني لم أكن أعي جيداً الفرق بينهما، أو لأنه من المفترض كسورية ألا أجد فرقاً بين أي سوري وآخر.. هذا كله سيتغير إلى الأبد بعد السؤال الأول: «شو كنتي تعملي بتركيا؟».

نفيت ذهابي إلى تركيا يوماً، وهنا سمعت لأول مرة في حياتي شتيمة موجهة مباشرة إلي.. إلي أنا!

ذهلت تماماً.. ثم استجمعت ما لدي من قوة حتى أرجوه أن يخلي سبيلي.. حتى أقسم له «صادقة» أنه لم يسبق لي الذهاب إلى تركيا، وقد كنت صادقة تماماً! أعني بأني كنت مقتنعة تماماً بأني لم أذهب يوماً على الرغم من معرفتي بذهابي، وهذا أمر لا أعلم كيف أفسّره.

كيف يمكن أن تكون صادقاً وأنت تكذب؟! لكني كنت صادقة.

هز رئيس المحققين رأسه وضغط على مفتاح في مكتبه، فرن جرسٌ دخل على إثره أحد العناصر الذي استجاب لأمر أبي ماهر «خدها» بجرّي من يدي خارج الغرفة.

إلى أين يأخذني؟ مرة أخرى يطغى بصيص الأمل على كل حقيقة ومنطق، ومرة أخرى أتصور أنه سيأخذني خارج الفرع، أو إلى الغرفة الأولى لأوثق أقوالي ثم أنصرف.. ومرة أخرى يظهر زيف بصيص الأمل.

تلاشى كل شيء وأنا أنزل مع العنصر أدراجاً تحت الأرض، إلى ما كنت أخشاه.. انتهى الدرج عند باب حديدي يحرسه عنصران و«أركيلة».

«تفضلي يا أهلا وسهلا»، استهزأ أحدهما بعد أن نزع خرطوم «الأركيلة» من فمه وفتح الباب خلفه، لندخل منه إلى غرفة قبالته.. أخذ حقيبتي وأماناتي ثم أخلى الغرفة لسيدة ـكانت تبدو أقرب للشبح منها للأنثىـ قامت بتفتيشي، عرفت لاحقاً أن تلك السيدة كانت معتقلة لديهم منذ مدة.

اقتادني بعدها العنصر عبر ممر طويل مظلم تفصله أبواب حديدية عن زنزانات على جانبيه، حاولت جاهداً ألا أسترق النظر خلف قضبانها دون جدوى.

شاب معلق «مشبوح» في الزنزانة الأولى يبدو أنه تعب من الصراخ فاستعاض عنه بأنين مكتوم يكاد يشق صدر السماء، ودماء.. دماء جافة على

الجدران والأبواب والأرضيات وأيدي العنصر الذي يقتادني.. وعلى جدران ذاكرتي.

انتهى الممر إلى باب حديدي آخر، دلفنا منه إلى باب زنزانة فتحها ودفعني داخلها وهو يتمتم: «قعدي قعدي.. لا تخافي»، ثم أغلق الباب خلفي.

كانت الغرفة مربعة الشكل يصل طول ضلعها إلى أربعة أمتار، جلستْ فيها سبع فتيات على الأرض، وأصبحت أنا الثامنة.

أخذت مكاني قرب ثلاثٍ استندن إلى جدار قبالة الجدار الذي استندتْ إليه الأربع الأخريات، وللمرة الأولى أحس بالبرد، ليس البرد الطبيعي الذي يحس به الإنسان عند انخفاض درجات الحرارة، بل هو نوع مختلف من البرد، برد يدخل قبل الأطراف والعظام إلى القلب.. إلى الروح.. برد يفتح باب منطقة شاسعة مقفرة لم أكن أعلم بوجودها في نفسي، منطقة تصاغرتُ أمامها أنا وأحلامي وما أمثله حتى ضعنا، وبقي الخواء تعصف به ريح باردة.

كنت أجيل النظر في الوجوه التي سأعتاد تبدلها خلال شهرين ونصف الشهر هي مدة اعتقالي، وأفكر؛ هؤلاء هن الفتيات اللواتي تناقلت أسماءهن صفحاتُ «الفيسبوك» خلال الفترة المنصرمة، صفحات ومنشورات تطالب بهن، وهن قابعات هنا لا يعلمن إن كنَّ قد نُسين أو لا، لا يعلمن إن كان ذووهن يحاولون إخراجهن أو أنهم يئسوا، لا يعلمن أي شيء خارج هذه الجدران، كما كنت لا أعلم.

خطر لي بعد فترة من الاعتقال أن أخبر بعضهن عن الحملات التي تضج بها صفحات التواصل الاجتماعي حولهن، وأن هناك من يذكرهن ويذكّر بهن كل يوم، خاصة مع ما لمسته من انكسار ويأس يعتريهن، لكني فكرت أن إخباري لهن قد يوقد في نفوسهن نار أمل خبت منذ زمن!

ليس اليأس ما يخشاه الإنسان في المعتقل.. الأمل هو ما يجب أن يخشاه.. حالة الانتظار لفرجٍ قريبٍ وغدٍ مشرقٍ هي ما يجب أن ينساه.

أما كل ذلك الكلام عن ضرورة التمسك بالأمل للنجاة فهراء محض.. اليأس هناك هو ما ينجي، فهو الذي يعينك على اللامبالاة الضرورية لتمضي الأيام كما هي، لا غدٌ منتظر يطيل دقائقها، ولا آمال عريضة تثقل خيبات الأيام على النفوس.

وليتني كنت أستطيع الاستسلام لليأس هناك منذ الليلة الأولى، لكن بصيص الأمل بقي يتعلق في نفسي لا يفارقها، يأخذني خارج هذا المكان إلى كل شيء في الدنيا بما فيها نفسي في كفة، وإلى ابنتي التي تنام بعيدة عني للمرة الأولى في كفة أخرى.

كنت ككل الأمهات أردد دائماً أن لا أحد يفرق بين أولاده، وأنهم سواسية في الحب والاهتمام.. ربما كنت أخفي حقيقة أخشى أن تخطر لي، أو لعلي لم أكن أعلمها حتى دخلت ذاك المكان، فتجلت لي واضحة لا تقبل الجدل.. لا أحب في الدنيا أحداً كحبي ابنتي، لا زوجي ولا ابني ولا نفسي حتى.

غادرتني روحي إليها هناك، تحوم حولها جالسة على طرف سريرها تبكي غيابي، وتتمنى أن تخلّق الروح لحماً ودماً وعاطفة تغمرها وتواسيها، تطمئنها أني بخير.. أو أنني سأكون بخير حين أعلم أنها بخير.

ـ «ماما.. سامعتيني ماما.. لا تبكي».

ـ «إنتي هون ماما؟.. إنتي زينة؟».

ـ «أنا هون يا حبيبتي.. هون وبخير.. وبحياتي ما رح أتركك».

ـ «وين كنتي؟».

ـ «المهم أنا هون حبيبتي..».

ـ «ماما.. شكون هالأصوات؟ منو سهران برا؟».

ـ «أصوات.. مو سمعانة شي».

ـ «مبلا ماما اسمعي..».

«بصحتك».. ضحكات ثقيلة.. وأغانٍ ساحلية تتخللها وصلات الفداء لآل الأسد.. وبعض الأعيرة النارية التي أيقظت غفلتي..

ـ «إي ماما.. هذول حرس السجن.. وأنا بالسجن.. وإنتي مو هون.. أنا بس اللي هون».

ـ «بس أنا اشتقتلك ماما وبدي إجي عندك».

ـ «لا حبيبتي.. هون مو مكانك.. اطلعي برا.. إذا أبوكي ما وافق اهربي لعند خالتك بتركيا.. عم تسمعيني.. حبيبتي.. اهربي..».

تلاشت صورتها أمامي وبقيت الحقيقة.. فتيات يكبرن ابنتي بقليل ارتصفن أمامي بلا أرواح، بعد أن أرسلنها إلى أهاليهن وأحبتهن، وأصوات احتفالات السجانين برأس السنة في الخارج تباغت أحلامنا، وتنزع عنها الألوان والوجوه والسحر، وتعيدنا جميعاً إلى هذا المكان البارد.

دخلتُ العام الجديد معتقلة، ولا أعتقد أنني نمت ليلتي الأولى، لكني أيضاً لم أكن مستيقظة تماماً، بل بقيت أتردد بين الذهول والوعي حتى طلع الصباح، وفتح معه باب الحديد على وجبة إفطار ضمت عددنا من حبات البندورة والبطاطا المسلوقة، وصحن صغير من مربى اختفت الثمار منه، وقليل من الخبز.

لم أستسغ الطعام يومها، كما لم أفعل عندما أدخلوا إلينا قصعة من البرغل المسلوق على الغداء، لكنني بعد أيام قليلة بت أنتظر الطعام لسد الرمق، ولا أنكر أني تلذذت به مرة أو مرتين، وستبقى قصة الطعام في المعتقل أمراً تحسدنا عليه الناجيات الأخريات في فروع أمنية أخرى سجنّ فيها، وكن يتمنين فيها شيئاً يسد الرمق.. أي شيء.

بعد الغداء فتح الباب، لكن هذه المرة ليس لجلب طعام، بل لاستدعائي إلى أولى جلسات التحقيق.

عبرَ الممرات إلى غرفةٍ جلس خلف طاولة فيها رجل قصير القامة، ماكر الملامح، يرتدي بدلة عسكرية.

بسام وردة، علوي من الساحل، وصاحب أبشع صيت في فرع الأمن العسكري في المدينة، بل بين جميع فروع «الأمن» التابعة للنظام في المحافظة.

وقفت أمامه أرتجف مثل طالب ينتظر عقوبة معلمه، وما كنت أظن أن مثلي سيكون له موقف كهذا إلا بين يدي المولى، ولا أشبّه.

ـ «إيه.. احكيلنا.. شو كنتي تعملي بتركيا؟».

ـ «ما كنت بتركيا».

ـ «احكيلنا.. شو كنتي تدخلي من تركيا للمسلحين».

ـ «يا سيدي والله ما رحت على تركيا ولا شفت تركيا».

انقضت وصلة مطولة من كلمات لا أجرؤ حتى على استرجاع صداها في ذاكرتي، قبل أن يفتح أمامه الملف الأزرق الذي ملأه المحقق السابق بإجاباتي حول عائلتي، ثم أعاد سؤالي عن كل شيء فيه، كأنه يقوم بالتحقق من حفظي لدرسٍ على طريقة جلسات «التسميع» التي يقوم عليها نظام التعليم في بلادنا، من الجلوس بين يدي الشيخ في الكتّاب إلى ورقة امتحان طالب جامعي في عامه الأخير.

أما أنا فكررت كل شيء متقية كلماتي بحذر، خشية أن تثير إحداها اهتمامه فيمضي في أسئلته إلى حدٍّ يقرر فيه تمديد «السؤال وجواب» الذي مضى عليه حتى ذاك الحين أكثر من ٢٤ ساعة.

أعادني المحقق إلى الغرفة بعد أن أعاد على مسمعي شتائم وإهانات لم أعتقد يوماً أن قاموس أي لغة يستطيع الإتيان بها، وهناك جلست أبتلع الإهانة صابرة أحاذر الانهيار.

قررت يومها أن الكلمات يمكن أن تكون أمضى في النفس من الأذى الجسدي، كنت أنزف كرامة خلف وجهي ثابت الملامح، وإن كنت أعتقد أن عينيَّ فضحتا كل شيء، كأنهما ينتظران سؤالاً عما حدث لينفجرا دموعاً وألماً.

لكنّ عرفاً غير متفق عليه بين المعتقلات أقالني من ذلك، لا أحد يسأل عما حدث، كأنه هروب من السؤال عن المستقبل لبعضهن، والماضي لأخريات، فكلّ سيرِد غرفة التحقيق تلك، وكل سيعود كما عدت، وينتظر كما انتظرت ما تفعل به الأيام.

قررت حينها أن الكلمات يمكن أن تكون أمضى في النفس من الضرب، وأن هذا تحديداً، قبل كل شيء وبعد كل شيء، هو ما يميز الإنسان عن سائر مخلوقات الله، أنك تستطيع أذيته بشيء غير الضرب، أنك تستطيع أن تجعله يتمنى الاستعاضة عن أصوات تفك شيفرتها قواعد اللغة باللكمات والسياط، كما قررت يومها ألا أفقد إحساسي بالإهانة، وأن أحافظ عليه ما استطعت لأنجو بإنسانيتي في ذاك المكان، فإذا عادت الكلمات أصواتاً تفهم معناها ولا يبلغك أثرها، فقد تحولت جماداً أو حيواناً، وهذا أكثر ما يمكن أن تفقده هناك.. أو هكذا ظننت حينها.

مضت أربعة أيام طوال أكلت فيها البطاطا والمربى والخبز، وخرجت فيها إلى الحمام ساعة الظهيرة، والتصقت بعدها وقبلها في زاويتي أزجّي النفس بسماع المشاكل البسيطة، أعني الأشياء الصغيرة خلف الحال التي كنا نعيشها؛ مياه الحمام الباردة، محاربة القمل، الوسائل البدائية لإيقاف النزيف الشهري، الأصوات القليلة التي تصل غرفتنا وتذكرنا أن خلف هذه الجدران حرباً طاحنة، وقصص الوافدات الجديدات عما يحدث هناك.

استدعيت مرة أخرى إلى التحقيق، وهذه المرة كان عليّ أن أقف أمام أبي ماهر وبسام. لم تكن هناك لحظات صمت طويلة كما تظهر الأفلام، بل لم أكد أدخل حتى باشرني بقوله: «احكي شو كنتي تعملي بتركيا.. ما رح تطلعي لتحكي».

أعدت تكرار ما قلته سابقاً، والذي لم يكن بطبيعة الحال مرضياً، ليبدأ بسؤالي عن أفراد عائلتي خارج المدينة، فلان الذي ترك وظيفته كمدير لإحدى مؤسسات الدولة وهرب، أبناء فلان الذين تعج حساباتهم بعبارات الانتماء للثورة، وفلان الذي يعيش الآن ضمن مناطق سيطرة الجيش الحر.. وهكذا.

أخبرته أن لا علاقة لي بهؤلاء، وأني لو كنت أريد الفرار لما عدت من الرقة (أخبرته أنها كانت أبعد ما وصلت إليه)، وأن لا سبب يجعلني أسكن هنا لو كنت «من جماعة الثورة». لكن كل ما قلته لم يكن ذا معنى بالنسبة إليهما، فقد كانا يريدان إجابات محددة يعرفانها سلفاً، ليس مهماً أن تكون حقيقية، المهم أن أنطقها فتصبح كافية.

«مدي إيدك»، قالها ببرود بعد أن وقف قبالتي يحمل قطعة من كبل كهربائي.

صعقت!

أنا! أمد يدي؟

أعادتني كلماته إلى مشهد الطلاب مرتصفين أمام «الموجه التربوي» يصرخ بهم أن يمدوا أيديهم ليعاقبهم على شغبهم، وهو أمر تجنبته طالبة بالتزامي بالقوانين، ومعلمة بأن أكتفي بالتنبيه والتخويف.

أنا أمد يدي! حتى والدي لم يقل لي هذه الكلمة وأنا طفلة.

«عيب والله.. أنا أكبر منك.. معلمة ومربية أجيال»، حاولت أن أكلمه كإنسان، أن أُدخِل شكل العلاقات الطبيعية بين الناس إلى غرفة التحقيق، لكن كل شيء في تلك الغرفة يتغير.. فلا المعلم هنا لهِ احترامه، ولا العمر له احترامه، ولا شيء له احترامه إلا الرتبة التي يحملها كتفك سواء ارتديتها أم لم تفعل.

انهال عليّ بسيل من الشتائم كنت أحس معها أن الأرض تهتز لوقعها، بل حتى العرش، ثم دفعني.. ليس بيده.. دفعني بقدمه موقعاً إياي على أرض

الغرفة، وبدأ بركلي.. حتى لم أعد أستطيع سحب نفسي، ثم أرسلني إلى الزنزانة على تلك الحال.

«يا رب أموت.. يا رب خذني»، ناجيت الله بأصدق دعاء نطقته شفتاي طوال عمري، لم أعد أريد الخروج، كنت أريد الموت حقيقة، ففكرة العيش مع إهانة كتلك بدت بلا جدوى!

لكن رؤية المعتقلات يعدن من غرف التحقيق تباعاً، يحملن آثار الضرب والإهانة، يرتجفن خوفاً وغيضاً، وتخرج دموعهن لا لتخفف عنهن، بل لتزيدهن ألماً، هونت علي ما أنا فيه، وقتلت بعض الأمل في نفسي.. لا بد أنّ أمامي مشواراً طويلاً، فقد كنت أقلهن أذًى وأحدثهن وصولاً.

وقد كان.. فبعدها بأيام خرجت مرة أخرى للتحقيق، ونلت من الضرب والإهانة ما لم أكن أظن أن إنساناً يطيقه. عدت يومها إلى المهجع دون أن أبكي.. فقد بكت المعتقلات عني ولأجلي، وعرفت من بكائهن أن حالتي سيئة إلى هذا الحد.

كنت قد فتحت يدي هذه المرة، ليضربني بـ«كرباج» تآكلت أطرافه بقدر ما أكلت من أجساد من سبقوني، أغمي علي واستفقت على آلام أخرى ولسعات أخرى.. قبل أن يعيدني إلى المعتقل لتبكيني زميلاتي.

في اليوم التالي كانت يدي قد تحولت للون الأزرق، وأحسست بشِعر في كف يدي، وألم أجرى من عيني ما لم يجره الضرب في اليوم السابق، ولحسن حظي فقد كان لمدير السجن جولة تلك الليلة، فتح الباب ودخل ليتفقد السجينات اللاتي وقفن أمامه، بينما أكملت تقوقعي على يدي باكية، سأل عما أصابني وأخبرنه، فأمر إحدى المعتقلات بأخذي إلى الطبيب الذي فغر فاه وهو ينظر إلى يدي، ثم أعطاني ضماداً وحبة التهاب وأعطى المعتقلة التي رافقتني «إبرة» لتحقنني بها، فقد كانت خارج هذا المكان ممرضة.

مر المحقق «لؤي» الذي ضربني بغرفة الطبيب وهو يركب لي الضماد، وسأل باستهزاء عما حدث لي، فأخبره الطبيب بحالتي، تبسم وهو يردد: «إن شا الله تموت».

لم تهن علي نفسي يوماً كذلك اليوم، لم يكن الأمر شعوراً بالإهانة.. كان العكس.

يومها فهمت كيف يصنع العبيد، كيف كان يمكن لسيد أن يسوس عشرة عبيد أمامه يسومهم العذاب، ثم ينام بين يديهم قرير العين دون أن يخشى لهم قومة.

لم أكن قد وصلت ذاك الحد بعد، لكني أحسست بإنسانيتي تنسل مني مع دموعي، مع ألمي وحزني، نظرت إلى نفسي فوجدتني لا أساوي نوبة غضب لأحد هؤلاء السجانين، لو شاء يومها أن يرفع يده قليلاً فيضرب وجهي ربما حولني مسخاً، ولن يحدث شيء، سيأتي إلى غرفة الطبيب، ينظر مستهزئاً ويردد مبتسماً: «إن شا الله تموت».

لو ضربني خلف رأسي، ومت للحظتها، لما حدث شيء، كان سيراقب العساكر يجرون جثتي ويردد غير مبالٍ: «كلب وفطس».

أنا لا شيء.. إنسان مع وقف التنفيذ.

خرجت مرتين أخريين للتحقيق، عرفت فيهن أن ما يريده المحقق فعلاً ـ أكثر من سؤالي عن دوري غير الموجود في تمويل الإرهابيين ـ هو معرفة كل أملاك أقاربي «المعارضين» في المدينة، ربما ليضع يده عليها، وتم فيهن تهديدي بأختي التي قيل لي إنها في الطابق العلوي تنتظر الالتحاق بي إن أنا أنكرت، وجربت فيهن حتى «الفلقة»، ولحسن حظي كانت تلك الجلسة تالية على شعوري بأني «لا شيء»، وإلا لقتلتني الإهانة.

أما أبشع ما حدث فيهن فهو تعرفي على معنى أن يتم تعذيبك باستخدام الكهرباء.

حمل «لؤي» بين يديه يومها عصا كهربائية، استخدمها في ثلاثة أماكن، على قدمي وصدري وجبيني. ولن أفلح، وإن اجتهدت، في وصف ما تشعر به إذا ضربتك الكهرباء في كل من تلك الأماكن، فلكل منها ألم لا يشبه غيره، لكن أبشعها بالنسبة إليّ كان أذى الكهرباء على صدري، وإن كنت ما زلت أحمل حتى اليوم نقطة زرقاء تتوسط جبيني شاهدة على أثر الكهرباء فيه.

في آخر تحقيق، ربما بعد ٢٥ يوماً من الاعتقال، أعطاني أوراقاً لأقوم بوضع بصمتي عليها إقراراً بما فيها.

أخبرت أحدهم بعدها بأعوام عن بعض ما حصل معي، وحين أخبرته عن الأوراق التي بصمتها سألني عما فيها.. ضحكت كثيراً.. كيف خطر له أن أي أحد يجرؤ على أن يقرأ ما فيها؟!

وحتى اليوم لا أعلم حقاً لمَ يقوم النظام بهذا الأمر، لماذا يقوم أحد بالتحقيق إن كان كل ما يريده سيكتبه بنفسه، وإن كان يمكن له أن يعذبك حتى تعترف بما يشاء فيقوم بكتابته.. لماذا العناء؟!

لم أفهم ذلك يوماً.

بعد عودتي إلى الزنزانة ذلك اليوم رأت إحداهن لون الحبر الأزرق على إبهامي، فتبسمت وأخبرتني أنهم سيخلون سبيلي في دير الزور، وأنها قصة وقت فقط، شهر أو أكثر بقليل، فأولئك اللواتي سيتم نقلهن إلى دمشق لمتابعة «التحقيق» يبصمن باللون الأحمر.

لم أفهم هذا أيضاً، لماذا يختارون طريقة يمكن للمعتقل أن يعرف بها مصيره؟ أعني لمَ لا يقومون باختيار لون واحد ويكتبون على الملف من سيتم إخلاء سبيله ممن سيحتفظون به أو ينقلونه؟!

ربما اختاروا التسهيل على أنفسهم وعدم المبالاة بما يعتقده المعتقل، فهم يعرفون أن المعتقل لا يطمئن حقاً لمصيره أياً كان إلا عندما يعيشه واقعاً؛ فعلى الرغم من تأكيدات زميلتي تلك التي كانت أقدم الموجودات، إلا أني لم

أطمئن يوماً لفكرة أني سأخرج، بل بقيت أعيش أيامي أتساءل عن مصيري، وإن كنت علمت أن أيام التحقيق قد انتهت، فقد بصمت على أقوالي وانتهى الأمر.

وكان علي منذ ذلك اليوم أن أعيش أيامي أحارب البرد والمرض.

كنت أرتدي عندما دخلت إلى المعتقل كنزتين وبنطالين ومعطفاً، لكني تخليت عن كنزة وبنطال منها لمعتقلات أتين قبلي دون كثير ثياب تدفئهن، وذلك عندما غادرننا ليكملن رحلة العذاب في العاصمة.

حتى معطفي أعطيته لفتاة بعمر ابنتي غادرتنا سريعاً، فلم أكن ألبسه على أية حال خشية الآفات، واحتفظت بكنزتي البيضاء التي أعانتني على متابعة نظافتي وملاحقة القمل فيها، مع بنطال للستر، كما احتفظت بحجابي الذي لم يطلب مني أبداً خلعه، وتلك كانت عادة في هذا الفرع على خلاف فروع أخرى في مناطق أخرى.

مرت الأيام ثقيلة لكنها لم تكن مملة أبداً، فكل شيء في المعتقل أمر يستحق النقاش ويستلزم الوقت والجهد، ويتم تعريف طيف آخر هناك للمشاعر، فالفرح بات النجاح بانتزاع صحن «مربى» إضافي، بخطة محكمة يتم التحضير لها مطولاً، تبدأ من انتظار وردية يكون فيها السجانون لا يزالون يحتفظون ببقايا قلب يمكن استعطافه، واستثمار ظرف موجود كامرأة مسنة ـ أنا ـ تعاني مرض السكر، وتمثيلية بسيطة أدعي فيها اقترابي من الإغماء، لتتطوع إحدى المعتقلات وتنادي للسجان شارحة حالة «الخالة» المتأزمة، فيسعفنا بصحن مربى نحس معه أننا في عصرية نسائية نشرب القهوة ونتنافس بأطباق الحلوى التي أعددناها مسبقاً.

ومع توافد معتقلات جديدات ورحيل قديمات، كانت هناك دائماً قصص تروى، وحزن يواسَى، ودموع تكفكف. كانت هناك منظومة حياة أخرى، منظومة موازية بطيئة ثقيلة لا إنجاز فيها لمن يعيشونها إلا النجاة يوماً آخر كل يوم.

وربما لو خرجت على تلك الحال لكانت لي قصص سأرويها عن نجاتي بإنسانيتي، عن مئات التفاصيل الصغيرة هناك، عن الفرح والحزن والرجاء.. بل ربما كنت سأتمكن من أن أخرج أقوى مما دخلت، فـ «ما لا يقتلك يجعلك أقوى».. أكاد أجزم أن من يؤمنون بذاك القول لا يعلمون أن الموت أنواع، وأن أكثره تغييباً هو ذاك الذي يبقيك حياً «عضوياً» لكنه يسلبك كل ما يجعلك أنت، كميت سريرياً تشير الأجهزة إلى عمل وظائفه الحيوية، لكنه ميت.

بعد شهر ونصف تقريباً استُدعيت مساءً، وكان هذا مستغرباً، فمنذ أن بصمت على أقوالي التي لم أقرأها لم أخرج للتحقيق، وحتى قبل ذلك لم أخرج مساءً.

للحظة خُيّل إليّ أن إحدى مساعي عائلتي قد نجحت، وأنهم هنا في مكتب أحدهم ينتظرونني للاطمئنان علي وطمأنتي أني سأخرج قريباً، بل لعلي أخرج من ساعتي.. من يدري.

كان قلبي يخفق بسرعة وأنا أفكر أني أخيراً سأخرج، وكأن الأمل عاد يتدفق في كل شريان في جسدي بعد أن حبسته سدود اليأس أسابيع طوالاً، عادت إلي في لحظة حياتي التي تركتها هناك، وبدأت أستعيد خطتي لمغادرة البلاد إلى غير رجعة.

نعم سأغادرها وسآخذ ابني وابنتي رغماً عن أبيهما، ولا أحتاج انتظار جواز سفر، سأدخل كما دخل مئات الآلاف بطرق التهريب، وهناك سأبدأ ترتيب حياتي مرة أخرى.

لا أصدق.. كيف أخذ الأمل بعقلي، وغيّب عني أن لا أحد يمكن أن ينتصر هناك؟!

دخلت إلى غرفة التحقيق لأجد محققي يجلس قرب «أبو ماهر»، ولا أحد آخر هناك، أومأ أبو ماهر برأسه لمحققي فخرج، ثم طلب مني أن أجلس.

تلك كانت المرة الأولى التي يسمح لي بالجلوس فيها خلال تحقيق، وهذا كان نذير شؤم يكفي.

جلست متوجّسة مما يحدث، ولم أحتج للانتظار كثيراً لأعرف أي نوع من «التحقيق» كان هذا. قام أبو ماهر من خلف طاولته وجلس على كرسي قبالتي، قريباً بحيث استطعت تمييز رائحة الكحول في أنفاسه.

اقترب مني واضعاً يده فوق يدي.. واهتز عالمي بما فيه.

بقيتُ ساكنةً ذاهلةً يرتجف كل شيء فيّ إلا جسدي، بينما قام هو وأغلق الباب علينا.

ما أغبى من يقول أن لا امرأة يمكن لها أن تغتصب إلا بإرادتها.. ما أغباه وأجهله.

أنت تشاء.. أو لا تشاء.. لكنك تشاء على كل حال إذا شاء المحقق.

كأن لك إرادة ماضية تقبل وترفض بها، لكن إرادة أخرى ماضية فوق إرادتك تجيرها حيث تشاء دون أن تسلبك إرادتك، فتسلبك قدرتك على المقاومة أو الاعتراض، وتفعل ما تشاء تلك الإرادة حتى حين ترفضها.

«عيب».. تقفز تلك الكلمة بكل مدلولاتها إلى خيالك، فتفكر وأنت لا تفكر، وتخشى الصراخ فيفتضح أمر لا ذنب لك فيه، وتجري بقصة أُرغمتَ عليها الألسن، فتصمت.

تدفع بيديك قليلاً لكنهما تخذلانك، تحاول التحرك.. التوحش.. أي شيء.. لكنك تفشل.

أخذني السافل كما شاء، بكل طريقة شاء، ثم أرسلني بعد ارتعاشة لا أنسى بشاعتها.

يخطر لي أحياناً التساؤل ما كان يريد بمسنة مثلي، ولديه تلك الزنزانة المليئة بفتيات أجمل وأصغر؟!

أكره نفسي حين أفكر أنه اختارني لأنه أحس أني لن أقاوم.. لكني أعود فأذكر أنه استدعى أخريات كما استدعاني مساءً وأن بعضهن بقين حتى ساعات الفجر، وعدن جميعاً كما عدت أكابر ما أنا فيه، وأحاول إخفاء ما تفضحه

رجفاتي.. فأقول تحقيق وشتائم، وأكتم المبالغة بالبكاء على غير عادتي بعد جلسات تحقيق الضرب والإهانة، فلا تعلم الأخريات ما حدث، ليس لأني كنت أخشى أنهن سيحاسبنني، بل كنت أخشى شفقتهن، ثم أخشى بعد ذلك أن أصبح قصة يتداولنها حتى تخرج إلى العالم الآخر، وأصبح «مغتصبة».. فمشفِق علي وأنا التي تفاخر بصلابتها، ومتهِم لي.. ولا أعلم أيهما أثقل على النفس.

ارتجفت ليلتها كثيراً، ووضعت المعتقلات كل ما امتلكنا من معاطف عليّ ليدفئنني، وأعلم أنهن عرفن ما حدث، لكني لم أقل.. وهن لم يسألن.. لأنهن وحدهن من يمكن أن يفهمن، فنحن سواء.

يقولون إن الزمن ينسي، وإن الزمن يشفي.. ويكذبون.. لا شيء تغير منذ سبع سنوات.

لم أعرف الدفء منذ ذاك اليوم، ولم يتوقف قلبي عن الارتجاف، وما زلت أضع رأسي كل ليلة لأنام فأعيد ما حدث، أرتجف، أبكي، أقتله بطريقة جديدة كل ليلة، ثم أقتل نفسي كارهة لها.. ثم أنام كمداً.

سبع سنوات وأنا أنام كل يوم هكذا.

يكذبون جميعاً.. لا يمكن أن تنسى.. ولا يمكن أن تغفر لهم.. ولا لنفسك.

أحب أن أقنع نفسي أنه فعل ما فعل انتقاماً لأني لم أعطِه اعترافاً بما أراد، لكني أعلم أن هذا ليس صحيحاً، وأعلم أنه لم يفعله غريزة مجردة أيضاً، وإلا لما اختار كهلة مثلي، بكل تلك الأمراض التي تنهشك بعد شهر ونصف في زنزانة قذرة.

هو فعل ما أراد لأنه أراد، ولأن لا أحد يمكن أن يردعه.

والحقيقة أن لا معنى للدافع، فالنتيجة هي المهمة؛ إنسان قُتل بلا رصاص ولا دماء.. إنسان قُتل عاراً اكتسبه بلا ذنب.

يتم تربيتكِ طوال عمرك على أنّ لكِ شرفاً ستزهقينه إذا فعلت حراماً كهذا لأنك امرأة، وليس هذا مرتبطاً بالدين بقدر ما هو مرتبط بالمجتمع نفسه، فالدين لا يفرق الذكر عن الأنثى في هذا، ويصر أن لا تثريب عليك فيما أجبرت عليه، لكن المجتمع لا يعرف إلا اتهامك، فتنشئين وأنت تحمين نفسك من أن تصبحي بلا شرف، لأن هذا ليس شرفك وحدك فقط، بل شرف عائلتك أيضاً، ثم يأتي من يسلبك ذلك كله بلحظة سكر وقدرة.

وأين القادر فوق هؤلاء.

دخلت المعتقل مؤمنة حقاً.. وخرجت أتساءل ما الحكمة من أمر كهذا يا ربي؟

أهو الابتلاء؟ أم عقوبة لا أعلم فيما اكتسبتها؟

أم أني متروكة هنا!

واليوم بعد كل هذا الوقت بت مؤمنة أكثر من أي وقت مضى.. لا بد من وجوده قادراً وعالماً.. لا بد من آخرة وحساب، وإلا ما معنى الحياة كلها؟

وهب أن كل شيء تغير بعد أعوام، وانتصرت الثورة، وسيق أبو ماهر وأشباهه إلى القضاء، وحكم القاضي بأن أختار له أنا عقوبته، أي عقوبة ستشفي غليلي؟

الموت راحة له لم أنلها، وأي عذاب لن يوازي ما أحس به.. ولا أي شيء.. لا يستقيم العدل إلا بميزان مفارق، ميزان من خارج هذه الدنيا يذيقه ما ذقت بقدرة لا يمكن أن نمتلكها.

لكن حتى الإيمان المطلق لا يخفف شيئاً مما أنا فيه.

خرجت من المعتقل بعدها بعشرين يوماً تقريباً، بعد ٦٥ يوماً قضيتها معتقلة، ثم أمضيت وقتاً قصيراً في دير الزور محاولة إقناع زوجي بالرحيل دون جدوى، فخرجت بابني وابنتي لاجئة.

أخبرت عائلتي بشكل مقتضب عن اعتقالي، وطلبت ألا يلحوا بالسؤال فاستجابوا، حتى ابنتي توقفت عن سؤالي بعد عدة مرات نهيتها فيها، وأظن أنها تخمن ما حدث، لكنها تعلم طبعي فتسكت، وتكتم ألم عجزها عن المواساة.

وأنا اليوم أعيش في مكان ما بين الحياة والموت، أنتظر يوماً أنام فيه فلا أستيقظ إلا بين يدي الحق، وقد سيق أبو ماهر ومن معه من المحققين ومَن خلفَهم من رتب وجيوش ورئيس إلى محكمة الله، فيقضي فيهم ما يستحقون.

وحتى ذلك الحين سأبقى كما كنت هناك؛ لا شيء.. إنسانٌ مع وقف التنفيذ.

القصة الثانية

يا حرية

ولدت بعيداً جداً عن المكان الوحيد الذي سأعرفه طوال عمري وطناً تنتمي إليه روحي، وكان علي أن أعرف هذا الوطن من قصص والدي وأشباهنا ممن حرموا العيش فيه، فأنا ابنة إحدى آلاف العوائل التي غادرت سوريا بعد أحداث الثمانينيات عندما صفّى النظام وجود جماعة الإخوان المسلمين التي ينتمي إليها والدي، وإن لم يكن كل المغادرين منتمين فعلاً إلى الجماعة، لكن يكفي أن تربطك الصداقة أو القرابة مع منسوبيها، ويرد ذلك في تقرير أمني، لتصبح مطلوباً مثلهم، فإن أسعفك الوقت وغادرت البلاد نجوت بنفسك، وإن تباطأت كنت قصة أخرى نتداولها نحن الهاربين في مجالسنا عن إجرام النظام وبطشه، أو عن ثبات المعتقلين وتحديهم السجانين في تلك المسالخ ذائعة الصيت.

وربما كان تعلّقي الكبير منذ طفولتي بتلك القصة التي لا يمل والدي سردها عن البلاد والنظام والمواجهة معه هو ما جعلني أحظى إخوتي (ذكوراً وإناثاً) لديه، ولعله رأى فيَّ ما لم يفصح عنه، فدفعني إلى الدراسة في جامعة الإيمان في اليمن، التي دخلتها بعمر الخامسة عشرة لتعلّم العلوم الشرعية، ولاكتساب خبرة نادرة، فللجامعة ميزة خاصة هي التجمعات الحزبية الخاصة بالإخوان من الدول المختلفة، وهو ما عنى أنك لا تتخرج منها بعلم شرعي وحسب، بل وبتجربة سياسية وتنظيمية في مرحلة مبكرة يفتقدها جلّ السوريين في الوطن المحجور حتى على الأنفاس فيه.

ولست أصف هنا ما نقل إلي، أو أعيد قصص والدي عن بلادنا، فقد تزوجت مطلع الألفية من قريب يقطن مدينتنا حلب، وسمح لي شعور النظام بالاستقرار وكفه منذ زمن عن ملاحقة أقارب «الإخوان» أن أتردد إلى البلاد حيث منزلي وزوجي ريثما أنهي دراستي الجامعية في اليمن، وأستقر كلياً في المدينة التي نشأت أرسم لها صورة ساحرة في خيالي، كانت قاصرة عن الحقيقة، وبعيدة عن جمال حلب وإن لفها الشقاء.

أذكر المرة الأولى التي زرت فيها المشارقة، وهو الحي الذي شهد المجزرة المروعة التي ضجت بها المدينة في أحداث الثمانينيات الشهيرة، كان مبنى «مكتبة الأسد» الذي ضم تحته رفات من أعدمهم النظام لا يزال قيد البناء منذ عقود، حيث اكتفى النظام ببناء أساساته ليحول دون إحياء المقبرة شاهدة على الجريمة، وتناسى إتمامه حتى لا يثير حفيظة المجتمع بافتتاح مكتبة فوق جثامين أبنائه.

كنت أتجول في أحياء المدينة كسائحة طالعت كتاباً عن الرحلات، ثم جاءت لتعاين ما قرأته واقعاً؛ في ذلك المسجد كان الشيخ فلان يقيم حلقته، وعلى ذاك العمود رفع الوطنيون لافتاتهم رفضاً للاستعمار، وتحت تلك القنطرة جلس أصحاب المحلات بعد يوم عمل مضنٍ يتداولون الأخبار، وفي تلك الساحة تمركزت دبابات الانقلاب، وفي هذا الفندق نزل أدباء وشعراء ـ يصعب حصرهم ـ زاروا المدينة من الشرق والغرب، وهنا.. في هذا الشارع صف الجنود كل من خطّ شاربه من أبناء الحي على جدار، وأعدموهم أمام أعين أمهاتهم وأخواتهم وأزواجهم، وأورثوا المدينة حقداً لا يزول، جمراً من القصص عن تلك الأيام تحت وجهها المسالم الذي يضج بالحياة.

كانت المدينة قد اختارت أن تعيش في عالم موازٍ لعالم الحكم في البلاد، فابتعد أبناؤها عن مؤسسات «الدولة» التي لم يكونوا يجدون فرقاً بينها وبين النظام، ولا فرق حقيقة، وندر أن تجد بينهم ضباط شرطة أو أمن أو جيش، فيما يشبه اتفاقاً ضمنياً بينهم وبين النظام، فلا هم يقتربون من مفاصل الحكم بما يجعله يرتاب في نواياهم، ولا هو يقترب من حياتهم في هذه المدينة، وتطورت

بينهم صيغة تعايش غير مكتوبة، يفرض بها سلطته عبر أجهزته الأمنية ومجموعات عشائرية سمح لها بالاستفادة من تجارة الممنوعات وأخذ الإتاوات في العشوائيات لقاء تأمينها بعداً اجتماعياً له داخل المدينة، فيما تُرِكَت المشيخة التقليدية والفعاليات الاقتصادية لمزاولة التعليم والتجارة إلى الحد الذي لا تقترب فيه من النظام والحكم، وظهرت طبقة مشيخية حصرت دعوتها في المساجد والمدارس الدينية، وقزّمت دور الدين ليقتصر على الأخلاق والمعاملات دون أي تدخل في الشأن العام خارج المنظومة الاجتماعية، وطبقة اقتصادية ارتبطت مصالحها بالنظام مستفيدة من التسهيلات والمعاملة الخاصة، ومانحة بدورها حصتها من الإتاوة على شكل شراكات مع أصحاب الأوزان الثقيلة في الدائرة الضيقة للحكم، بينما التفت أبناء المدينة إلى مصالحهم وحياتهم الساكنة، كأن شكل الحياة هو هذا، أن تولد وتعمل وتتزوج وتؤسس أسرة ثم تموت دون أن يكون لك سعي في تغيير عالمك، لأن كل شيء موجود هكذا، بشكله الطبيعي غير العادل والمقبول: السلطة للظالمين، وطلب الرزق للمجتهدين، والآخرة للحساب.

كنت أطيل النظر في الوجوه هناك، ألتمس شرار الثأر في العيون، وارتجاف الغضب في الشفاه، وأمني النفس أن دوام الحال من المحال، وأن هؤلاء الوادعين سيكون لهم يوم يقيمون فيه ميزان الحياة كما يجب أن تكون، فيعيدون الحقوق ويحاسبون الظالمين.

لذلك عندما انطلقت ثورات الربيع العربي من تونس أواخر العام ٢٠١٠ لم يكن عندي شك أنها ستصل سريعاً إلى سوريا، وأن لها في هذه المدينة محطة لن ينساها التاريخ. ولم أكتم ذلك في نفسي، بل جعلت أبشر به في كل مجلس، غير مبالية بتحذير زوجي من مصير يشابه مصير الراحلين: والدي ورفاقه.

ثم جاء شهر آذار/مارس عام ٢٠١١، وخرجت درعا تؤكد يقيني، وتتالت المظاهرات في مدن البلاد، وخرجت حماة صاحبة الثأر الثقيل مع النظام، فهي التي شهدت أبشع مجازره على الإطلاق أيام الثمانينيات، وسكتت حلب.

كان الغيظ يقتلني وأنا أشاهد مظاهرات حمص وحماة وإدلب ودير الزور وغيرها.. حاشدة تهتف باسم حلب تقريعاً لها على الخذلان، مدن البلاد تثور عن بكرة أبيها، ومدينتي التي انتظرها الجميع تكتفي بعشرات الشباب يخرجون هنا وهناك ليوثقوا اسمها على استحياء في قائمة نقاط التظاهر.

ما الذي حدث يا حلب؟! أين ثقلك البشري؟! أين ثأرك الذي لم ينسَه أحد من أبنائك؟!

ولم يساعد شعوري ذاك بالغيظ ما كنت أسمعه على مجموعات التنسيقيات المشتركة بين المحافظات على برنامج «سكايب» أيضاً، ما الذي تفعلونه في حلب؟ لماذا لم تبادروا؟

احتجت زمناً حتى أفهم طبيعة المعادلة التي فرضها النظام بذكاء في المدينة، والتي حالت دون انضمام عاصمة البلاد الاقتصادية مبكراً إلى الاحتجاجات. كان النظام قد اعتمد عدة استراتيجيات في المدينة أثبتت نجاحاً كبيراً في تثبيط أبنائها، فقد غض النظر عن المخالفات البلدية في الأحياء الشعبية، وهو ما سمح لأهلها الذين كانوا يعانون لبناء غرفة على سطح بناء وصل حدّه من عدد الطوابق التي تقررها اللوائح، ببناء طوابق إضافية بدل غرفة وغرفتين. وفي الوقت الذي كانت فيه الأحياء الشعبية في المدن هي عصب الاحتجاجات الرئيسي، كانت الأحياء الشعبية في مدينتي ترتفع طابقاً متواضع الإنشاء كل شهر، هي نفسها الطوابق التي ستصبح بعد حين مقابر قاطنيها عندما دكت البراميل المدينة كما لم تفعل في مكان آخر. كما وسع النظام نفوذ المجموعات العشائرية المرتبطة به، والتي تحولت من تجارة الممنوعات سراً وأخذ الإتاوات في الأطراف، إلى استثمار كل رصيف في قلب المدينة المحرم عليهم سابقاً، وانتشرت البسطات التي تبيع كل شيء في كل زاوية وشارع، دون أن يضطر أصحابها لدفع الرشي الثقيلة للأجهزة الأمنية لقاء مكانهم على الرصيف، فقد استحقوا أماكنهم بخدماتهم التي كانت تقدمها العصي و«الشنتيانات» تحت «بسطاتهم» حين تغامر مجموعة بالتكبير إعلاناً عن مظاهرة قريبة. أما المشيخة التقليدية وكبار التجار فقد استثمرهم النظام كمؤسسة وسيطة بينه وبين المجتمع،

سامحاً لهم بإخراج معتقل هنا وهناك شارك في مظاهرة، بعد أن يتوسط ذووه لدى الوجهاء الذين يتوسطون بدورهم لدى أجهزة النظام الأمنية، كما نجحت جهود النظام خلال العقود السابقة في إنتاج مشيخة تلتزم دورها التربوي الهادئ، وتبتعد هي ومريدوها عن أي دور اجتماعي أو سياسي خارج الحدود المتفق عليها. وساهم أيضاً في إبعاد المدينة عن الاحتجاجات التعامل اللين لعناصر الأمن مع أبنائها مقارنة بمناطق أخرى كان الرصاص فيها هو ردها الوحيد على أية مظاهرة.

لكن وعلى الرغم من كل تلك الإجراءات المعقدة كانت حلب تفك أغلالها تدريجياً، وبات واضحاً للنظام ولنا أنه لا يقوم بأكثر من تأخير ما هو آتٍ.

أما أنا فقد تمكنت مبكراً من إنشاء مجموعة من الشباب والشابات نشطوا في كل شيء يساهم في الثورة، وساعدني على ذلك العلاقات التي اكتسبتها من عملي معلمة في معهد خاص لدورات التقوية افتتحتْه قريبة لي، فجلّ طلابي كانوا مع انطلاق الثورة طلبة جامعيين، وهؤلاء كانوا جيل الشباب المتفلّت من منظومة النظام التي حاول نسجها في المدينة، ومع هؤلاء كنا أشبه بتنسيقية لها علاقات واتصالات وفرتها لي شبكة معارف والدي في المحافظات الأخرى، وكان لنا مشاركة في التصويت على أسماء الجُمَع التي كانت تعلنها صفحة الثورة السورية للتظاهر كل أسبوع، ولا يمكن ولو اجتهدت أن أصف كم السعادة التي كانت تغمرني عندما أرى حشود السوريين تتظاهر بالاسم الذي شاركنا باختياره. تلك نفحة مما كنا نطلب، أن يصوت الناس على ما يريدون، ويتم اختيار ما اختاره أكثرهم.

مع أواخر العام ٢٠١١ كانت المظاهرات قد بدأت تخرج بشكل دوري في عدد من أحياء المدينة، وتمكنت بعضها من أن تتحول إلى نقاط تظاهر دائمة، اكتفيت من المشاركة فيها بكتابة اللافتات التي يحملها المتظاهرون، خاصة أن معظم المظاهرات في البدايات كانت «طيارة» تبدأ وتنتهي قبل وصول عناصر الأمن، فتكون أقرب للجري منها لمظاهرة، لكني لم أستطع أن أكبح رغبتي في الهتاف ملء صوتي طويلاً، وشاركت للمرة الأولى في مظاهرة في باب الحديد

عام ٢٠١٢ ورددت الهتاف الذي لم يكن يفارق نقاشاتي الطويلة مع محيطي تحريضاً لهم: «ليش خايفين.. الله معنا».. «ليش خايفين.. الله معنا».

ـ «ليش خايفين.. ليش خايف».

ـ «لك عبتسألي ليش خايف؟!.. ما بتعرفي إش عملوا بالناس بالتمانينات؟».

ـ «الناس طلعت.. وما عاد يرجعوا ليسقط».

ـ «مين يسقط.. محسبة كم مظاهرة رح تسقطه.. لك ما رح يسقط إلا اللي بينمسك.. بيروح من كيسه».

ـ «بده يسقط».

ـ «اسمعي.. نحن ما بدنا مشاكل.. وهي آخر مرة تفتحي هالسيرة».

عبثاً كنت أحاول إقناع زوجي وأهله أن لا نفع من السكوت، وأن سقوط هذا النظام مسألة وقت فقط، كنت مؤمنة يقيناً أنها مسألة وقت، فجدار الخوف قد هدم، وامتلأت ساحات البلاد بالسوريين يلعنون النظام وينشدون الحرية.

لكن ربما كان زوجي محقاً بأن المظاهرات لن تنهي هذا النظام، فالرصاص لا يمكن مواجهته بالهتاف، ومن يحرك الدبابات لينهي مظاهرة لن يرتدع إلا ببندقية تواجهه؛ وهذا بالفعل ما أدركه السوريون، فما إن بدأ العام ٢٠١٢ حتى تعاظمت حركة الانشقاق في صفوف جيش النظام الذي كان يجتاح المحافظات لإخماد أصوات الحرية فيها، كما تزايدت أعداد المتظاهرين الذين انتقلوا لحمل السلاح في مواجهته. وطوال النصف الأول من العام ٢٠١٢ كان الريف الحلبي الشمالي قد شهد مواجهات شرسة بين مجموعات ـكان بينها عدد من أبناء المدينةـ وبين قوات النظام انتهت بطرد الأخير وإعلان الريف الشمالي محرراً قبيل شهر رمضان، وكان أول أيام رمضان هو اليوم الذي دخلت فيه جموع الثوار إلى المدينة، واليوم الذي خرجنا فيه نحمل ما استطعنا من متاع إلى بستان زيتون في ريف حلب الشمالي، نصبنا فيه خيمة ـبجوار عشرات الخيم الأخرىـ ننتظر استقرار حينا الذي تحول إلى خط جبهة لنعود إلى بيوتنا.

يقولون أن لا شيء أقسى من حياة الخيام في الشتاء، البرد والمطر والرياح التي تعصف بعالمك الذي تصاغر حتى بات خيمة فوق رأسك، ولا يعلمون ما تفعله شمس الصيف الحارقة في خيمة لا يجد الهواء إليها سبيلاً، لا يعلمون كيف تتمنى الخروج من جلدك لتتخلص من الشعور بالحرارة وهي تطبخ كل شيء فيك، لا يعلمون كيف تحس بالدماء تغلي في عروقك وتأكلك.

وقد كان من سوء حظنا أن نزوحنا صادف شهر تموز/يوليو الحارق، ومن حسن حظي أن مقامي وأبنائي في تلك الخيمة لم يطل أكثر من ثلاثة أشهر، فقد وصل والدي إلى إسطنبول التركية قادماً من الخليج، ولم أجد مشكلة كبيرة في عبور الحدود التركية التي كانت مفتوحة آنذاك أمام السوريين للقائه، حيث قضيت وأولادي فترة من الزمن معه أراقب نشاطه ضمن صفوف المعارضة وأشاهد حلم خلاص البلاد يقترب من نهايته المحتومة.

عدت بعدها إلى زوجي وانتقلنا للعيش في منزل مستأجر في القسم الخاضع لسيطرة النظام من المدينة، حيث قصرت قدرة الثوار عن تحرير كامل المدينة، وامتد شريط طويل من الجبهات بشكل حرف U حول المنطقة الأكثر ثراء فيها والتي بقيت خاضعة لسيطرة النظام، بينما أصبح أكثر من ثلثي المدينة الذي ضم جل أحيائها الشعبية منطقة محررة تحيط بها. وعلى الرغم من إقامتي مع زوجي تحت سيطرة النظام، إلا أن روحي كانت تعيش في القسم الآخر، مع الثوار وبين صيحات الحرية.

ولم يمضِ الكثير حتى بدأت التنقل بين قسمي المدينة، فأقضي في المنطقة المحررة التي كان لأختي منزل فيها شهراً وشهرين، ثم أعود إلى المناطق التي يحكمها الخوف وتديرها التقارير الأمنية والشتائم أسبوعاً وأسبوعين، مصطحبة معي أبنائي في كل ذلك طلاباً في رحلات ميدانية يتعلمون فيها النضال لأجل الحرية.

كان يحلو لي أن أتخيلهم وقد امتد بهم العمر وبات لكل منهم منزل يحدثون فيه أبناءهم عن جدتهم التي كانت تأخذهم معها ليشهدوا صناعة

التاريخ، ويعيشوا واقعَ تحرر البلاد من حكم نظام امتد أربعة عقود سامها فيهن القهر والعذاب.

والحقيقة أني اخترت العودة لأني أريد أن أكون جزءاً من صناعة هذا التاريخ، ولأني عشت حياتي كلها أحلم بالعيش في وطني حرة كما يجب أن يعيش البشر في أوطانهم، كما حلم والدي وكل من نشد الحرية في بلادنا منذ انقلاب حافظ الأسد في سبعينيات القرن الماضي.

ولأن هذا الحلم عظيم، كان لابد أن يكون المغرم على قدره عظيماً، وأن يجد من يبذل فيه عمره ليتحقق.

تخطر لي اليوم سخرية هذه المفارقة، أن تمتلك حلماً بالعيش حراً، ثم تكون مستعداً لتبذل عيشك نفسه في سبيل تحقيقه دون أن تناله، فيصبح شرط الحصول على حلمك هو حلمك نفسه، وأتساءل: كيف يكون هذا منطقياً؟ ولماذا يجد أمر متناقض كهذا كل هؤلاء المستعدين للخوض فيه؟!

لكن ربما تكون النسبة إلى المجموع هي ما تحتسب، أعني أن المجموعة تطلب الشيء، ثم يبذل بعضهم ذلك ليحصل عليه الآخرون، أو لعل حسبتها بالنسبة إلى الأفراد أمر مفارق لا يتعلق بميزان هذه الحياة مجرداً، فالحلم ليس محصوراً بحدودها، بل يجاوزها إلى قيم سامية لا يكون الموت انتهاءً لها، أو يجاوزها إلى آخرة فيها حساب وجزاء على قدر البذل في هذه الدنيا، فيكون الفرد إنما يقدم لآخرته من دنياه.

وأياً تكن حسبة الأمر، فإن له لذة في النفوس هي الرحلة نفسها، هي السعي إلى الشيء بلَغتَه أم لم تبلغه، وكل تلك الأحلام والآمال التي تبقيك على قيد الرجاء وأنت تحاول، هذا وحده يستحق كل شيء.

لذلك لم أجد غضاضة في أن آخذ على عاتقي مهمة معقدة وصعبة وخطيرة بآن، وهي ترتيب انشقاق الضباط والجنود عن جيش النظام، وإخراجهم إلى مأمنهم بحيث يكون لهم القرار، إما الانخراط في صفوف الثوار، أو اللجوء طلباً للسلامة، المهم أن تخرج بندقية عن صف النظام، والأهم أن يتم إنقاذ

شخص من أن يهلك نفسه بالبقاء في صفوف الظالمين، فيلعنه التاريخ، بل وتلعنه نفسه إن طال به الزمن ونظر إلى ما قدمت يداه.

كنت أتنقل بين قسمي المدينة لأرتب عمليات الانشقاق، وكلما ضغط عليّ زوجي وحاول منعي من التحرك مهدداً إياي بالطلاق، افتعلت مشكلة معه، لأخرج مغاضبة (حردانة) إلى بيت أختي في القسم الآخر من المدينة، فيتم إنجاز الأمر على كل حال، ثم أعود بعد فترة من الزمن إلى زوجي وقد «رضيت».. وكنت مقتنعة أن هذا كله حال مؤقتة ستنقضي «قريباً» بسقوط النظام.

كانت المدينة آنذاك تضم معبرين بين قسميها، معبر الشيخ رز الذي يفضي بك إلى حي الهلك في القسم الشمالي، ومعبر كراج الحجز الذي يفضي بك إلى حي بستان القصر في القسم الجنوبي، ولأن بيت أختي يقع في حي الشيخ مقصود فقد كنت أتنقل عبر معبر الشيخ رز القريب، لأدخل الحي ذي الحالة الخاصة في المدينة، فقد كان يضم أغلبية كردية جعلت السيطرة عليه غير واضحة تماماً، فمن جهة بقيت دوريات النظام تجوب شوارعه الجنوبية، ومن جهة أخرى كان الثوار يدخلون شوارعه الشمالية، وفي الحي انتشرت مجموعات تتبع حزب PYD الكردي الذي حافظ على علاقة ما مع الجانبين اجتناباً للمواجهة. لكن هذه الحال لم تدم طويلاً، فقد دخل الثوار الحي بعملية عسكرية كنت على علم مسبق بها، واخترت البقاء في الحي لأساهم في توثيق ما يحدث فيه، وأرسلتُ أولادي مع قريب إلى والدهم حتى أجنبهم خطراً قريب الوقوع. وما إن بدأت العملية حتى خرج الناس جموعاً تجمهرت قرب سكة الحديد التي يشرف عليها الحي، وهناك شاهدت أول مجزرة في حياتي.

كانت القذائف وصواريخ الطائرات تنزل على الأهالي على طول السكة، فتحيلهم مزقاً بلحظات، وتذهل بعضهم عن بعض، فيجري أحدهم فوق جثة جاره أو أخيه طلباً للنجاة، ثم وجدتني من هؤلاء الذين أذهلهم القصف عن كل شيء، فخرجت بعد قصف البناء الذي كنت فيه، وجريت فوق الجثث المترامية في الشوارع إلى سيارة أقلتني عبر طريق وعرة إلى ريف حلب الشمالي، حيث بقيت أياماً قبل أن أعود إلى بيتنا في منطقة النظام.

لم تزد تلك المجزرة في نفسي حقداً إضافياً على النظام الذي لم أكن أتوقع منه إجراماً أقل من هذا، لكنها جعلتني أحقد على كل مؤيد له؛ فكيف يرى إنسان الطائرات تقصف منازل أهله، وتمزق أطفالهم، ثم يحافظ على موقفه المخزي ذاك؟! أو يكتفي بموقف غير مبالٍ يريد السلامة من كل هذا؟! وجعلتني أيضاً أكثر إصراراً على ضرورة إسقاط هذا النظام قبل أن يحيل البلاد رماداً، ولم تنفع تهديدات زوجي ولا حتى توسلاته بأن أتوقّف عن نشاطي، ولا حتى طلبات والدي المتكررة بأن أغادر سوريا أو ألتزم بيتي، وعدت للانتقال بين قسمي المدينة عبر معبر كراج الحجز، الذي كانت تقع فيه كل يوم مجزرة من نوع مختلف، أشرف عليها قناصو النظام المتمركزون في مبنى القصر البلدي، وكان لهؤلاء من الإجرام ما جعلهم يقررون أحياناً أنماطاً للقنص يصطادون بها المدنيين الذين يتحركون عبر المعبر ضمن فئات يصنفونها بنيرانهم، فيوماً يختارون قنص الشباب في رؤوسهم، وآخر يركزون على من تقدمت أعمارهم، وفي يوم وصل التوحش بهم حده، فاختاروا النساء الحوامل أهدافاً لرصاصهم الذي جعلوا له بطونهن مستقراً، كأنهم يريدون أخذ نفسين برصاصة واحدة.

ومع تزايد خطر التحرك حاولت إقناع زوجي بالانتقال إلى المناطق المحررة للاستقرار فيها بشكل نهائي، لكن وكما لم أكن أطيق رؤية جنود النظام وحواجزهم، كان زوجي ينفر من رؤية مجموعات الثوار الذين حمّلهم كل ما وصلنا إليه، لأنهم ثاروا طلباً لحقهم! وهذا لم يكن أمراً خاصاً به، فقد ظهر طيف كامل من الناس يرددون قول «كنا عايشين» كأنه تسبيحة، وكأن العيش يكفي فيه السعي إلى ملء بطن وكسوة بدن وباب يغلق آخر الليل على عائلة تربي أولادك فيها على ما تربيت عليه.. ليعيدوا سيرتك نفسها مرة أخرى.

كان قد مضى عامٌ على دخول الثوار إلى المدينة عندما جاء شهر رمضان عام ٢٠١٣، وقضيت الشهر كله في المنطقة المحررة لدى أخوالي، واتخذت قراري بالاستقرار فيها نهائياً حتى إن عنى هذا الانفصال عن زوجي. وما إن جاء العيد حتى دخلت إلى مناطق النظام لأحاول مرة أخيرة إقناع زوجي بحلٍ يبقي لأولادنا عائلة تحتضنهم، فينتقل معي إلى القسم المحرر أو مكان لا نعيش فيه

تحت رحمة جنود النظام، كما كنت أريد التواصل مع مجموعتي التي عملت معها طوال الفترة السابقة، للاتفاق على ترتيب جديد للعمل، خاصة أن حالات الانشقاق كانت قد تناقصت، بعد انشقاق جلّ من يريد ترك صفوف النظام عنه.

طالت أيام النقاش مع زوجي، وبدأت أيأس من فكرة اقتناعه بالمغادرة، وأتساءل عن مصيرنا، حتى جاء يوم وصلتني فيه رسالة على «موبايلي» نصّها: «إذا تقدري تهربي اهربي.. البنات انمسكو». حاولت التواصل مع المرسل دون جدوى، ثم حاولت التواصل مع البنات دون جدوى أيضاً، وعرفت حينها أن الرسالة حقيقة.

مرّت عليّ أطول ليلة في حياتي، لم أذق فيها طعم النوم، حاولت جاهدة إقناع زوجي أن يخرج معي صباحاً فرفض، ثم عقدت العزم أن أخرج للمرة الأخيرة، ومع أول شمس للصباح اصطحبت ابنتي بعد أن أخبرته أني لن أعود، وأن لا حل لبقائنا معاً إلا أن يجلب الأولاد ويلحق بي إلى المنطقة المحررة، ثم نغادر معاً إلى حيث يشاء.

تحركت مشياً عبر طريق الحمدانية متجهة إلى بستان القصر، ومتجنبة ركوب سيارة أجرة تجعلني هدفاً لحواجز التفتيش على الطرقات، وقبيل وصولي إلى حاجز الحمدانية الذي اعتدت المرور قربه دون أن يسألني أحد عن وجهتي، توقفت أمامي سيارة تقل أربعة شباب يرتدون ثياباً سوداء أحاطوا بي.

- «اطلعي».

- «لوين بدي إطلع».

- «عالفرع..».

عرفت حينها أني كنت ملاحقة، وأن لا جدوى من توسلهم ألا يأخذوني، رجوتهم فقط أن يسمحوا لي باصطحاب ابنتي إلى منزل قريبة لي ليس ببعيد عن مكان وقوفنا، وقبلوا بعد عناء.

ألقيت عليها نظرة أخيرة وهي تصعد الدرج الذي تعرفه إلى المنزل، ثم غادرت معهم في السيارة، وتمكنت قبل أن ينتبهوا من انتزاع كرت ذاكرة من موبايلي يضم ملفاً بأسماء منشقين جدد كنا نخطط لإخراجهم، وابتلعته، وصُدمت بأن وجهتنا لم تكن أياً من الفروع الأمنية التي تحفظ أماكنها في المدينة قبل أن تحفظ أماكن جامعاتها وأسواقها، بل أكملوا إلى مبانٍ في الحمدانية كان الجيش قد أخرج قاطنيها منها محيلاً إياها ثكنة عسكرية.

خطرت لي كل تلك القصص التي نشأت وأنا أسمعها عن سجون تدمر وصيدنايا، عن التعذيب اليومي لا لأي غاية إلا التعذيب نفسه، عن الصبر الإعجازي الذي أعيى السجانين وأنامهم كل ليلة كمداً بأن لم ينالوا من معتقل عارٍ أمام بطشهم إلا من إرادته، وقررت أني لن أكون أقل منهم.

ـ «تعرفي إنتي ويـن؟.. الحرس الجمهوري.. تعرفي شو يعني حرس جمهوري؟.. يعني ما في نسوان هون».

استقبلني أحد العناصر في المبنى الذي دخلنا إليه بهذه العبارة، قبل أن يستدعيني العميد المسؤول عن الموقع، ليبدأ معي تحقيقاً سريعاً سألني فيه عن عائلتي، ثم سألني عما كنت أفعل في تركيا.

«ليش عبتسألني إذا عرفانين كلشي؟»، أجبته بكل برود استطعته.

أشار بيده إلى المنطقة المقابلة للحمدانية والتي كانت خط جبهة مع الثوار، وبدأ يشرح بعباراته القذرة كيف أنني وأمثالي أخطر عليهم من أولئك الذين يواجهونهم هناك، فنحن ـ بحسب تعبيره ـ نعيش «بينهم» دون أن يعرفوا أننا «إرهابيون».

على الرغم من الخوف الذي تملّكني، إلا أن كلماته تلك أرضت زاوية في نفسي كنت أقمع غرورها ليكون عملي خالصاً لله، وواساني أن موتي ـ القريب لا شك ـ لن يكون مجانياً، فقد كنت «أخطر» عليهم فعلاً من حمَلة السلاح، وكنت مسماراً آخر في نعش هذا النظام الذي لم يبقَ من عمره أكثر مما مضى.

أرسلني العميد إلى شقة في الطابق الثاني، وأدركت خلال تلك الفترة أنهم استباحوا المنازل كلها في تلك الأبنية، فمنزل بات سجناً، وآخر مهجعاً، وثالث غرفة تحقيق.. ومساكن للمجندين و«الاستشاريين» الأجانب لبنانيين وعراقيين لا تخطئ أذني لهجاتهم، كما لا تخطئ اللغة الفارسية التي سمعت أحدهم يتحدث بها هناك. وفي كل يوم كانت هناك دورية تقل مطلوبين إلى هذا المكان، فيتم «التحقيق» معهم، ثم إخراجهم وقد بانت عليهم آثار «التحقيق».

والتحقيق في بلادنا ليس الأسئلة والضغط النفسي الذي يتفنن كتاب الدراما بصياغات ذكية له؛ فمنظومة النظام الأمنية كلها تقوم على معادلة بسيطة هي تقرير لمخبر يرصّ فيه حقائق إلى جانب شائعات، ثم فرع أمني «يشحط» المطلوب و«يحقق» معه بسلخه حياً إن اقتضى الأمر ليتم ملء ملف كامل بأقواله، يتم بناء عليه استدعاء أشخاص آخرين يملؤون ملفات أخرى.

وعلى ما في هذه الطريقة من إجرام إلا أنها كانت أقل كلفة على النظام وكافية بالنسبة إليه، ففضلاً عن كونها تحقق غايتها باكتشاف «المتآمرين لنيل حريتهم» ولو بنسبة لا تجاوز ١ بالمئة من بين آلاف الأبرياء، فقد كانت تحقق غاية أخرى أهم بالنسبة إليه، وهي بث الرعب في النفوس كإجراء وقائي يمنع حتى التفكير في السعي إلى الحرية والخلاص.

بقيت أربعة أيام في ذلك المكان المخصص على ما يبدو «للتحقيق»، وكان عليّ أن أعرف معنى الإهانة في كل شيء، من التفتيش إلى دخول الحمام الذي منع عني إغلاق بابه، إلى الشتائم وألفاظ الكفر التي يندى لها جبين إبليس نفسه، كما كان علي لثلاث ساعات يومياً أن أجرب صنوف التعذيب بين يدي العميد حرقاً وضرباً وشبحاً وتحرشاً وكهرباء.. وأموراً أخرى لا أجرؤ على تذكرها فضلاً عن سردها، نقلت إثرها إلى مستشفى الجامعة شبه غائبة عن الوعي.

صحوت في المستشفى على حقنة أعطتني إياها ممرضة تجنبَت الحديث معي، لكنني عرفت أنني قد غادرت ذلك المكان وأني أعالج هنا مؤقتاً، ورجوت الممرضة أن تحقنني بأي شيء ينهي حياتي فلا أعود إلى ذلك المكان دون جدوى، فبعد ساعات تم نقلي مرة أخرى، وانهارت أعصابي فجعلت أصرخ

وأبكي وأحاول التفلت من القيد خشية العودة إلى ذلك المكان، ولم أهدأ حتى وعدني المرافق أنهم سيأخذونني إلى البيت، ليتبين لاحقاً أن ما عناه المرافق حقاً كان «بيت خالتي»، وهي الكلمة التي يستخدمها السوريون للإشارة إلى الفروع الأمنية، حيث وصلت إلى فرع الأمن السياسي في حلب.

تم تفتيشي وأخذ أماناتي وفرزي إلى أحد المهاجع الثلاثة المخصصة للنساء في الفرع، وهناك عرفت وجوه بعض الفتيات من مجموعتي، واللواتي كنت أعرف أغلبهن بأسماء حركية منعاً للاختراق، لكني تجنبت الحديث معهن خشية أن يكون كل هذا كميناً للإيقاع بنا، خاصة أن جلسات التحقيق كلها لم تأتِ على ذكرِ لنشاطنا، واقتصرت على علاقات القرابة بمعارضين، ودخولي إلى تركيا والمناطقَ المحررة.

جلست في زاوية أتفحص الوجوه عندما تم إدخال قصعة تضم طعاماً لم أميّز ما هو لغرابة منظره، وعلى الرغم من أني لم آكل شيئاً طوال أربعة أيام قضيتها لدى الحرس الجمهوري «متعدد الجنسيات»، إلا أن هجوم المعتقلات بأيديهن على القصعة كان كفيلاً بسد شهيتي.

كنت أنظر إليهن يلتهمن بنهم الطعام الغريب وأشعر بالدموع تنهمر في روحي بدل عينيّ اللتين حرمتاني راحة البكاء بعد أيام لم تجفا فيها، كنت أريد أن أبكيهن وأبكي نفسي التي ستؤول إلى ما أُلن إليه بعد فترة من الزمن، طالت أم قصرت.

«ليش ما عم تاكلي؟»، التفتت إلي إحدى المعتقلات التي كان واضحاً أنها مسؤولة المهجع بطريقة أو أخرى، وعرفت لاحقاً أنها شبيحة مسجونة على خلفية جرم ما، وهؤلاء كن يوضعن مسؤولات للمهاجع، فيكملن نشاطهن «التشبيحي» على معتقلات مثلهن، كما كن يفعلن خارج هذا المكان.

حاولت أن أعتذر منها بلطف على الرغم من اقترابي من الانهيار بعد كل شيء، لكنها عادت تستفزني بأسئلة عن سبب اعتقالي وما الذي فعل بي ما بدا على هيئتي، وعندما رفضت التجاوب معها، أفرغت أخيراً ما كانت تريد قوله منذ البداية: «أصلاً بشار الأسد دايس عراسكن..».

ومع كل ما كان يدور في نفسي حينها لم أجدني إلا وقد سببتها وسببت بشار الأسد، وكان هذا كافياً لنقلي إلى المنفردة بعد أقل من ثلاث ساعات في المهجع.

متر x متر كانت أبعاد المنفردة، يلفها الظلام الذين تعتاده عيناك بعد فترة قصيرة، فتبصر فيه كما تفعل خفافيش الليل، وصوت صنبور مياه لم يُحكم إغلاقه جيداً، وتُركَت نقاط الماء تتساقط منه على فترة بينها، ليحدث نزولها إلى بقعة تحتها صوتاً ذا صدى يكاد يذهب بعقلك، وكومة من «البطانيات» شغلَت نصف مساحتها.

حاولت سحب إحداها لأفرش بها الأرض فتكون تخفيفاً من بردها لأُفاجأ بذراع بشري بارد تحتها! بردَ مع ملامستي إياها جسدي كله، كأن الدماء انسحبت منه تاركة إياه يتجمد.

صرخت أنادي السجان لأنبهه إلى المعتقل المغمى عليه في المنفردة دون جدوى، وحين استجاب أخيراً صرخ بي أن علي تجربة قضاء بعض الوقت مع هؤلاء «المرضى»، لم يكن شخصاً واحداً إذاً.. وبالتأكيد لم يكن مريضاً.

حاولت الالتصاق بالزاوية المقابلة لكومة «المرضى»، أحاول تحسس صوت نفَس أو أنين، وربما غششت نفسي بأني سمعته مرة أو مرتين، لكني أخيراً تيقنت أني أبيت في متر مربع مع جثث، مع نفسي ربما بعد فترة من الزمن، فهؤلاء كانوا معتقلين مثلي.

عادت إلى عيني قدرتها على البكاء، وغادر آخر أمل بالخلاص نفسي، وأيقنت أني هنا لأموت، لأُترك هكذا حتى أموت وأُنسى، ثم يأتي معتقل أو معتقلة بعد حين يكتشف جثتي باردة على الأرض تحت «بطانية»، وتمنيت الخلاص لو وجدت له سبيلاً، ليأتي الفرج مسماراً تحسَّسَتْه يدي المرتجفة متروكاً قرب قفل الباب.

كل ما خطر لي حينها أن هذا المسمار هدية أرسلت إلي لأنهي عذابي، ولأدفن معي ما أعرفه فلا أؤذي أحداً بشيء أعترف به.

استجمعت كل ما لدي من رباطة جأش لأختار أفضل طريقة أستخدمه بها بأقل قدر من الألم.. فكرت وفكرت.. أطبقت يدي على المسمار بقوة لا أعلم منبعها تاركة نصله مكشوفاً، ثم غرزته بالجدار.. وخططت به «يا حرية».

خطر لي أخيراً أن الانتحار قد يكون تخفيفاً عنهم، وأني لن أعطي هذه الفرصة لهم، وإن كنت سأموت، فلن أفعل قبل أن آخذ من نفوسهم كما سيأخذون من جسدي.. لهم السياط والعصي وآلاتهم.. ولي الصبر والمصابرة ومنها مزيد.. لهم نظامهم وفروعهم.. ولي رب فوضت أمري إليه.

نجوت ليلتي الأولى هناك، وفُتح الباب في اليوم التالي وأخرجت الجثث وتركت وحيدة، لصورة والديّ وقد نال الحزن منهما ما نال تهاجمني.

كنت مطمئنة إلى أن أولادي وإن افتقدوني فسيكون لهم لعبهم يتسلون به عن ذكراي، وسنونَ طويلة كفيلة بأن تجبر قلوبهم، أما والداي فأعلم يقيناً أن لا شيء سيسليهما عن طيفي، وجُمع عليّ في ذلك المكان حزني على نفسي وحزن أكبر عليهما، وتمنيت لو أن أحداً يخبرهما بموتي فيكون لهما راحة.

علمت لاحقاً أن والدي لم يكن يقرب الطعام حتى يتركه وهو يردد: «إش عبتاكل بنتي»، وأنه قال غير مرة: «ليتهم يقتلونها فترتاح».. كنت أعرفه بهذا القدر، وأشتاقه بقدر ما أعرفه، وأحزن لأني سبب حزنه بقدر ما أشتاقه.

خرجت من المنفردة مرة واحدة إلى التحقيق في اليوم التالي، وجلست على كرسي في غرفة وقد قُيّدت يداي وراء ظهري، وغُطيت عيناي، وبدأت الأسئلة نفسها: من تعرفين؟ من قابلت؟ ما الذي تخططون له؟ كل ذلك مصحوباً بلهاث شاب يتوسل بلهجة أهل إدلب المحقق أن يكف عن ضربه ليس ببعيد عني، أخبرته أني لا أسمع مع كل ما يحدث أسئلته، ثم بعد أن توقف وأعاد الأسئلة نفيت كل شيء.

عُلِّقتُ على الجدار ساعتين، ثم قُلعَت أظافري وصُعقت بالكهرباء غير مرة وأنا مصرة على أني لم ألتقِ إلا الشخصيات التي يعرفون أسماءها مسبقاً

والمصنفة لديهم «إرهابية»، وأن لا نشاط تنظيمي لدي، لتتم إعادتي سحلاً إلى المنفردة، وقد اقتربت من البوح بكل شيء.

سُحبت من حجابي الذي وقع ثم من شعري في ممر أغلقت عليه أبواب المنفردات الأخرى، وصرخ شاب من إحدى المنفردات وهو يضرب باباها غضباً: «اتركها.. اتركها».

فتح له أحد العناصر الباب وأوقفه المحقق أمامي، ثم قال له مستهزئاً بألفاظهم القذرة التي لا يعرفون غيرها ما معناه: «إذا كنت مستعداً لتنام معها فستتركها»، فصرخ الشاب باللفظ الذي يفهمه المحقق أنها (يعنيني) أختي، وأنه «سينام مع زوجة المحقق الذي يسأله»، ودوت بعد صمت رصاصة من سلاح المحقق استقرت في ساق الشاب.

أسعفتني الأيام بأن أسمع تلك القصة في اجتماع صوتي لمجموعة من الثوار بعدها بأعوام، كان الشاب نفسه هو من يسرد القصة غير عالم باسمي، وبأن الفتاة التي انتصر لها في ذلك المكان كانت تسمعه مبتسمة وقد فاضت بالدموع عيناها، فرحت كثيراً بنجاته، وعلمت منه أنه قضى ثمانية أعوام بين معتقل وسجين قبل أن يخلى سبيله ويخرج ليعيش في آخر المناطق المحررة شمال سوريا اليوم.

ذكرني ذاك الموقف عِزّة الثورة وأبنائها، وأحيى في نفسي قوة كنت قد اشتقت أثرها فيّ، وعزمتُ مرة أخرى ألا أنكسر أمامهم، وأن الثورة التي حُرمنا إكمال طريقنا فيها هناك سنقيمها في أوجه السجانين هنا، ليعلموا أن لا سبيل لديهم لإنهائها، ويستيئسوا من أنفسهم وجهدهم في مواجهتنا ونحن مثقلون بالقيود، فتعظم في نفوسهم مواجهتنا أحراراً هناك على الجبهات.

أكملت ١٥ يوماً في المنفردة قبل أن أوقع على تعهد أقر فيه أني لن أقوم مجدداً بشتم «الرئيس»، وتم اقتيادي إلى مهجع آخر تكونت لي فيه صحبة من فتيات جاء بهن ما جاء بي. وتعاقبت الأيام حتى انقضى شهر قبل أن يتم إخراجي مرة أخرى إلى جلسة تحقيق أشرف عليها «صفوان»، وهو محقق شيعي من قرى ريف حماة.

كان صفوان ذكياً يعرف ما يسأل وما يريد، وبدأ التحقيق بوعد أنه لن يقوم بتعذيبي، وأنه يريد إجابات فقط، وعلى الرغم من محاولاته إيجاد سبيل يفلت به لساني بشيء يفيده إلا أني لم أقر بأكثر مما كانوا يعرفون سلفاً، وهو انتمائي لعائلتي «الإخوانية»، ولقائي بعض الشخصيات لا أكثر، وعندما ملّ من دور «المحقق الجيد» أرسلني لأجرب «بساط الريح» ثم أعود إليه مرة أخرى بعد أن فتح السياط الذي كنت أجلد به بين دفتي «البساط» أخاديدَ في جسدي، وتلك أداة لا يجهل فعلَها سوري.

أعاد سؤالي مرة أخرى وأعدت إجابتي مرة أخرى حتى هددني بـ «الدولاب»، فأعدت عليه أسئلته كأنها إجابات، تمويل إرهابيين ونقل سلاح وما شابه، فاكتفى بذلك على أنه اعتراف، ثم تفرّغ ليفيض عليّ من حكمته: «لو إنتو (يعني جماعة الإخوان) عندكن سيادة قرار، كان ما فشلتو بالمرة الأولى.. وهلا رح تفشلو مرة تانية». وعلى الرغم من نفيي أني من الإخوان إلا أنه بقي مصراً على مخاطبتي كذلك. ثم عاد يسألني مرةً أخرى عن الأشخاص الذين «أنسّق» معهم، والموجودين في مناطق سيطرتهم، وكررت نفيي معرفة أحد منهم، ليقوم بركلي موقعاً إياي على أرض الغرفة، وتهديدي مرة أخرى بـ «الدولاب».

لعل الموقف استفزني كثيراً فأخرجني عن حذري أو ربما استيأست من النجاة.. أو لعله وعدي لنفسي بأن نكسرهم معتقلين أيضاً هو ما دفعني لأصرخ في وجهه بعد أن رفعت «الطماش» عن عيني: «طالما شايفني إخوان فرح قلك أبيات للقرضاوي»، ورددت على مسامعه أبياتاً حفظتها منذ أعوام:

«والله ما الدعوات تهزم بالأذى ... أبداً، وفي التاريخ برّ يميني
ضعْ في يديَّ القيد، ألهِبْ أضلعي ... بالسوط، ضعْ عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو نزع إيماني ونور يقيني»

وكما لم أفهم سبب ترديدي تلك الأبيات أمامه، لم أفهم أيضاً كيف بدت دمعة في عينه أرسلني بعدها إلى المهجع بعد أربع ساعات قضيتها في «التحقيق»، ليكون ذلك آخر عهدي بالتعذيب، وليتم نقلي بعدها إلى محكمة الإرهاب في حلب مصحوبة بملفي.

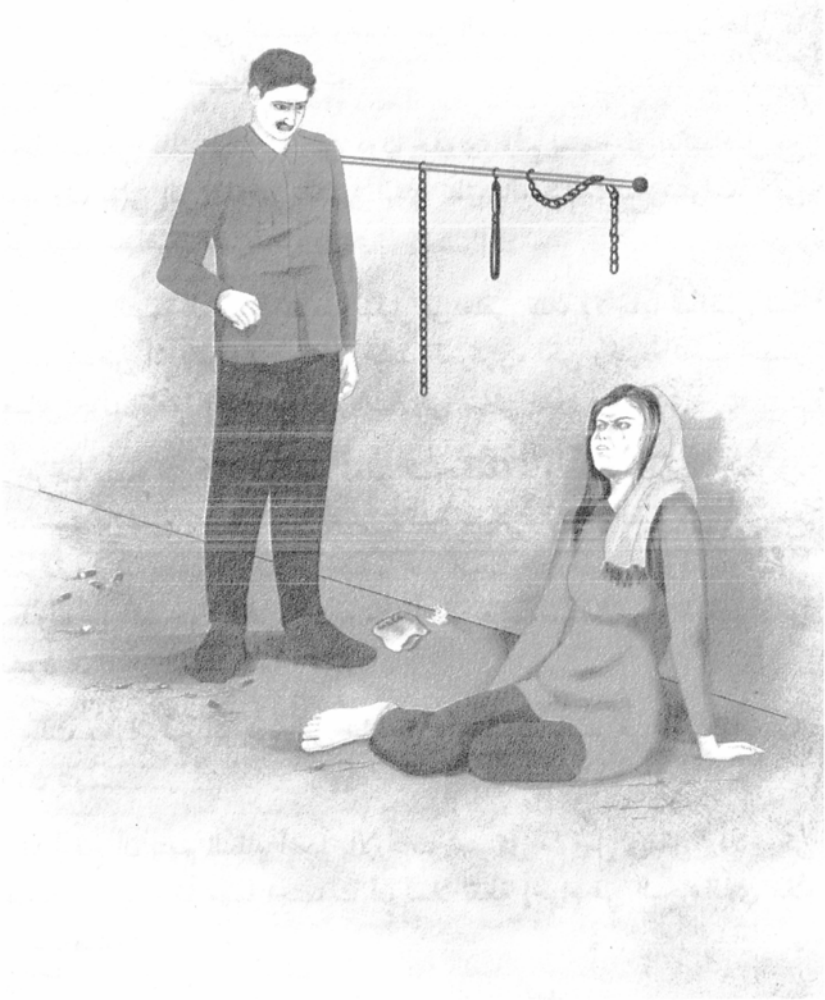

في المحكمة انتظرت في القفص ثلاث ساعات تقريباً، حتى تم عرضي على القاضي الأول الذي «واجهني بتهمي»، ومنها الحصول على تمويل من جماعات إرهابية، وهذا التمويل هو المبالغ المالية المتواضعة التي كان يرسلها لي والدي شهرياً كمصروف يعيننا على الحياة، بعد أن توقفت أعمال الناس، وبات جل المقيمين في المدينة وغيرها من المدن السورية يعيشون على ما يرسله لهم أقرباؤهم شهرياً كإعانات.

حاولت نفي ذلك أمام القاضي دون جدوى، ولم يسمح لي بالتواصل مع محام، وتم نقلي إلى القاضي الثاني الذي نطق بالحكم.. تسع سنوات، لأني أقبضُ مبلغاً متواضعاً شهرياً من والدي.

تلك هي التهمة الوحيدة المرفقة بدليل في ملفي كله، ولأجلها سأقضي تسع سنوات يفترض أن تكون في سجن حلب المركزي، لكن وجوده تحت حصار الفصائل حوّل إقامتنا (أنا وسبع أخريات) إلى سجن عدرا في دمشق.

خرجنا مساءً من بناء العداس (مقر المحكمة) نزولاً على درجها الطويل، وأحسست بالضوء ينسحب من عينيّ لكثرة بكائي، وُضع القيد في يدي مع مجموعة من المعتقلين، وصرخ أحدهم عند الباب «الإرهابيين»، وألفيت الناس يبتعدون عنّا مفسحين الطريق كأنه مشهد من فيلم سينمائي، أو لعلهم كانوا يخشون أن نفجر أنفسنا بهم!

جلت بنظري في الوجوه التي تطالعنا، وأحسست باليتم في قلبي وأنا أرى العيون تتهمنا.

ما أوقح أن يتهم النظام أحداً بالإرهاب بعد كل ما فعل ويفعل؟ فلا يمكن لجماعة إرهابية حقاً مهما اجتهدت أن تملأ نقطة إجرام في البحر الذي ملأه النظام بفظائعه.

وما أغبى أن ترى نظرات البغض من الناس لأشخاص يتهمهم النظام بالإرهاب، وهم ينظرون بعين الرهبة لمن يقصف مدينة بالطائرات، وبلدة بالكيماوي، ويفتح البلاد من أولها إلى آخرها معتقلاً كبيراً يعلم الجميع ما

يحدث فيه، ثم يتناسون ذلك ويعتبرونها «دولة» يقبلون حكمها على طلاب الحرية.

كانت النظرات أمضى في نفسي من تسع سنوات سمعتها مدة لعقوبتي، وأكملت عيناي تصب دمعهما على الدرج والرصيف وسيارة النقل التي وضعنا فيها لتقلنا إلى الفرع، وعلى المدينة بقسميها، كأنها تريد أن تغسلها من الظلم والألم، كأنها تطهر نفوس الناس من الحزن وتأخذه إلى قلبي ليفيض به دمعاً لا ينقطع، ولم أعتقد أنه سينقطع أبداً لولا عربة تبيع البرتقال مرت أمامها سيارة الترحيل، ونفذت إلينا فيها رائحة البرتقال وقد أذكاها المطر، ودخل لونها إليّ شعاع حياة بدّد حزني.. رجوت السجان أن يجلب لي واحدة.. لكنه لم يفعل.. وبقيت صورتها ورائحتها في نفسي دليلاً على أن للجمال نصيباً في كل نفس مهما اغتمت، وفي كل مدينة مهما نالت منها البشاعة.

بدأ الفرع ينقل المعتقلات اللواتي صدرت بهن أحكام إلى دمشق وطرطوس وغيرها من سجون البلاد «المفيدة» التي بقيت تحت سيطرة النظام، وبقيت أنا في الفرع لا أعلم سبب تأخر نقلي، حتى أخذوني يوماً في سيارة نقل لا يبدو أنها تصلح للسفر إلى محافظة أخرى، وصُدمت عندما توقفَت أمام فرع الهجرة والجوازات في حلب، وصدمت أكثر عندما أدخلوني مكتب المدير لأقدم طلباً للحصول على جواز سفر!

بعدها بيومين خرجت معهم مرة أخرى لاستلام الجواز، دون أن أعرف ما الذي يحصل، ثم نقلوني بباص نقل تجاري مع المسافرين وبرفقة شخصين من الفرع إلى دمشق، حيث قام فرع الفيحاء بتحقيق شكلي معي، ثم اصطحبني المرافقون ضمن باص نقل تجاري آخر إلى طريق لبنان!

علمت قبيل الوصول أن اسمي ورد ضمن صفقة تبادل للأسرى مع إحدى الفصائل (أحرار الشام)، وأن الصفقة تقضي بأن يتم نقلي إلى لبنان مع المفرج عنهم، ولحسن حظي فقد تم تسليمي علبة «مناديل» ضمن أماناتي التي كانت معي عندما تم اعتقالي، فقد اعتدت أن أخفي داخلها ١٠٠ دولار يبدو أن أياً من أقسام «الأمانات» في الفروع التي زرتها لم تنتبه لها، كما انتبهت إلى المال

والذهب الذي وضعته في حقيبتي قبل أكثر من نصف عام، عندما قررت التوجه إلى المنطقة المحررة والاستقرار فيها بعد تلك الرسالة التحذيرية.

عند الحدود نظر آخر ضابط تراه عيناي من جيش النظام إلى جوازي وقال لي: «عيلتك كلها مطلوبين»، أومأت مؤكدة وسألته ما الذي يعنيه ذلك؟

أعطاني الجواز و«ودعني» بكلمتين ما زلت أذكرهما: «روحة بلا رجعة».

ألقيت نظرة أخيرة على الوطن الذي حلمتُ به طوال عمري، ودعته إلى حين أرجو ألا يكون طويلاً، ومضيت أستذكر كل تلك المناطق التي انتقلنا خلالها في رحلتنا من حلب إلى دمشق كأنها تطواف قبل الوداع، وتمنيت لو ألقيت نظرة أخيرة على ساحة سعد الله الجابري، المكان الذي كنت أحلم أن أرفع علم الثورة فيه بعد تحريره، كما كان يحلم كل أبناء الثورة الحلبيين الذين اعتادوا الترديد في مظاهراتهم: «ساحة سعد الله.. جايينك والله».

وصلت بيروت واتصلت بأخي الذي حجز لي على أول طائرة مغادرة إلى تركيا، وكان أول ما فعلته عند وصولي إسطنبول سجدة شكر لله بعد اطمئناني لسلامتي، فطوال الوقت في بيروت لم أكن متيقنة من نجاتي، فلبنان اليوم ليس ربيع الأحرار الذي كان يوماً، أما ثاني أمر فعلته فكان شراء برتقالة.. وشمها مطولاً..

خرجت ولم أمت.. ولم أنكسر.

كان أخي قد استقبلني في المطار وأخذني إلى منزل والديَّ في ولاية أخرى، لأجدهما وقد فعل اعتقالي فيهما ما لم يفعله بي، وهناك أقسم أبي أن لا أعود إلى البلاد مرة أخرى حتى يسقط النظام.

انفصلت عن زوجي لاحقاً بعد رفضه القدوم إلى تركيا، ودخلت مفاوضات طويلة معه حتى عاد أولادي إلى حضني، وقررت الاستقرار في تركيا بعد أن افتتحت روضة للأطفال السوريين في إحدى مدنها، يتعلمون فيها كل ما يتعلمه الأطفال، ويتعلمون أيضاً كيف «يكتبون الحرية على الجدران»، كما تقول الأغنية.

وعاهدت نفسي أن أحفظ العهد في نفسي وفيهم، عهدي لجدار المنفردة، ولمسمار الانتحار الذي علمت لاحقاً أنهم يتركونه عمداً حتى يقتل من شاء من المساجين نفسه، وقبل كل هؤلاء وبعدهم عهدي لوالدي.

فقد زارني قبل شهرين من وفاته يودعني وأولادي لرحلة ينوي فيها مغادرة تركيا، وكأنه يعلم أن لا عودة له، وقبل أن يغادر التفت إليّ وسألني متردّداً كأنه خشي أن تطاول الزمن قد غيرني:

«إذا تسلّمت الغوطة، والبلاد كلها صارت للنظام، رح تحسّي إنو الثورة ماتت؟».

قلت له يومها ما أقوله للأطفال في الروضة:

«لو بعد خمسين سنة.. وقالو يا حرية.. بدي إطلع».

ضمني إلى صدره يومها.. وقبلني.. ثم ودعني على هذه الكلمة عهداً ودِيناً في عنقي.

يا حرية.

القصة الثالثة

خذلتني سوريا

مكتبة
t.me/soramnqraa

تسرب صوتها دافئاً إلى روحي، من مكبر صوت الموبايل الذي تحمله نفس اليد التي كانت قبل قليل فقط تعلقني على الجدار «مشبوحة».

نزلت كلماتها تحيي روحي، كمطر يحيي بادية بعد أن نسيها قروناً، وما كنت أظن أن لها هذا التأثير علي، وهي التي نشأتُ بعيدة عنها، محرومة من حضن «أمي»، لكن ذلك المكان على ما يبدو يمتلك قدرة إعادة ضبط المشاعر إلى حالتها الأولى التي أوجدها الله عليها، بعد أن تنزع عنها كل ما علق بها من أثر السنين، لأجد نفسي قد عدت طفلة أقضي الليل أحلم برائحتها.

أدركت ذلك للمرة الأولى قبلها بدقائق عندما كنت أصرخ باسمها: «أريد أمي»، فأنزلني «المحقق» واتصل بها أمامي لأسمع صوتها، دون أن يسمح لي بالبكاء حتى فتسمع نفَسي.. لكني سمعت صوتها على كل حال.. وسمعت لهفتها علي وبكاءها وهي تناشده «بنتي شلون» بعد أن عرفها بنفسه وبأنه «الضابط المسؤول عن ملف ابنتها»!

ملف! عجيب كيف يكون لاستخدام هذه الكلمة وقع يوحي بمنظومة كاملة تعمل بحرفية عالية، وفق آلية تدار بالملفات، والحقيقة أن الملف الوحيد الذي يملكه هؤلاء هو عبارات يكتبونها أولاً، ثم يؤذونك حتى تقبل نسبتها إليك، ثم توقع عليها دون أن تقرأها، وتنتظم كلها في ملف يصبح «ملفك»، ويصبح الشخص المسؤول عن «إقناعك» بتبني تهمك التي أمليت عليك هو «المحقق» المسؤول عن ملفك.

وعلى الرغم من أني كنت أعرف كل ذلك مسبقاً من قصص والدي التي نشأنا نسمعها، لكني لم أكن أصدقها تماماً! أو كنت أحسبها مبالغة، فبالنهاية والدي مطلوب اضطر لمغادرة البلاد على خلفية محاولة انقلاب فاشلة لا علاقة مباشرة له بها إلا معرفته ببعض المسؤولين عنها، ولذلك كان حكمه عندي «مجروحاً» بحقده على النظام، هذا لم يعنِ بالطبع أني كنت أجد النظام بأي صورة يختلف عن كونه نظاماً ديكتاتورياً مجرماً، لكن هذه طبيعة المنطقة كما كنت أرى، فقد نشأت في الأردن، ضمن وطننا العربي الذي تتشابه فيه الديكتاتوريات، وكان علي أن أعيش تجربةً بنفسي تثبت لي خطئي، فحتى شياطين الأرض لا يمكن لها أن تقارن بنظام آل الأسد، ذلك أنه يزيد على كل الديكتاتوريات العسكرية التي ورثت حكم الاستعمار في بلادنا بكونه نظاماً طائفياً، سواء أكان ذلك عن قناعة أم كان وسيلة للاحتفاظ بالحكم.

كل ذلك لم يكن واضحاً عندي عندما عدنا من رحلة هجرة طويلة بعد مطلع الألفية الجديدة إلى البلاد، حين تسلم الابن الشاب مكان أبيه، وأعلن نهج «التحديث والتطوير»، و«صفح» عن المعارضين في الخارج، في مبادرة وجد فيها والدي فرصة مناسبة ليعود إلى وطنه، ويشاهد بناته يكبرن في ربوعه.

كنت حينها في التاسعة من عمري، وكان غريباً ومريحاً أن أعيش في مكان لا أعرّف فيه بالسورية، بل باسمي فقط.. واحدة من الناس، فلهجتي الساحلية كانت كفيلة بأن يكون أول سؤال يطرحه علي أساتذتي وزملائي في الخارج هو جنسيتي، أما بعد عودتنا فقد تغير كل ذلك، وأصبحت فلانة ابنة فلان، المعارض الذي عاد بعد حرب العراق إلى البلاد، والفتاة التي غادرتها وأخواتها والدتها صغيرةً بعد انفصالها عن والدي، واضطرارها لتتركني وأخواتي معه، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت والدي حريصاً على العودة، فلم يكن مطمئناً تماماً لفكرة نشأتنا بعيداً عن أقاربنا وأبناء عمومتنا ونحن جميعاً إناث، فكان دائماً ما يكرر خشيته انقضاء الأجل دون أن يكون معنا وحولنا «رجال» يحموننا، ولذلك ومع أول فرصة سانحة اختار العودة إلى مسقط رأسنا.. بانياس.

كانت بانياس مدينة ساحلية جميلة لها التركيب السكاني لمعظم الشريط الساحلي الذي يضم طوائف مختلفة، لكن طبيعة المنطقة المتفرقة على قرى صغيرة في محيط بانياس يندر أن يجتمع في واحدة منها دينان أو طائفتان كانت كفيلة بأن نتجنب الاحتكاك مع «الآخر» طوال نشأتنا.

والآخر هنا ليس مفهوماً إيجابياً كما تحب كتب المواطنة أن تتحدث برومنسية عن «الفسيفساء الوطني»، الآخر في منطقتنا ليس ثراءً ولا ميزة ولا حتى فرصاً كبرى للانفتاح، بل قنبلة موقوتة وضعت تحت الضغط الشديد فترة طويلة يزيد توترها كل يوم، وتنتظر فرصة لتنفجر فتذهب بكل شيء، وليس ذلك أن طبيعة الاختلاف هي هذا التوتر، بل لأن الاختلاف مع جور أحد المختلفين على الآخر، ثم المبالغة بالجور مدفوعاً من سلطة تستثمر الاختلاف، تجعل هذا المزيج خطيراً.

انتهت دراستي الإعدادية في الضيعة، ثم انتقلت إلى بانياس لدراسة الثانوية في مدرسة أكملت إبعادي عن الاختلاط بالآخر، فجل الموجودين في المدرسة كانوا «سنة» مع بعض المسيحيين، وأفرادٌ يعدون على أصابع اليدين من «الطائفة الأخرى»، العلويين، ولم أدرك تحديداً الفرق بين السني والعلوي حتى أواخر العام ٢٠١٠، ولا أعني هنا الفرق العقائدي، وإنما الفرق الاجتماعي الملموس في حياة الناس، وذلك عندما حدثت مشكلة بين أختي وطالبة في صفها، وحدث أن تدخلتُ لصالح أختي وضربت تلك الطالبة التي اتضح أنها واحدة من أولئك القلة من الطائفة الأخرى، وتطور الأمر سريعاً إلى استدعاء ولي أمري، وأولياء أمورها، الذين كانوا وفوداً تنقلهم سيارات بمرافقات إلى مكتب المدير في المدرسة، وعلمت أن هناك نحن وهم عندما سمعت المدير يهمس لوالدي: «هدول ما ينعلق معهون»، ورأيت إيماءة أبي موافقاً، فسألته عما يعنيه المدير، ليخبرني أنهم «علوية»، لأدرك للمرة الأولى أننا في هذه المنطقة نحن وهم، سنة وعلوية، ولاحقاً متظاهرون محتملون وشبيحة محتملون.

لم أهتم كثيراً بالأخبار الواردة من تونس أواخر العام ٢٠١٠ ولعلي اخترت تجاهلها، فقد اكتفيت بما سمعته في نشأتي عن الشعوب والحكام والأوطان

والآمال، وقررت منذ زمن أني أريد حياةً هادئةً مستقرةً مملة، يكون أقصى همومي فيها حباً يغمر قلبي وعائلة عددت أطفالها وأقسمت ألا أتركهم يكبرون دون والدتهم، ولكن اللامبالاة نفسها تجاه اعتصام ميدان التحرير في مصر كانت أصعب مما يمكن لأي أحد في سوريا آنذاك فعله، فالبلاد كلها كانت تعيش حياتها فواصل بين المشاهد الواردة من الميدان، وكأن ما يحدث هناك رفع غشاوة مقيمة على أحلام الناس، فباتوا يتهامسون بداية ثم أصبح الهمس تصريحاً والتصريح نقاشاً والنقاش جدالاً، وللمرة الأولى يدرك كثيرون ـ خاصة من الشباب ـ أن هناك إمكاناً آخر خارج الشكل الذي ولد بعضهم وعاش جلهم طوال حياته لا يعرف غيره، وأن التغيير ليس خرافة، والتفكير به والحديث عنه ليس تجديفاً، والسعي إليه ليس حراماً تنخسف لأجله السماء.. لكن لم يكن الجميع هكذا، ففي الوقت الذي كان فيه جل الشباب يتحدثون عن التغيير أو إمكانه على الأقل، كان الكبار يحاولون إسكاتهم كلما تحدثوا، ويكتفون بـ «الله يستر» ختاماً لكل محاولة فتح نقاش حول ذلك بعد إنهائه، أما والدي فقد كان متيقناً من شلال دماء أوشك انبجاسه، وكان حريصاً على أن ينبهنا إلى ضرورة الابتعاد عن أي حديث شبيه، وبقي على رأيه ذاك يحاول تجنيبنا كل ما يحدث حتى بعد اندلاع الثورة وحدوث ما يخشاه، فقد كان مقتنعاً أن هناك حلاً واحداً ينفع للتغيير في البلاد، وهو انقلاب عسكري ضمن الجيش نفسه، تدعمه دولة ما، أما خلاف ذلك فليس إلا قرابين مجانية تقدم للنظام الذي سيكون سعيداً جداً بتقبلها.

لم تكن آذان الجدران التي حذّر منها كل سوري أبناءه أمراً غريباً على مسمعي، لكن التخويف بها بصوت عمتي المرتجف كان له وقع آخر أشد رهبة من كل شيء آخر، فعندما تحدث ابن عم لي في اجتماع عائلي عن مظاهرات في درعا تقمع بالرصاص أواسط آذار/مارس عام ٢٠١١، دار نقاش بيننا ـ نحن شباب العائلة ـ عن المدة التي سيصمد فيها هذا النظام أمام انتفاضة شبيهة، فبين متفائل يتحدث عن شهر على الأكثر ومتشائم يرى الأمر يحتاج عدة شهور، أما أنا فكنت ساذجة لدرجة قلت فيها إن الشعب حين ينتفض بكليته سيسقط النظام خلال أيام.. ولم يتوقف جدالنا حول المدة حتى صرخت بنا عمتي أن

نصمت.. وذكرت الجميع في أي بلد نعيش، وعن أي نظام نتحدث، وأن علينا ألا نعود لنقاشٍ كهذا مرة أخرى داخل البيت أو خارجه، فـ «الحيطان إلها أذان».

كانت عمتي تتحدث بلسان خبير مفجوع، وتنطق عن ذاكرة استدعت أمراً أخفته طويلاً خلف وجهها المبتسم أبداً، حتى فاض رعباً وجد سبيله إلى قلوبنا جميعاً.

كانت خائفة حقاً، ولا أعني هنا التوجس أو الارتياب، بل الخوف بصورته المطلقة، الخوف من معلوم تراه ماثلاً أمامها وتدافع الاقتراب منه ما استطاعت، وكان ذلك كفيلاً بابتعادي عن التفكير بالمشاركة حيناً من الزمن.

انتشرت الثورة في طول البلاد وعرضها سريعاً، كشرارة لاقت أرضاً يبساً، وكان لها في منطقتنا محطة لا ينساها أحد، ابتداء بالبياسي حين كذب إعلام النظام الذي ادعى أن مشاهد الضرب والإهانة لشباب كان بينهم على أيدي جنود النظام كانت في العراق، ليخرج بشجاعة يحمل هويته السورية ويخبر الجميع أنه سوري من بانياس، مروراً بكل تلك المظاهرات، وانتهاء بمجزرة ستجعل ذاك الخوف في وجه عمتي مفهوماً.

كنت أرتاد مدرسة ثانوية في بانياس عندما وصلت إليها المظاهرات، وبحكم كون المدرسة بأكثريتها من «السنة» فقد شكل طلابها خلية عمل للأنشطة الثورية في المدينة، وكان بعض شبابها ـ على حداثة سنهم ـ من ناشطي المدينة المعروفين، والذين ستستهلكهم الأيام متظاهرين ومعتقلين ومهجرين ومقاتلين وشهداء.. أما أنا فقد حرصت على الالتزام بوعدي لأبي الذي حذرني وأختي التي ترتاد المدرسة نفسها من المشاركة في أي نشاط قبل أن يصبح مفهوماً في أي اتجاه ستسير الأمور.

«يا بيي بين كل عشرة في داسوس يصور ويكتب كلشي.. ما تفكري إذا تظاهرتي قدام مدرستك إنو ما حدا عرفان.. هي الدولة بتعرف كلشي».. كرر ذلك مراراً كأنه يكرر متناً بين يدي شيخ، وكان يتبعه دائماً بأنه لا يريد أن يقضي ما تبقى له من عمر ينتظر خروجنا من أقبية المخابرات.

حفظت وعدي لأبي، ولم أشارك بأكثر من نقاشات باتت هي كل حديث الطلاب والمعلمين، بل والسوريين جميعهم، وربما ساعدني في ذلك أني لم أكن كبقية الطلاب.. فالدافع الذي يحثهم لم يكن بتلك القوة عندي.

أذكر زميلاً لي كان يتحدث بحماس عن الثورة، ويكرر: «هي البلد إلنا»، كنت أشاهد بريق عينيه وأحسده، تمنيت لو أني أستطيع الإحساس بهذا القدر من الانتماء إلى وطني، لكني لم أستطع، وبررت ذلك بأني لم أنشأ في البلاد مثله أو مثل أشباهه المتحمسين حتى وإن منعهم الحذر من الحديث بقوته، لكن أعينهم كانت تنطق عنهم، وتقول كل شيء.

لكن ذلك تغير مع أول صوت سمعته مباشرة دون حجاب مكبر صوت التلفاز أو شاشة الموبايل.. يومها كنت أعلم أن الطلاب يخططون لمظاهرة عند الانصراف، وحضرت نفسي لأغادر قبل انطلاقتها، لكن أختي التي كانت أقل التزاماً بوعدنا لأبينا غافلتني وخرجت إلى نقطة انطلاق المظاهرة أمام الباب، فتبعتها علّي أدركها قبل بدء المظاهرة فنغادر إلى ضيعتنا، أو ندخل المدرسة حتى لا يكتب عن مشاركتنا أحد «الدواسيس الـ ١٠ بالمئة» الذين حذرنا منهم والدي.

كنت أحث الخطا إلى باب المدرسة عبر باحتها الطويلة عندما بدأ الطلاب التكبير.. خفق قلبي بشدة مع اقترابي من المظاهرة، ليس خفقان الخوف مجرداً، بل خفقاناً من نوع مختلف، اللهفة ربما.. لا أعلم.. دخلت المظاهرة بحثاً عن أختي، وبدأت التدقيق في وجوه الطلاب محاولة تناسي الهتافات التي كانت تجذبني إليها، وفجأة أطبقت يد على يدي، وضغطت عليها بشدة كأنها تريد تنبيهي إلى ما كنت أتجاهل، التفت لأجد صديقتي تنظر إلي وهي تردد: «الله أكبر.. الله أكبر»، وكأنها تدعوني لمشاركتها الهتاف، نسيت أختي، والسبب الذي دفعني للدخول إلى المظاهرة أول الأمر، وبدأت أردد: «الله أكبر.. الله أكبر».. كان قلبي قد توقف عن الخفقان وغادره النبض في لحظة، كما غادرت كل الأفكار عقلي لتستقر فيه فكرة واحدة.. هذا الهتاف يشبه شيئاً في داخلي.. يشبهني.

لم يكن ما أحسست به في تلك اللحظات قريباً من أي شيء خبرته، ولا أي شيء سمعت عنه أو قرأته إلا ما تذكره قصص الحب الملحمية المشهورة، حين يمتلئ قلب أحدهم عشقاً، فيخفق كطائر يحلق فوق أرض لم توجد بعد، وفي سماوات لم ترتفع بعد.

أليس هذا غريباً! أعني أن كل شيء تشاهده وتسمعه وتقرؤه يحضرك لتلك اللحظات التي يضج بها قلبك اعترافاً بالحب، لكن لا شيء يخبرك أن هناك طيفاً كاملاً من الأحاسيس التي يمكن لقلبك التعرف عليها انتماء لقضية، وأن تلك الأحاسيس قد تكون أقوى من الحب نفسه، فتجد الآلاف مستعدين لبذل حياتهم انتماء وإيماناً، بينما لا تجد من يفعلون ذلك عشقاً إلا قلة، وهؤلاء يصبحون أساطيرَ تتناقلها الروايات التي تلهم أجيالاً وتحضرهم لحالة الحب.

شاركت مرتين أخريين في مظاهرات خرجت أمام المدرسة، قبل أن يعلم والدي بمشاركتي وينقل المدرسة إلى المنزل، حتى لا أغادره إليها مرة أخرى، ولا أشارك في مظاهرات قد تودي بي إلى ما كان يخشاه، خاصة أني بدأت التحضير لامتحانات البكالوريا، التي تحتاج لمن يطلبون دخول كلية الطب ـمثليـ أن يبدؤوا التحضير لها قبل أكثر من عام. وعلى الرغم من أن بقائي في المنزل قد حرمني أن أرسل صوتي مسماراً في نعش النظام، كما كنت أظن، إلا أنه لم يحرمني الاحتكاك بأحداث الثورة، فقد وفر لي منزل امتلكناه قرب منزلنا، اعتاد والدي فيه استقبال عوائل النازحين من حمص وغيرها، أن أعرف عن الثورة أكثر مما كانت توفره لي المظاهرات، وكان هؤلاء بالنسبة إلي أكثر ما يجعلني متأكدة أن هذه الثورة حقّة، يجب أن تستمر وتنتصر.

غادر هاجس الخوف علينا ـأنا وأختيـ والدي منذ زمن بعد توقفنا عن الدوام في بانياس، واستقرار حياتنا على شكلها الرتيب في ضيعتنا الصغيرة التي لا أعتقد أن الخرائط تضم اسمها حتى، وكنت قد نسيت شكل بانياس تقريباً حين قرر والدي أن يأخذني إلى طبيب فيها للكشف علي بعد فترة لم تغادرني فيها آلام بطني، وقرر الطبيب بعد الكشف علي أن لدي التهاباً في المرارة

يحتاج عملية حددنا موعدها بعد أسبوع، وفي طريق عودتنا اتصلت والدتي التي كانت تزورنا يومها لتخبر أبي أن الأمن العسكري في المنزل ينتظره.

لم تكن زيارات الأمن العسكري لنا أمراً مستغرباً، فقد اعتادوا منذ زمن على زيارة دورية يأخذون فيها فواكهَ وخضاراً وبعض المال من والدي، فكونه معارضاً سابقاً من أصحاب الأراضي والأملاك كان أمراً كافياً لابتزازه مدى الحياة، لكن زيارتهم ذاك اليوم لم تكن لأجل ذلك.

وصلنا إلى المنزل لنجد أربع سيارات وعناصرَ بلباس أسود منتشرين في محيطه، تركت والدي ودخلت إلى المنزل بسرعة، ولم أنتهِ من السلام على أخواتي حتى دخل والدي ليخبرني أن علينا الذهاب إلى الفرع معهم.. علينا! كان يعنيني بذلك، واكتشفت أن الأمن هنا ليأخذوني.. سألته لماذا وأخبرني أنه مجرد «سؤال وجواب».

كان الأمن قد طلب أن يأخذني للاستجواب، لكن والدي أصر ألا يتركهم يأخذوني وحدي، ونجح بإقناعهم أن يسمحوا له باصطحابي بسيارته الخاصة على أن يرافقنا أحد عناصرهم. وعلى الرغم من أن فكرة الدخول إلى فرع في سوريا ليست بالأمر الذي يمكن أن يطمئن لنتيجته أي أحد، لكن تجربة سابقة لأختي قبل عدة أشهر طلبها فيها نفس الفرع، وانتهت بتوقيعها على تعهد «بعدم المشاركة بمظاهرات مناهضة للنظام» كانت أمراً مطمئناً نسبياً.

كنت أطيل النظر في وجه والدي الذي غادرته الدماء، وأنتظر منه أي كلمة يطمئنني بها، لكنه اكتفى بالصمت، واكتفيت أنا به مع وجود عنصر الأمن الذي حال دون أن أتمكن من سؤاله عمّا يجب أن أفعله في الفرع.

وصلنا إلى الفرع أخيراً، وعلى خلاف تصوراتي عن ذلك المكان الموحش الذي تنسج حوله كل تلك القصص المخيفة، فقد تم إدخالنا إلى مكتب نظيف في الطابق الأول من البناء، وأخبرنا أحد العناصر باحترام أن علينا انتظار المحقق ليسألنا سؤالاً ثم يمكننا المغادرة، وجلست مع والدي وعنصر آخر في المكتب ننتظره دون أن أتمكن من الحديث مع والدي أيضاً، ولكني على الرغم من ذلك

كنت مطمئنة إلى أن كل هذا سينتهي قريباً بتوقيعي على تعهد كما فعلت أختي سابقاً، ثم المغادرة إلى المنزل.

وبعد ساعتين من الانتظار جاء عنصر آخر ليخبر والدي الذي خاطبه بكلمة «عم» أن عليه المغادرة وأن علي أن أنام ليلتي في الفرع! وحينها فقط رأيت وجه عمتي مرة أخرى.. لكن في وجه والدي المرتعش.

أما أنا فغادرتْ كل الأفكار عقلي مرة واحدة، كما فعلت لحظة الهتاف الأول، لكنها الآن لا تغادره لتفسح مجالاً للحماس أو الحب، بل لتتركه للخوف يحتله، ويتملكه، ولا أعني الخوف على مصيري، فقد كنت حتى ذلك الوقت أعتقد أن كوني من عائلة معروفة وموسرة، وأن كوني فتاة، سيمنع عني ما تفعله هذه الأماكن بالآخرين، لكني خشيت على والدي من جلطة أو شرٍّ يصيبه مع كل تلك الأمراض المزمنة التي كان يعاني منها.

توسل والدي العنصر كثيراً حتى يقوموا بالتحقيق معي ويسمحوا لي بالعودة معه إلى المنزل، لكنه رفض مراراً ثم أخبره بأني قد لا أبيت ليلة واحدة وفقط! بل ربما يطول الأمر ليصل أسبوعاً وأسبوعين.. وأكثر!

حتى بعد تلك الكلمات لم أفكر في نفسي، وكان علي أن أسمع المحقق الذي أتى بعد رحيل والدي بساعتين يقول لي: «لو بعرفك بهالجمال كنت جبتك من زمان» لأبدأ التفكير بالمصير الذي ينتظرني هنا، فعيناه لم تكونا تشيان بإعجاب بريء.. ولا حتى بغريزة حيوانية مجردة، بل كان فيهما من النار التي تكفي لتحرق بلداً بأكمله، ما يجعل كل ما حدث ويحدث في البلاد أمراً ممكن التفسير، حين يكون الحقد في عيني ضابط ما ملموساً هكذا، يكون تدمير البلاد وقتل أهلها وتشريدهم أمراً ممكناً.. بل ومنطقياً.

لم يقم المحقق بالتحقيق معي يومها، واكتفى بمراجعة ملفي في حضوري دون أن يسألني عن شيء، ثم أمر عنصراً ليأخذني إلى «تحت»، وهناك بدأت التعرف على المكان الذي تطابق حالته السمعة التي تحملها فروع الأمن، من الجدران التي تقادم عليها العفن حتى استحالت رمادية، إلى الإضاءة الباهتة الضعيفة التي يغيب عن عينيك فيها أول الممر إذا وقفت بآخره، مروراً برائحة

الدماء والقهر في كل زاوية، وابتداء وانتهاء بالصرخات التي لا تتوقف لحظة هناك، وكان أولها صيحة شاب يبدو أنه تعرض للسعة كهرباء، فبعد حين من الزمن هناك تصبح خبيراً بالصرخات ومسبباتها، فذاك التأوه ناتج عن الشبح مدة ساعتين، وتلك الصرخات المتتالية هي ما يفعله بك «بساط الريح»، أما الصياح المذعور الذي استقبلني لحظة دخولي فهو ما يخرج منك بلا تكلف حين تلتصق بجسدك أسلاك الكهرباء العارية.

سلمت يومها عند قسم الأمانات الخواتم والسلسال والساعة وكل معدن كنت أرتديه، كما سلمت معطفي وحجابي دون أن يحتاج العنصر أن يؤذيني لينتزعهما كما يفعلون عادة بالفتيات اللاتي يرفضن نزع الحجاب، ثم مشيت معه في ممر طويل علق فيه عدة شباب إلى الجدران، بينما وضعت سخانة كهرباء تحت أحدهم كأنه قطعة لحم تركت لتشوى على نار هادئة! أما أنا فمضيت في الممر إلى نهايته حيث انتظرتني منفردة سرعان ما أغلق بابها علي.

لف الظلام ذلك المكان المعتم، وأرسلت أطرافي بدل عيني تتفحصه، وسريعاً تمكنت يداي من الإحاطة به، فلم تتجاوز مساحته المتر المربع، أما قدمي فقد غاصت في ما يشبه الحفرة عرفت سريعاً أنها «جورة تواليت»، وأدركت يدي في الجدار صنبوراً قطعت عنه المياه، وفهمت أنني داخل بيت خلاء سيكون مكان إقامتي لأيام قادمة.

حاولت أن أقنع نفسي بتجاوز إحساس القرف والجلوس على الأرض، فقد ناءت قدماي بحملهما، لكن أصوات القوارض الصغيرة التي بدأت أحس بها تدب على الأرض حولي وأنا التي عشت عمري كله رهاباً من اسمها كانت كافية لألغي تلك الفكرة، وساعدني في ذلك يقيني بأن مقامي لن يجاوز هذه الليلة، لكن هذا اليقين لم يستطع منعي من البكاء، وبدأت تدريجياً أدرك ما الذي يحدث، أنا الآن معتقلة في فرع أمني، في المكان الذي طالما أخبرنا والدي عن بشاعة ما يحدث فيه، في المكان الذي يكفي وجهه الخائف تحذيراً من مصيبته.

حاولت إظهار رباطة الجأش ربما لنفسي، أو للسجانين الذين يعتقلونني، لكني فشلت في المحافظة عليها مع أصوات الفئران التي كان يحلو لها أن تلاعبني، فتقترب من قدمي حتى أحس بها وأبدأ الصراخ كالمجنونة، فتبتعد، ثم أهدأ قليلاً فتعود مرة أخرى للاقتراب مني، وأعود مرة أخرى للصراخ.. وبقيت هكذا مدة من الوقت حتى أعياني الصراخ والطرق عى باب الزنزانة أو «بيت الخلاء»، حين فتحه السجان يحمل كيساً عرفته، فقد كت أضع فيه أدويتي، ثم سألني أي الأدوية آخذ، وعلمت منه أن والدي قد جاءبالأدوية قبل قليل.

أزال عني كيس الدواء ذاك قليلاً من وحشتي، ليس بمفعول الحبوب التي أعطاني إياها السجان ولم يغادرني حتى تأكد من ابتلاعي إياها، بل من فكرة أني لست متروكة هنا، وخطر لي أن والدي الذي اسطاع إيصال كيس الدواء إلي، لا بد سيتمكن من إخراجي من هنا.. واحتجت ومين آخرين لأدرك مدى غبائي، فلو كان سيتمكن من إخراجي لما جلب دوائي أساساً!

وربما طمأنتني أيضاً فكرة قبولهم أن آخذ دوائي،وأن السجان كان مصراً على التأكد من ابتلاعي للحبوب، وخطر لي أن ما حدث كفيل بتبديد مخاوفي، فلو كانوا يريدون بي شراً لاختلف تعاملهم معي، ولحظة خطر لي أن أطرق الباب مرة أخرى فأطلب أن ينقلوني إلى منفردة أتمكن فيها من الجلوس على الأقل، لكني عدلت عن الفكرة بعدما رددتها في خاطرن مرة أخرى، وعرفت كم بدت طفولية.

عاد السجان ليفتح الباب بعد ساعة أو أقل، واقتادني عنصران إلى غرفة كان واضحاً أنها جهزت بشكل جيد لإرعاب من يدخلها دون الحاجة إلى استخدام أي شيء فيها، فجنازير الحديد المعلقة على الجدران، والسياط الطويلة على المكتب المهترئ الذي جلس خلفه المحقق، وكرسي الحديد الموصول بسلك إلى بطارية سيارة، والكثير الكثير من الكلاليب، وعينا لمحقق «محمد» التي زاد اشتعال النار فيهما عن أول مرة رأيته فيها في مكتبه بي الطابق العلوي، كانت كفيلة بأن تغادرني أفكاري الطفولية، ويستعيد قلبي خونه، وقدماي ارتجافتهما.

أخبرني المحقق أني إذا تعاونت معه فسيتم إرسالي مباشرة إلى بيت أهلي، وبدأ يسألني أسئلة سخيفة لم يكن أي منها يحتاج التعاون أساساً عن عمل والدي وأعمامي، وحين ضقت ذرعاً بتلك الأسئلة التي لا معنى لها طلبت منه أن يسألني ما الذي يريده حقيقة لأتعاون معه، وأعود إلى منزلي.. لكنه اكتفى بقوله: «بعدين بتعرفي»، ثم طلب مني الجلوس إلى كرسي الحديد ذاك، وسألني إن كنت أدخن وهو يمد لي لفافة تبغ من علبة سجائره «الحمراء طويلة»، اعتذرت عن قبولها وأخبرته أني غير مدخنة، لكنه كرر عرضه مصحوباً بتأكيده أنهم يعرفون أني أدخن، فأخبرته أني قد توقفت لأتجنب قبول تلك البادرة منه، والتي وجدتها كسر حاجز لم أرتح له من شخص لم تتوقف عيناه عن تفحصي بلؤم، خاصة أن التدخين له عرف مختلف عنه في أماكن أخرى من العالم ربما.

فالفتاة المدخنة ترتبط في المخيال الجمعي للناس بالإغراء، أما قبولها لفافة تبغ من شاب فيرتبط بقبولها تقرب ذاك الشاب منها، وفي مكان كهذا أحسست بأنها تحمل معنى يتضمن أكثر من قبول التقرب.

استفز رفضي المحقق المعتد بنفسه، فصفعني ملء يده، ثم مد إلي لفافة التبغ للمرة الثالثة، فقمت بتدخينها كأني أبتلعها خشية صفعة أخرى، وعرفت حينها أن طمأنتي نفسي أن كل شيء سيكون بخير كان هو الأمر الطفولي.

ثم مضت ساعتان من الوقت تعرفت فيها على معنى التعذيب بالكهرباء، دون أي سؤال حقيقي فيما كان يفترض أنه تحقيق. وطوال أربعة أيام تلت ولساعتين يومياً كنت أخرج إلى تلك الغرفة، فأُشبح أو أضرب، أو أوضع في الدولاب، أو تطفأ في جسدي لفافات التبغ، أو تلسعني الكهرباء، أو تخلع أظافري.. دون أي سؤال، وكأن هذا المحقق موكل بمهمة أن يقوم بتعذيبي يومياً لأجل التسلية، ولأجل التسلية أيضاً ـ كما أظن ـ قام بالاتصال بوالدتي أمامي في اليوم الثاني دون أن يسمح لي بالحديث معها، أو يعلمها بأني أسمعها، ليشاهدني أبكي من شيء آخر غير الأذى الذي كان يتفنن بإذاقتي إياه.

عدت ليلتها إلى المنفردة وقد تمكن الإرهاق من روحي قبل نفسي، وأدركت أن التعذيب ليس وسيلة يستخدمها هؤلاء للوصول إلى غاية، وإنما هو غاية

بذاته، مرحلة أولى يتم فيها تحطيم افتراضاتك عن نفسك؛ إنسان.. لديك كرامة.. لديك موقف من الأشياء والقضايا قبولاً ورفضاً، كل شيء.. كل شيء يتغير بعد أن تجد نفسك تُعامل كجماد بلا روح، فحتى الحيوانات لا تعامل بتلك الطريقة، ويستخدم معها الأذى تنبيهاً وتخويفاً، أما هناك فأنت تضرب كأنك لا تحس، أو حتى تتوقف عن الإحساس، وينجح ذلك جزئياً عندما تجد أنك لم تعد تقرف من التكور على أرضية بيت خلاء جعلت منفردة لك، ولم تعد تستفزك كثيراً أصوات الفئران التي تتحرك تحتك وحولك، وتتأكد أنه نجح كلياً عندما يغادرك سؤال «المصير»، وتفقد الاهتمام بأي شيء وكل شيء، وتترك لغريزة البقاء خارج عقلك الواعي إدارة وجودك هناك، والتي تدفعك عندما تصل المنفردة للنوم ونيل قسط من الراحة، استعدادة لبعض القوة التي ستستنزف جلها غداً في غرفة التحقيق، ثم تعود لتعوض جزءاً منها تالياً، وهكذا حتى يصبح ما تستعيده من قوة غير مكافئ لما يذهب تحت التعذيب، فتهلك.

في اليوم الرابع وبعد تكوري على أرضية المنفردة فُتح الباب لأجد المحقق محمد هو من يقف خلف الباب على غير العادة، وقد ارتدى قميصاً داخلياً وبنطالاً قصيراً، سألني بسخرية إن كنت قد اشتقت له، ثم أمر العناصر بسحبي إلى غرفة غير غرفة التحقيق، فيها مكتب وكرسي.. وسرير عسكري!

أجلسني على الكرسي يومها ثم زفّ لي البشرى: «إنتي بكرا الصبح رح تطلعي من عنا»، وفي لحظة واحدة عادت إلي نفسي، وارتسمت على وجهي ابتسامة لم أستطع إخفاءها، كيف أفعل وقد أحسست أن كل شيء يضحك حولي؟! حتى المحقق الذي كرهته كنت مستعدة لمسامحته في تلك اللحظة، بل ولشكره أيضاً!

أخرج حينها من درج المكتب جهاز «موبايل» وأخبرني أنه سيقوم بإعطائي إياه للتواصل معهم، ولنقل «الأخبار المهمة» التي ألاحظها حولي لهم، ترددت قليلاً في الشكل الذي يجب أن أعتذر فيه حتى أتجنب صفعة شبيهة بتلك التي تلقيتها عندما اعتذرت عن لفافة التبغ، لكني قررت أن أفضل ما يمكن فعله هو إفهامه أن المشكلة ليست مرتبطة بي في اقتناء جهاز جوال، وأخبرته أن كوني

من عائلة محافظة سيمنعني من ذلك، وسمعت منه سيلاً من الشتائم شملتني وعائلتي والمحافظين جميعهم، قبل أن يخرج ورقة بيضاء ويطلب مني توقيعها.. رفضت مرة أخرى بحجة أن ليس من حقه أن يقوم بإجباري على التوقيع على شيء لا أعلمه، إلا أنه «أقنعني» بعدد من الصفعات أن أوقع.

أعود الآن لأفكر في السبب الذي منعني من التوقيع بادئ الأمر، أعني في ذلك المكان يكون أهون ما يطلب منك توقيع، وهم من يمتلكون حريتك وجسدك، بل وأنفاسك التي تعدها، لكني أظن أن خبر مغادرتي ذاك الكابوس كان كافياً ليعيد إلي التفكير بما وراء الجدران، بالحياة التي يكون فيها لورقة تحمل توقيعك معنى.

أضاف المحقق الورقتين اللتين وقعت عليهما إلى ملف أعاده إلى درج مكتبه، ثم استدعى ثلاثة عناصر لينفذ لي الوعد الذي قطعته عيناه منذ اللحظة التي رأيت النار فيهما.

وبعد أن كنت مستعدة لمسامحته عندما أخبرني أني سأخرج، بت مستعدة لشرب دمائه حرفياً لو وجدت إليها سبيلاً.

قاومته في البداية.. حتى اختار التفرغ لاستعراض فحولته التتنة تاركاً مهمة تثبيتي لعناصره الثلاثة الذين استدعاهم شهوداً أعانوه بصرخاتهم، ثم بأيديهم الممتدة، ثم قرروا أن تقييدي إلى قضبان السرير الحديدية التي يبدو أنها قد صممت لهذا الموقف تحديداً أجدى، وما إن فرغ المحقق حتى تركني لكلابه يشاركونه شرف انتزاع «شرف السنة»، كما كان يصرخ أحدهم.

لم يكلف أي منهم نفسه عناء تغطية عيني أو تكميم فمي، وكأنهم يريدون لي أن أرى وللعالم كله أن يسمع صرخاتي وتوسلي وشتائمي وتهديدي ومناجاتي الله أن يتدخل بإحدى معجزاته لإنقاذي دون جدوى.

كنت قد أغمضت عيني منذ اللحظة التي بدأ بها كل شيء، ربما لأني لم أرد أن أصدق أن هذا يحدث، أو لأني كنت أظن أن أمراً كهذا لا يمكن أن

يحدث في النور، أو لأني لم أكن أريد أن أضيف لذاكرتي صورة عن تلك الليلة مع الأصوات والإحساس والألم الذي لم يفارقني يوماً.

كان جسدي قد انهار مع الاعتداء الثالث، واختار عقلي الغياب عن هذه الدنيا صارفاً إياي إلى إغماءة لم أستيقظ منها إلا على حقنة أدخلها طبيب الفرع في ذراعي، قبل أن يرسلني إلى المنفردة ويعود إلى كاسة المتة دون أي تعليق حول حالتي، أو حتى نظرة تأثر في وجهه، وكأنه معتاد على مثيلاتي.

جلست في الزنزانة أبكي نفسي.. وأحلامي بليلتي الأولى مع حبيبي التي تضمنت فستاناً أبيض زينته بالورود.. وعلى مدار الساعات التالية جربت كل إحساس يطيقه قلبي.. الحزن.. اليأس.. الخوف.. السرور.. الرجاء.. والندم.. الندم كثيراً على المظاهرات القليلة التي خرجت بها، والتي انتهت بي هناك، فحتى ذلك الحين كنت أعتقد أني أعاقب عليها! وكان علي أن أنتظر شهراً آخر لأعلم أني اعتقلت بسبب اسم عائلتي فقط، وأن كل ما حدث وسيحدث لم يكن انتقاماً مني، أو عقوبة لي، بل كان انتقاماً مما أمثله.. من بنت سنية عائلتها معارضة.. ومهما تبدو هذه الفكرة سطحية وساذجة، فذاك هو الواقع الذي لمسته في كل فرع دخلته.. وقد دخلت الكثير.

استجمعت ما استطعت من رباطة جأش ورددت أذكر نفسي «بكرا طالعة»، ووعدتها أني لن أخبر أحداً بما حدث، وبأن أجهد نفسي لنسيانه.

خرجت صباحاً من الفرع بعد أن سلموني معطفي وحجابي وأماناتي، وتم اقتيادي إلى المحكمة التي قيل لي إن مروري بها إجراء روتيني قبل إخلاء سبيلي، وعندما وصلنا إلى نظارة المحكمة لتسليم الأوراق، ارتأى عسكري أن إبقائي وحيدة مع خمسة شباب معتقلين في زنزانة واحدة انتظاراً لدور عرضنا على القاضي غير مناسب، واقتادني إلى غرفة قريبة ضمت سريرين وخزانة، يبدو أنها استراحة لزملائه لأنتظر فيها، لكني لم أتمالك نفسي عندما دخلتها وبدأت بالصراخ، فقد كان السريران «عسكريّين» يشبهان ذاك في غرفة المحقق، ولم أكن لأتحمل حادثة أخرى مشابهة، أو هكذا اعتقدت!

طمأنني العسكري أنه لن يقوم بأذيتي، ولفت انتباهي إلى أن الغرفة لا باب لها حتى يغلق، وكأنه أحس بما حدث لي، خاصة أن انتفاخاً في عيني وتورماً في أطراف أصابعي عديمة الأظافر كانت تنبئ عن الجحيم الذي كنت فيه، ثم جلب لي «سندويشة» فلافل وعلبة مياه، وجلس قبالتي وقد بدت عليه علامات التأثر.

ـ «ليش وصلتي حالك لهون.. ما حرام».

كنت أريد أن أخبره أني لم أوصل نفسي إلى هذا، وأن رفاقه هم من أوصلوني إلى حالي الذي رأى، وأني لم أرتكب ذنباً يستوجب أياً من ذلك، لكن لم يكن لأي من ذلك معنى، فقد كنت أنتظر دوري لأُعرض على القاضي، ثم أغادر إلى منزلي الذي أقسمت ألا أغادره حتى موعد الامتحانات القادمة، كما أن مذاق الفلافل حرمني من التركيز في جل كلامه، لأنها كانت أول وجبة حقيقية لي منذ أربعة أيام كنت آكل فيهن كسرة خبز مع حبة بطاطا.

كنت ألتهم بنهم «السندويشة» محاولة تناسي طعم الحرقة الناجم عن الملح يكوي جرح فمي المشقوق، حين سمعت صوتاً مألوفاً ينادي: «يا عم.. يا عم»، وقبل أن أفكر من صاحب الصوت وأنتظر عقلي ليعطيني النتيجة، صرخت: «بابا»، وقفزت من مكاني لأراه، لكن العسكري أمرني بالجلوس وخرج يحدثه من نافذة خارج الغرفة لم يكن ممكناً رؤيتها من داخلها، وقف خلفها والدي وحاول إقناع العسكري بشتى الوسائل أن يراني، ثم أبرز له إذناً من القاضي بذلك فسمح لي بالخروج إلى النافذة ورؤيته.

أجهشت باكية مشتاقة حضنه الدافئ ما إن وقعت عيني عليه بعد أيام البرد والوحشة التي قضيتها، لكن الشبك الذي غطيت به النافذة منعني حتى من لمس يده، أما هو فيبدو أنه كان يبكي حالي أكثر مما يبكي اشتياقاً، حاولت مد أصابعي عبر الشبك لألمسه، فلم أعد أطيق انتظار ساعة أخرى أعرض فيها على القاضي وأخرج لاحتضانه، فقد فجعني وجهه الباكي وعلامات التعب البادية عليه، وجعلت أردد له ألا يبكي، وأني سأخرج بعد قليل، لكنه لم يتوقف عن البكاء، بل قام بدفع مبلغ من المال عبر الشبك كان قد كوره على نفسه،

وطلب مني أن أحاول التقاطه، لكني دفعت المال بأصابعي.. وكررت له: «بابا.. أنا طالعة.. ما لازميني»، لكنه لم يتوقف عن محاولة إيصاله إلي.

حاولت جاهدة أن أشرح له أني سأخرج بعد قليل، وتمنيت لو يسمع كلماتي للحظة بدل محاولة إيصال المال إلي، لكنه لم يفعل، بل زاد بأن طلب مني التركيز في كلام الرجل الذي يقف إلى جانبه والذي عرف به على أنه محام، وبدأ الرجل يردد علي مجموعة من الأمور التي علي الالتزام بها أمام القاضي دون أن أستطيع التركيز في أيٍّ منها، ودون أن يكون لي رغبة في التركيز، وعدت وكررت صراخاً أني أنتظر عرضي على القاضي لأخرج، وأن لا حاجة لي بالمال أو النصائح أو أي شيء، ليلقي علي والدي عبارة ثقيلة، أفقدتني تحاملي، فجلست من هولها على الأرض قبالة النافذة بعد أن استحال الوقوف: «بنتي انتي تحولتي عالشام».

احتجت دقائق حتى أستعيد قدرتي على الكلام، وبدأت أرجوه أن يحاول تغيير شيء، أخبرته أني لن أنجو يوماً آخر، لكنه عاد لبكاء العاجز الذي كان يفعل في قلبي أكثر مما كان يفعل فيه، أما أنا فسحبني العسكري إلى الغرفة نفسها التي كنت فيها، ولنصف ساعة تلت لم يغادرني الذهول، ولم تخطر على بالي إلا كلمات والدي التي فجعتني.

تم تحويلي من المحكمة إلى السجن المدني بطرطوس، وهناك تمكّن والدي من إيصال طعام وثياب وبعض النقود إلي، كما تمكن من زيارتي بعد عدة أيام مع أخواتي ليودعنني، فقد قرر والدي أنه لن يتحمل اعتقال واحدة أخرى منهن، ورتب لإخراجهن إلى الأردن، وعلى الرغم من أني لم أتمكن من عناق أي منهن من خلف شبك الزيارات، إلا أني كنت سعيدة أنهن لن يذقن ما ذقته، ثم عاهدت نفسي أني لن أفقد نفسي هنا، وأني سأخرج محتفظة بعقلي وقلبي مهما حدث، وأني سألقاهن هناك، في بلاد لن يكون علي فيها التعامل مع أي شيء يتعلق بالنظام. وفي تلك اللحظة.. عندما ودعتهن.. أدركت أني لن أخرج قريباً، لكني أدركت أيضاً أني لن أموت هنا، وأني جاهزة لأبدأ رحلة النجاة.

بعد عدة أيام في السجن تم شحننا بسيارة نقل دون أن نعرف الوجهة، وبعد مغادرتنا بقليل غُطِّيت أعيننا، ولم نلبث كثيراً حتى تم إنزالنا في بناء يبدو أنه فرع أمني، لكن المسافة لم تبدُ كافية للوصول إلى دمشق.

سلمت الأمانات «المعطف.. والحجاب.. والمعادن» في غرفة التصقت بباب البناء الداخلي، ثم تم اقتيادي إلى القبو حيث رميت في زنزانة ضمت خمس فتيات، كنت سعيدة بوجودهن، فلن يكون علي التحدث إلى نفسي بعد أن تعودت على صحبة المعتقلات في سجن طرطوس، وما إن أغلق الباب حتى بادرت بسؤال إحداهن عن مكاننا، لكنها أشارت إلي بالصمت، كررت سؤالي مرتين قبل أن تخبرني أني في فرع الأمن العسكري في حمص، ثم تعود وتسكتني، وذلك قبل أن يتم نقلي إلى منفردة أخرى، كان حالها أفضل من مثيلتها في الفرع السابق، أعني أنها على الأقل لم تكن بيت خلاء، ثم وبعد يوم ونصف اليوم استدعيت إلى أقرب شيء إلى التحقيق عشته خلال فترة اعتقالي كلها، فقد تم فيه توجيه عدد من الأسئلة إلي قبل التعذيب، وإن لم تكن طبيعة الأسئلة تستحق الإجابة فعلاً، فكلها كانت تخص أسماء أقاربي وأعمالهم، لكنها كانت أسئلة بالنتيجة.

تلقيت في هذا التحقيق عدداً من الصفعات واللكمات دون أن يقارن أي منها بما عشته في الفرع السابق، ولعل ذلك ما أعطاني الجرأة حتى أخبر المحقق بعد أن ضقت ذرعاً بأسئلته أنهم جلبوني من منزلي بين عائلتي، وأنهم يستطيعون بلا شك أن يجلبوا أقاربي الذين سألني عنهم فيحققوا معهم، بدل سؤالي أسئلة يمكن له بزيارة إلى النفوس معرفة إجاباتها.. اكتفى يومها بصفعة أخيرة مع شتائم كانت أذني قد اعتادت عليها، ثم أرسلني إلى المنفردة.

ولأربعة أيام أو يزيد كنت أخرج إلى التحقيق يومياً للإجابة عن أسئلة شبيهة، وتلقي لكمات وصفعات لا أكثر، ثم أعود إلى المنفردة مع شيء من الارتياح بأن الأمر انقضى عند ذلك الحد، ولم يتم وضعي في الدولاب، أو صعقي بالكهرباء.. كأن ذلك هو الطبيعي الذي يجب أن يجري على كل من يدخل ذاك

المكان، فإن أعفيت منه يكون ذلك مكرمة من الجلاد، وأمراً يستحق أن تفرح لأجله.

وفي اليوم الخامس فتح العنصر الباب واقتادني إلى حمام يبدو أنه كان مخصصاً للعساكر، وأمرني بأن أستحم، وأعطاني «بيجاما» زرقاء اللون لأرتديها!

لم يكن ذلك طبيعياً في فرع أمني، بل لم يكن طبيعياً لو حدث في سجن مدني حتى.

ترى هل تمكّن والدي من التوصية بي بطريقة ما؟! لعله هو من أرسل البيجاما.. قلبتها بين يدي.. ثم شممتها.. كانت نظيفة لكنها لم تكن جديدة، وفيها رائحة غريبة لم أستطع معرفة مصدرها.

«بسرعة.. خلصينا» صرخ العسكري خارج الباب ليقطع خلوتي.. ارتديت البيجاما ومشيت أمامه في الممر الطويل الذي انفتحت عليه الزنزانات عائدة إلى منفردتي.. وتوقفت عندها، لكنه سحبني من تحت ذراعي وواصل المسير، حاولت إخباره أننا قد تجاوزنا زنزانتي، لكنه لم يجب، واكتفى بدفعي أمامه، أما أنا فتثاقلت خطواتي، وبدأت أدرك أني لن أعود إلى المنفردة أو أية منفردة أخرى، وعادت ذاكرة تلك الليلة من الفرع الآخر إلى جسدي بعد أن دفعت صورتها عن مخيلتي طويلاً، ولم أفاجأ كثيراً حين أدخلني العنصر إلى غرفة فيها تلفاز وخزانة وسرير يبدو أنه لشخص ذي رتبة عالية، فلم يكن من الأسرّة الحديدية التي يشيع استخدامها في تلك الأماكن، ولم تمضِ لحظات حتى دخل كهل ممتلئ الجسم قد تقدم به العمر إلى الغرفة يرتدي بيجاما رياضية.

لم يكن الموقف يحتاج مقدمات أو تفسيراً، لكنه كان وقحاً بما يكفي ليخبرني لماذا جلبني إلى غرفته.

لم أقاوم.. ولم أتوسل أو أهدد أو أناجي الله.. ولا أذكر أني بكيت حتى.. بل تركته ينهي ما أراد ثم يرسلني إلى منفردتي، دون أن يضطر لصفعي.

ليس اليأس هو ما جعلني ساكنة وقتها، بل يقيني أن لا شيء يمكن أن أفعله ويغير ما سيحدث، فقد جربت سابقاً كل ما استطعت، ولم أتمكن من إيقاف ما يحدث، فإن كان لا بد سيحصل فلن أجمعه مع الضرب على نفسي.

يخيل إلي أن كل من يتحدث عن شيء بعد حدوثه لا بد سيقع في أحد أمرين: إما المبالغة بإسباغ المعاني واستنطاق الذاكرة بما ليس فيها، أو تناسي تفاصيل وأحاسيس تصعب استعادتها، لذلك يكون صعباً وصف ما تحس به، وحتى الآن لا أستطيع التفكير فيما أحسست به آنذاك، أكان اليأس أم الاستسلام.. أم تفكيراً عقلانياً.. أم شيئاً آخر لم أعد أستطيع فهمه.. فللسجون عوالم تختلف عما خارجها، وما ينطبق عليها يصعب أن ينطبق على غيرها.

لكني أذكر جيداً أني عندما عدت إلى المنفردة وثنيت ركبتي إلى صدري أحتضنهما مع غياب الدفء، أدركت مصدر تلك الرائحة التي كنت أشمها في البيجاما، تلك كانت رائحة ألف فتاة غيري.. ألف وصلن هنا وتم اقتيادهن للاستحمام، ثم إعطاؤهن إياها ليرتدينها لذلك الضابط «صاحب المزاج» حتى يلهو بهن، وكنت قادرة على رؤية بعضهن يقاومن ويصرخن ويبكين ويتوسلن ويهددن، وأخريات ساكنات مثلي قد فقدن الأمل بقوتهن، وتركن الحيوان يقضي وطره، ثم عدن إلى الزنزانة واحتضنّ أنفسهن وشممن رائحة من سبقهن.

بدا كل ذلك حلقة متصلة لا نهاية لها من القهر، حلقة بدأت قبل أن أولد، وستستمر أجيالاً لاحقة حتى يحدث ما يكسرها، ويحرق تلك البيجاما، ويهدم الفرع، ويبني مكانه نصباً يمجد الحياة.. فهي النقيض الحقيقي لذلك المكان.

صباحاً سلمت البيجاما لتعود لعملها في ذلك الفرع، واستلمت أماناتي وتم نقلي إلى السجن المدني في حمص حيث قضيت ستة أيام، تمكنت فيها بفضل المال الذي أعطاني إياه والدي من شراء سرير لم أغادره إلا للطعام أو الحمام، وبدا لي واضحاً حينها الفرق بين المنظومتين الرئيسيتين لأماكن الاحتجاز في البلاد.

فالأولى هي السجون التي تتبع الدولة، وتحكمها حالة الفساد التي تحكم كل شيء في البلاد، فإذا كان لديك مال خارج السجن سيكون لديك مال في

السجن، وستتمكن من شراء حياة مرفهة ـنسبياًـ تملك فيها سريراً وملابسَ وطعاماً، ولا تحتاج فيها للعمل، أما إن كنت فقيراً فسيكون عليك العمل لدى من يملك المال لتكسب حقك في بطانية تبيت عليها، ولقمة تأكلها، وفوق الفقير والغني يكون السجان الذي يتقاضى أجره لقاء الخدمات الإضافية، كالموبايل والطعام الخاص وغض النظر.

ولن تجد في السجن قصصاً عن الضرب أو التعذيب، فأنت موجود فيه لتبقى داخل جدرانه، دون أن يتدخل بك السجان، ويمكنك أن تميز داخل السجون قوانينَ تنظم حياة السجناء، بين مسؤول وتابع، وشخص يؤمن الارتباط بين إدارة السجن والمساجين فيه.

أما المعتقلات فهي منظومة أخرى مختلفة، لا يهم فيها من كنت خارجها، غنياً أو فقيراً، متعلماً أو جاهلاً، لا يهم فيها اسمك أو حتى جنسك، فكل ذلك تتركه خارجها، وتدخلها «سورياً» مجرداً من كل شيء إلا اللحم الذي يكسو جسدك، وحق السجان فيه وفيك.

في المعتقل يمكن أن تموت، أو تخسر طرفاً.. يمكن أن يتم الاعتداء عليك، أو تركك للمرض ينهشك، يمكن أن يحدث أي شيء إلا أن تتم معاملتك كإنسان، أعني إنساناً حقاً، وليس نسخة النظام عن الإنسان الذي يولد لينصاع.

والحقيقة أن المعتقلات هي حجر الزاوية الذي يقوم عليه النظام حقاً وليس أي شيء آخر، فأنت تعيش عمرك كله تخشى دخولها، وتحذر أبناءك من فعل ما يستوجب ذلك، ولذلك يمكن أن تكون لصاً أو تاجر مخدرات أو قواداً أو عاهرة، كل ذلك يودي بك إلى السجن الذي لن يكون نهاية حياتك، أما تقرير صغير من أي عنصر أمن استفزه وجودك في الحياة، أو أي نشاط تمارسه يمكن أن يكون مرده سياسياً، فسيودي بك إلى الفروع الأمنية، وتلك نهاية المطاف بحق، فحتى إذا خرجت يوماً منها وتمكنت بمعجزة من النجاة بعقلك وروحك، سيكون عليك بقية عمرك أن تقبل تجنب الناس إياك كأنك تهمة تمشي على الأرض، خشية أن يوصلهم اتصالهم بك إلى ذلك المكان، لذلك يشيع أن

يوصي أب ابنه أن يفعل أي شيء في الدنيا إلا السياسة أو استفزاز النظام، فليس من ذلك شفاء، وليس له كفارة.

تم نقلي بعد أسبوع «استجمام» في سجن حمص إلى دمشق، وقبل أن ندخل المدينة تم تغطية عيوننا ـأنا وسبع فتيات نقلنا معاًـ ولم يُزَل الغطاء عن عيني حتى وجدت نفسي ـمع الفتياتـ أقف في غرفة يحرسها عسكريان، وفي زاويتها كميرا مراقبة.

كان أول ما خطر لي أننا هنا ليتم إعدامنا، لكن تلك الفكرة زالت سريعاً عندما طلب منا أن نخلع ثيابنا.

كنت قد اعتدت على خلع الحجاب والمعطف في كل فرع ندخله، لكن ذلك لم يكن كافياً هناك، فقد طلب منا أن نتعرى لنؤدي «حركات الأمان»، وهي أن تجلس القرفصاء مرتين وأنت عارٍ حتى يتأكدوا أنك لا تخفي شيئاً داخل تجويفات جسدك. وعلى الرغم ممّا مررت به سابقاً إلا أن ذلك الموقف كان أشد ما أحسست به من إهانة، فأن تقف أمام كَميرا وحارسين وتتعرى، وتؤدي تلك الحركات التي لا يمكن لك فعلها مع إخفاء أي شيء مما تقضي الفتاة عمرها كله تستره حتى عن والدتها، كان يكفي لأحس بأني حيوان في مسلخ يقلبني الجزار كيف يشاء، للتأكد من سلامة جسدي قبل الذبح.

سمح لنا بعدها بارتداء الجزء المسموح به من الملابس، أعني دون الحجاب أو المعطف، فتلك مما يكره هؤلاء رؤيته أكثر مما يكرهون مواجهة شخصية معارضة، ثم تم نقلي إلى زنزانة ضمت سبع فتيات كنتُ ثامنتهن.

كانت مساحة الزنزانة مقبولة نسبياً، أكبر بقليل مما اعتدت عليه في الفروع الأمنية الأخرى، لكنها كانت فارغة من كل شيء إلا «طاسة» صغيرة، وعلمت أني في فرع الـ ٢١٥، أو فرع الموت البطيء كما يشيع بين المعتقلين تسميته.

كان العنصر الذي اقتادني إلى الزنزانة قد أخبرني أن الضحك والكلام وأي شيء باستثناء الجلوس والصمت ممنوع هناك، ولا أعتقد أنه كان يجب أن

يكلف نفسه عناء التحذير، فكل ما في المكان كان يدفعك للبكاء.. للانهيار.. وليس إلى الضحك!

مضى عليّ بعض الوقت الذي كنت أنتظر فيه أن يفتح باب الزنزانة لأدخل الحمام، وعندما مضى نصف النهار ولم يفتح أحد الباب كسرت صمت الزنزانة وسألت رفيقاتي فيها عن موعد الخروج إلى الخلاء في المعتقل، لكن لم تجبني أيٌّ منهن، كررت سؤالي مرة أخرى لتجيبني معتقلة يبدو على لهجتها أنها من درعا: «بلالك ياها»!

لم أكن وقتها في وضع يسمح لي بالتفكير كثيراً في تحذيرها، وطرقت الباب منادية السجان الذي أخبرته بحاجتي، ففتح الباب بعد أن ردد عدداً من الشتائم، ثم سأل إن كان أحد غيري يريد الخروج، لم يقم أحد، ومضيت إلى الحمام توجهني ضربات العصي التي انهالت على رأسي وظهري وجسدي من سجان رافقني إلى الحمام حتى دخلته، بعد أن صرخ أنه سيعد حتى الثلاثين ثم يخرجني، وعند انتهائه من العد فتح الباب وسحبني من شعري قبل أن يتسنى لي لملمة ثيابي، وعدت إلى الزنزانة بنفس الطريقة التي غادرت بها، وعرفت «بالتجربة» معنى تحذير زميلتي «بلالك ياها».. ثم عرفت لاحقاً لماذا يسمونه فرع الموت البطيء.

ففي ذاك الفرع لم يكن هناك موعد لطعام أو شراب أو حمام، ويكون طبيعياً جداً أن تمر أربعة أيام دون أن يفتح الباب أبداً، حتى من أجل الماء، وكان على من تحس بالعطش الشديد الذي لا تطيق معه صبراً أن تطلب الخروج، فتقضي وقتها في الحمام بشرب المياه بدل إخراجها، متحملة لأجل ذلك العصي طوال طريق الذهاب والعودة.

أما عندما يفتح الباب من أجل الطعام، فيتم رميه على أرض الغرفة أمامنا لنأكله منها، ويكون طبيعياً جداً أن يفتح السجان سحاب سرواله ويتبول على طعامنا قبل أن يسكبه لنا، ويكون طبيعياً أيضاً أن نأكل جميعنا من ذلك الطعام.

حينها لا يكون صراعك بين إرادة البقاء والاستسلام للموت، فتلك رفاهية لا تملكها.. صراعك هناك هو بين الحفاظ على كرامتك واعتدادك بشيء مما بقيت تعرفه داخلك كإنسان، وبين قدرتك على مغالبة الجوع، وأكاد أجزم أن ذاك المكان مصمم خصيصاً ليسلبك آخر قدر من إنسانيتك، ففيه لا تعرف الليل من النهار، ولا تقادم الأيام، ولا تعرف فيم أنت موجود فيه؟ ولماذا؟ كما لا تعرف إن كنت ستخرج، ولا يبقى لك من كيانك إلا الذاكرة.. فحتى الأحلام تأتيك مشوهة مضطربة مرعبة، ولا يبقى لك إلا بعض الذكريات التي تستدعيها بالكاد، فقط لتتذكر أنك إنسان، وأنك يوماً ما كنت تمتلك حياة وآمالاً، فتعود إلى تلك الآمال تتمثلها، لأنك غير قادر على التفكير بغيرها حينذاك.

أما الطاسة الصغيرة التي تواجدت في الغرفة، فقد اكتشفت أنها هناك لتكمل المهمة التي صمم ذاك المكان لأجلها، حتى إذا أرادت إحدى الفتيات قضاء حاجة لا تود دفع ثمنها جلدات تأكل جسدها، فيمكنها أن تقضيها فيها، ثم يمكنها لاحقاً أن تشرب ما أخرجته من جسدها عندما يحاصرها العطش وتخشى دفع فاتورته أيضاً.. وهناك رسمت حداً لنفسي.

مهما يحصل لن أشرب بولي، حتى لو قتلت وأنا في الطريق إلى الحمام.. لن أشرب بولي.

لعل ذلك من بقايا ما يعرفك كإنسان، أن ترسم لنفسك حداً ما ترفض تجاوزه مهما حدث، تختار ذلك ضمنياً لتحس أنك إنسان يمتلك معاييرَ لا يقبل أن ينزل عنها، على الرغم من قدرته على ذلك، ولذلك كنت أكثر من في المهجع خروجاً إلى الحمام، لأشرب الماء، وفي مرتين من أصل ستٍّ خرجت فيهن كان طريقي يمر فوق جثث معتقلين عراة فرشت بها أرضية الممر بعد أن فارقوا الحياة.

أذكر عند عودتي للمرة الأولى وقد دست فوقها بكائي الشديد، كنت أحس أن قلبي قد تفطر على شباب انتهوا فرشاً لممر بين الزنزانات والحمام، لكني حسدتهم أيضاً.

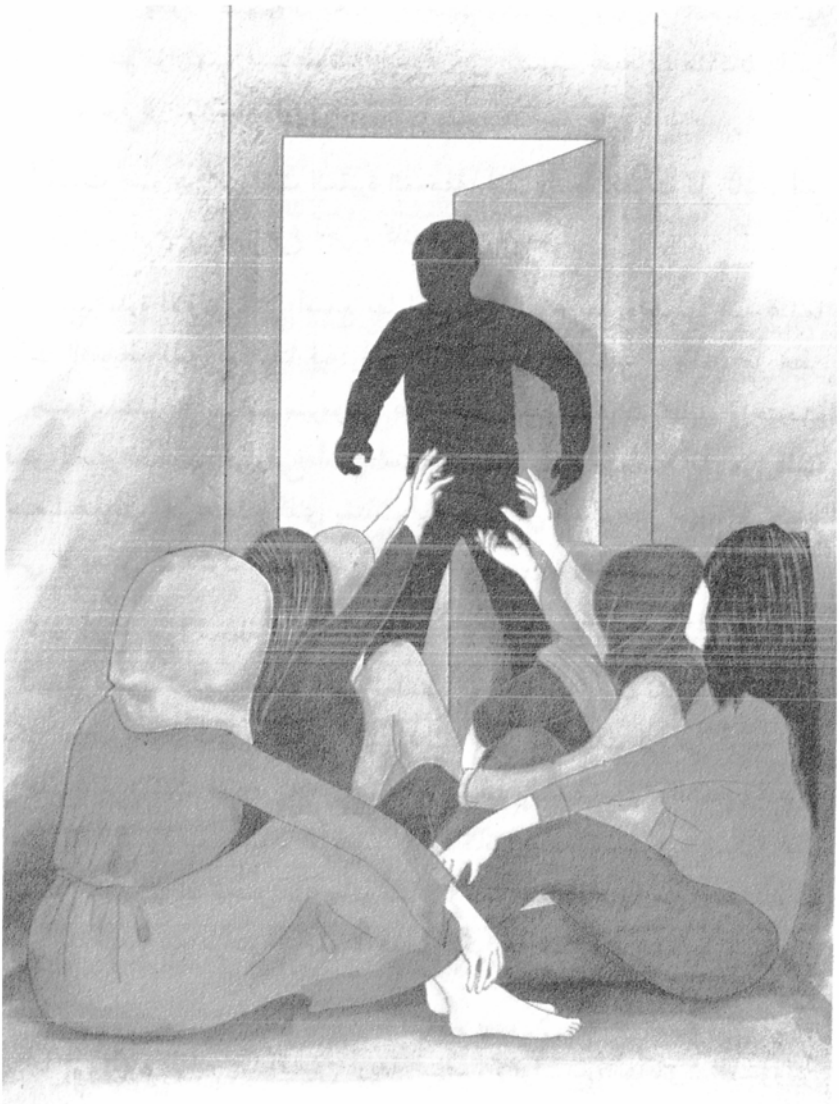

لقد انتهى عذابهم.. ولن يكون عليهم مرة أخرى أن يغالبوا عطشاً أو جوعاً أو حاجة، لن يكون عليهم أن يحنوا رؤوسهم وهم يهرولون إلى الحمام خشية عصا تفقدهم توازنهم، فيسقطون، وينالون من الضرب أضعاف ما كان يمكن لهم أن ينالوه لو لم يسقطوا.

أمضيت أسبوعين في تلك المقبرة المخيفة، أشم رائحة الموت كل ثانية، قبل أن يأتي قرار ترحيلي إلى فرع آخر.. كان فرع فلسطين!

كانت المرة الأولى التي أسمع بها اسم ذاك الفرع بعد وصولي إليه عندما سألت الضابط الذي استقبلنا فيه: أين أنا؟ ليخبرني «فلسطين»، وكان ما خطر لي حينها ـ لسذاجتي ـ أنهم سيرمونني على خط الجبهة لأموت هناك، واحتجت دقائق لأستوعب أني في فرع أمني اسمه «فلسطين»، واحتجت أقل من ذلك لأستعيد معرفتي عن النظام الذي يمتلك أبرد جبهة في العالم هي جبهة فلسطين، والتي لا يمكن أن تكون مكاناً يُخرِج إليه معتقلين يريد إهلاكهم.

كان الفرع أسوأ محطة في رحلة النجاة تلك، وكسابقه لم يكن فيه أية أسئلة أو تحقيق فعلي، تعذيب فقط، لكني تعلمت أن التعذيب ـ وإن تشابهت أساليبه ـ يمكن له أن يكون مختلفاً بمدى تأثيره فيك، فكل ما حدث لي في أربعة أيام في ذلك الفرع كنت قد جربته من قبل، لكن ليس بالشدة نفسها، الشبح والحرق والكهرباء والدولاب وبساط الريح... كلها كانت تنفّذ بمستوى «إتقان» عالٍ لا يمكن معه إلا أن تحس بروحك تنتزع رغماً عنك وعنها من جسدك، ثم تحس بها تدفع فيه مرات متتالية، لا ينقص تكرارها شيئاً من شدة ما تسبّبه من ألمٍ.

أما في اليوم الرابع فقد قيدني أربعة عناصر كانوا ـ مع المحقق ـ المسؤولين عن تعذيبي، في الغرفة نفسها التي كانوا «يحققون» معي فيها، ثم تناوبوا الاعتداء عليّ أيضاً بطريقة أسوأ وأكثر إيلاماً من أي فرع آخر.. بطريقة وحشية لا يمكن أن تصدر إلا عمّن خبر الأجساد وكيف يؤذيها.

لا أذكر تحديداً متى غبت عن الوعي، لكني استيقظت في المستشفى مقيدة إلى سرير، استعدت فيه شيئاً ممّا قاله أحد العناصر الذي شدني من شعري بعد أن انتهى، حين قال لي: «هذا الشرف اللي بيقولوا السنّيات عندن ياه.. أخدناه».

لم يكن يختلف قوله كثيراً عن قول عناصر الفرع الأول، وبدا لي واضحاً أن ما يفعلونه لم يكن اجتهاداً شخصياً، بل تعبيراً عن حقيقة طائفية لصراعهم معنا.. وإلا لما كان لشتائمهم ذاك التشابه، وما كان لأفعالهم أن تصدر عن الدافع نفسه.

أمضيت في مستشفى تشرين العسكري عدة أيام كانت كافية لأدرك أنه لا يختلف كثيراً عن أي فرع آخر إلا بما يرتديه العناصر، فيكون طبيعياً أن يقول لك طبيب بعد أن يقرأ ملفك الطبي: «خرجك.. هاد اللي بيصير باللي بيعبد رب غير بشار الأسد»، ويكون طبيعياً أن تحرك ممرضة الحقنة داخل ذراعك لتؤلمك، ثم إذا تأوهت تصرخ بك: «لو كانت الشغلة عندي كنت دبحتك ما عالجتك».

لكن ما لن يكون طبيعياً أو مفسراً هو كيف يمكن لشخص أن يكون من الأوائل في «البكالوريا» بمجموع عالٍ، ثم يدخل كلية الطب ويقسم فيها على علاج الناس، ثم يتخرج بعد أعوام «وحشاً» مهمته التعذيب وزراعة الآلام بدل تخفيفها!

خرجت من المستشفى إلى مخفر المزة ثم إلى سجن عدرا الذي قضيت فيه أربعين يوماً عرفت فيهن الكثير من الفتيات اللواتي كانت آثار التعذيب على أجسادهن وما أخفت أرواحهن مشابهاً لحالتي، لكني على الرغم من ذلك لم أبخ بشيء ممّا حدث معي، كما لم يبحن.. فالحيطان.. كل الحيطان لها آذان.

عُرِضت على قاضٍ بعدها، أنكرت أمامه التهم الموجودة في ملفي والتي تحمل بصمتي إقراراً لها، في نفس الورقة التي مهرتها بيضاء في بانياس، حيث اختار لي المحقق تهمة «العمل على تغيير دستور البلاد»، وأخبرته بأني بصمت «تحت الضغط»، كما أخبرني المحامي الذي جلبه والدي إلي في نظارة محكمة طرطوس.

وكان حالي الذي لم تستطع أربعون يوماً في سجن عدرا تحسينه كافياً لتصديق ادعائي، فأخلى سبيلي.

خرجت بعدها بيوم من سجن عدرا لأجد امرأة تنتظرني يبدو أن والدي قد رتب معها، ورفضتُ على الرغم من إصرارها أن أبيت ليلة أخرى في دمشق، وطلبت أن توصلني إلى الكراجات حيث أخذت أول حافلة إلى بانياس، التي انتظرني والدي عند مدخلها، لألتحف حضنه الذي كان أكثر ما اشتقت له طوال اعتقالي.

قضينا أسبوعاً في بانياس، ثم غادرنا إلى الأردن أخيراً لألتحق بأخواتي، وكان آخر ما خطر لي عندما ألقيت النظرة الأخيرة على البلاد عند معبر نصيب أن سوريا قد خذلتني.

جئتها طفلة أحمل أحلامي بأن أعيش في وطني الذي طالما نسبت إليه، ثم بعد أقل من عقد من الزمان فعلت بي كل ذلك، دون أن أجد من يدفع عني.. أو يحميني.

غادرتها وقد أقسمتُ ألا أعود إليها ما حييت.. ومهما حدث.

لن أعود ما دام هناك من أولئك «العلويين» عنصر واحد يحمل سلاحاً.

أنا لست طائفية.. لكنهم كذلك.. لقد تعلمت بأبشع طريقة ممكنة أنهم كذلك.. وأني مهما تحاملت على نفسي فلن أطيق العيش في مكان أسمع فيه لكنتهم المميزة، والتي كان يتحدث بها كل محقق وعنصر تفنّن بتعذيبي والاعتداء علي من بانياس إلى دمشق.

بالتأكيد ليسوا جميعاً طائفيين.. لكن من يحملون السلاح منهم ويشغلون المناصب في النظام طائفيون.. وأنا لن أطيق العيش بينهم مرة أخرى.

كنت قد جاوزت الشهرين تقريباً في المعتقل عندما خرجت منه، ثم احتجت عامين من العلاج النفسي لأتمكن من استعادة تقبلي للحياة مرة أخرى، لأدفن حقدي الذي كان نصيبه الأكبر لعائلتي التي تركتني لفروع المخابرات تأكلني.

أعلم أنهم لم يكونوا يملكون أن يخرجوني من هناك، لكن عندما يتم تربيتنا طوال حياتنا لنكون «إناثاً» نتبع الرجال، فسيكون عليهم أن يلتزموا بجزئهم من ذاك العقد، أن يحمونا، وإلا ما هي تلك الدرجة التي يحفظونها عن ظهر غيب عندما يتحدثون عن الفرق بين الرجال والنساء إن لم تكن الحماية؟

فمن يريد أن ينعم بالقوامة.. عليه تحمل مغارمها.

ولأن للحياة طريقتها في السخرية من آلامنا وأفكارنا، دفعتني مفارقاتها لأتزوج قريباً لي.. وأصبح أماً لفتاتين جميلتين.. كررت مع ولادة كل منهما قسمي بأني لن أدخل سوريا مرة أخرى.. وأني لن أجعلهما ضحايا لنظام طائفي، يتفنن بالتنكيل بشعبه.

القصة الرابعة

أنا مو بنان

لا يدرك كثرٌ معنى أن تنشأ في مدينة يعيش أبناؤها ضمن مجتمعين، لا يلتقيان حتى يفترقا، ومهما بدا للزائر وداعة تلك المدينة الساحلية (جبلة)، وبساطة الحياة فيها وهدوءُها، فإنها كانت تعيش فعلياً جمراً تحت الرماد، يولد فيها الإنسان يحمل اصطفافات أهله وتحيزاتهم؛ فعلويّ تضع نصف عائلته رتباً فوق أكتافهم، وتنتظره قبل ولادته وظيفته في الجيش أو الأمن أو مؤسسات الدولة يتبوأ منها حيث شاء، وسنّي يبذل الجهد مضاعفاً ليأخذ أقل مما يستحق، ويقضي عمره انتظاراً أن يتم الزمان دورته، فينقلب المستضعفون أقوياء، وتستعاد الحقوق التي تأخرت مع ولادتي مطلع التسعينيات عقدين من الزمن، هي المدة التي حكم بها البعث البلاد وأهلها، فأحال أعزة قومها أذلة، ونسج نظامه بطائفته يحكم بها، وتستقوي به، وسيكون علي أن أعيش عقدين آخرين جمرة أخرى يذكيها كل شيء في تلك المدينة، وتنتظرها الغربة التي اعتاد عليها أبناء هذا الشطر من المجتمع، فقد أدركوا منذ زمن أن لكل منهم مرحلة يتغربون فيها ليجمعوا ثمن منزل ومصدر رزق يأكلون منه إن هم أرادوا العيش في بلادهم، وتربية عائلة فيها سيكون على أبنائها أن يتغربوا أيضاً.

كنت أنا الأخت الكبرى لثلاثة إخوة «صبيان» أصغر مني، وهو ما كان يعني استئثاري بدلال والدي. ومضت حياتنا رتيبة أنهيت فيها دراسة «البكالوريا»، ودخلت جامعة تشرين في اللاذقية ضمن كلية الآداب فرع التاريخ، ريثما يأتي

نصيبي مع الأيام، فأتزوج من مغترب أو مقيم، وأكمل حياتي كما يفعل كل أبناء البلاد، ببناء عائلة وتنشئة الأولاد كما أنشأنا آباؤنا من قبل، ننتظر الزمان ليدور.

وعلى الرغم من انتظارنا ذاك، لم يخطر لي يوماً أن تحدث ثورة بأي شكل في البلاد، وربما كان لتنشئتي في جبلة دور في ذلك، فمن يرى سطوة المخابرات هناك، ومجتمعاً كاملاً حاضناً لها يرفدها بالعناصر المدربين منذ تنشئتهم ليكونوا جزءاً من منظومة تحترف قتل الأحلام والآمال قبل ولادتها، يعلم أن لا أمل بحراك يتفق عليه شخصان.. كيف يفعلان وبينهما دائماً آذان للأمن وأعين.. وعشرات الأسلحة المذخّرة أبداً، المنتظرة حراكاً كهذا لتقتله في مهده.

وعلى الرغم من أني سمعت كغيري عن أحداث الثمانينيات الشهيرة، التي كان لها نصيب من أبناء مدينتي كما كان لها نصيب من كل مدن البلاد، إلا أن تلك القصة لم تكن دافعاً للتحرك، كما لم تكن دافعاً للسكون، وأظن أني مثل جل أبناء جيلي لم نكن نبالي كثيراً بالقصة، فالعقل يخدعك حين تسمع أمراً لا تملك السعي إلى فعل فيه بإحساس اللامبالاة، حتى يريحك من مغارم السعي إلى مستحيل، خاصة وأنت تعلم أن تلك القصة لا تقتصر بروايتها على فشل الحراك الواسع لجماعة الإخوان المسلمين، بل تجاوزها إلى مئات بل آلاف القصص من العذاب المقيم الدائم لعوائل فقدت أبناءها معتقلين، دون أن تسمع عنهم خبراً حتى تاريخ رواية القصة، سواء رويت لجيلي، أم لجيل يسبقني، أو حتى ستروى مستقبلاً لجيل يتلوني.. فالنتيجة واحدة.. اختفى الشباب ولا أحد يعرف لهم سبيلاً.

لكن استجابتي لتلك القصة تغيرت كلياً عندما بدأت تفاصيلها تستعاد مع انطلاق الربيع العربي من تونس أواخر العام ٢٠١٠، وأحسب أنها تغيرت كذلك عند جل أبناء جيلي الذين بدؤوا يتفاعلون للمرة الأولى مع حجم الظلم الذي ذاقه الناس إبان تلك الأحداث، وبدأ جمر كل ما شاهدوه طوال حياتهم من تمييز ينفض عنه الرماد، ويستشيط شرراً مؤذناً بقرب انفجار لم يطل أمده كثيراً، فبعد انطلاق ثورتنا من درعا في ١٨ آذار/مارس عام ٢٠١١، إبان انتفاضة أهل حوران بعد قيام فرع الأمن السياسي في درعا باعتقال أطفالٍ وتعذيبهم، كان

طبيعياً أن تكون المدينة التي ينتمي لها «عاطف نجيب» رئيس ذاك الفرع من أوائل المدن التي تلبي نداء الفزعة لحوران، ولم تكن تلبيه نصرة لغيرها بقدر ما كانت نصرة لرغبة دفينة بقيت طويلاً حبيسة القلوب والعقول، فخرجت أولى مظاهرات المدينة بعد أسبوع من مظاهرة درعا الأولى، وكان قوام المظاهرة الغالب بالطبع هم هذا الجزء من المجتمع، وكانت الوجهة بالطبع أحياء الجزء الآخر منه، مروراً أمام بيت عاطف نجيب نفسه، كأنها إعلان عن إتمام الزمن دورته، وعن قرب انقلاب الموازين التي حكمت بها مصائر الناس عقوداً في سوريا.

ولم يكن مستغرباً بالنسبة إلي أن يكون والدي وإخوتي الثلاثة من المشاركين في تلك المظاهرة، فقد نشأت أشاهده يشتم حافظاً ثم بشار الأسد كلما تجلى علينا أحدهما في شاشة التلفاز، ولطالما فعلا، ففي بلاد كبلادنا كانت صورة «القائد» فرضاً عليك في كل مكان تذهب إليه، في المدارس والجامعات، وفي الطرقات والميادين، على السيارات وفوق المؤسسات، بل حتى المساجد التي يبدو أنهم لم يستطيعوا رفع صوره عليها، وجدوا له سبيلاً إليها حين أطلقوا على دورات تحفيظ القرآن في طول البلاد وعرضها اسم «معاهد الأسد» ليكتب اسمه على واجهات بيوت الله فيها، وحين تغادر كل ذلك إلى مساحتك الخاصة في منزلك، يطالعك التلفاز والصحيفة بصورته دائماً، حتى يصبح شكل البلاد دون هذا الحاكم أمراً يصعب تخيله، بل لتصبح فكرة البلاد دونه ـ وإن كانت موجودة ـ ضرباً من الأحلام التي نتخيلها لتبقى خيالاً، فكل ما عداها يخبرك أنها خيال لا يمكن أن يصبح حقيقة.

لكنها تغيرت ذلك اليوم.

ووجد أبناء جبلة ـ الذين بدوا أنهم خرجوا في المظاهرة عن بكرة أبيهم ـ أحلامهم تتمثل أمامهم، أما الجزء الآخر من المجتمع فبدا وكأن الشلل قد ضربه، وكان واضحاً أن المتنافخين برتبهم وأسماء أقاربهم في أجهزة المخابرات ومفاصل الدولة في الأمس قد أخذوا خطوة إلى الخلف، وظهر الفزع في وجوههم جلياً لأصغر طفل منا، وانكفأت المخابرات التي لم تكن لتحتاج مبانيَ في جبلة حين تكون أحياء بأكملها فروعاً أمنية، وتحركت الشرطة المدنية في

محاولة لاستيعاب ما يحدث.. ولا أعتقد أنها وحدها كانت تريد أن تستوعب، فحتى أكثر المتفائلين بالثورة قبل انطلاقتها لم يكن ليخطر لهم أن الساحل يمكن أن يتحرك، حتى وهم يعرفون النار تحت الرماد فيه، لكنهم لم يكونوا ليصدقوا أن أحداً سيجرؤ على ذلك.. إلا أنه تحرك.. وانتفضت بانياس وجبلة واللاذقية وغيرها لتكون من أوائل المدن الثائرة.. كما كانت من أوائل المدن التي تم قمعها، حين قرر النظام أن هذه المنطقة يجب أن تحسم الأمور فيها بسرعة، ليتسنى له التفكير بغيرها من المناطق التي لا يملك فيها مجتمعاً حاضناً من طائفته، فالنظام في سوريا له طائفة مهما كانت هذه الحقيقة غير مستساغة للحالمين بالمواطنة المتجاوزة للمذاهب والطوائف في البلاد.

حاولت الشرطة في البداية تطويق المظاهرات حتى لا تتحرك في المدينة، ونفذت عدداً من الاعتقالات كانت أقل من أن تحتاج عناء التوثيق، وبدا أن الأمور تخرج عن سيطرة النظام فعلياً، حتى قرر بعد شهر واحد تسليم المدينة حرفياً للشبيحة، الذين استباحوها أواخر نيسان/أبريل لإنهاء حراكها، وبدأ منظر القناصات على سطوح المباني العالية، والمجموعات المسلحة برشاشاتها الخفيفة والمتوسطة المنتشرة في الشوارع، اعتيادياً في جبلة، كما بات اعتيادياً أن تمر على حاجزين أو أكثر أثناء تنقلك في المدينة من أي نقطة إلى أي نقطة، وتحولت المظاهرات من شكلها الحاشد بعد أسبوع فقط من انطلاق الثورة إلى المظاهرات الطيارة التي كانت تخرج ليتم تصويرها فقط، وليبقى للمدينة اسم في نقاط التظاهر اليومية التي كانت تغص بها الأخبار، كما كانت تغص بأخبار الاعتقالات وإطلاق الرصاص والشهداء، بل وأخبار القصف في اللاذقية، الذي سمح لي دوامي في الجامعة بسماع أصواته حين كانت القذائف تنهال على حي الرمل الجنوبي من البوارج البحرية أواسط العام ٢٠١١ في شهر رمضان.

كانت جبلة قد انتقلت إلى المظاهرات الطيارة قبل أن يتسنى لي المشاركة في أي منها، ومع صعوبة المشاركة في المظاهرات بعد أن قامت أجهزة المخابرات بتوزيع السلاح على عدد من أهالي «المجتمع الآخر»، وأطلقت عليهم اسم «اللجان الشعبية» التي كانت تنتشر في الأزقة، تنتظر هتاف الحرية لتطلق الرصاص عليه، اكتفيت بدوري في تحضير الأعلام واللافتات للمتظاهرين،

وكانت أعظم فرحة لي عندما شاهدت الأقنعة التي خِطتها تحمل العلم الأحمر -وذلك قبل أن يصبح للثورة علمها الخاص- وهي تغطي وجوه المتظاهرين، فتحميهم من المخبرين الذين كانوا يمحصون المقاطع التي توثق المظاهرات، ويلاحقون المتظاهرين في الأزقة لمعرفة أسمائهم فيضمّنونها تقاريرَهم الأمنية، والتي كانت قاصرة مهما كثرت عن الإحاطة بهم جميعاً، وإلا لشملت كل أبناء جبلة من «هذا المجتمع»، لكنها بالتأكيد ضمت اسم والدي الذي اعتقل أواسط العام ٢٠١١ عدة ساعات، قبل أن تتمكن الوساطات التي حركناها من إخراجه.

مضى العام ٢٠١١ على تلك الحال، مظاهرات طيارة في المدينة تغالب القبضة الأمنية ليجد هتاف الحرية طريقه إليها، وشباب باتوا يغادرونها تدريجياً إلى الجبل الذي أوجد فيه أهله مساحات خارج سطوة أجهزة الأمن، ومجتمع كامل يعيش على حلم إسقاط النظام، الذي بدا أقرب من أي وقت مضى، عندما بدأت الانشقاقات تأكل جَيشه ومؤسساته، وعندما بدأ المنشقون ينظمون أنفسهم في مجموعات عسكرية انتقلت مع بدايات العام ٢٠١٢ من حماية المظاهرات في الأرياف البعيدة إلى خوض مواجهات مع الجيش وطرده من عدد من المناطق التي باتت أشبه بالمحررة، لا يدخلها النظام إلا ضمن حملات أمنية تجمع عدداً من المطلوبين ثم تغادرها خشية هجوم عليها، وانتظم عمل المجموعات تلك في تشكيلات أعلنت أهدافها بإسقاط النظام.

أما أنا فتفرغت مع بدايات العام ٢٠١٢ لمساعدة أخي ذي الـ ١٧ عاماً في الاختفاء بعيداً عن الأجهزة الأمنية التي بدأت تلاحقه على خلفية تقارير أمنية وشت بنشاطه في تصوير المظاهرات واعتداءات الأمن على الأهالي، وبات عليه أن يتنقل بين منازل أقربائنا من جبلة إلى اللاذقية، حتى استقرت بنا الحال في منزل آمن في اللاذقية بقينا فيه عدة أشهر رافقته فيهن، لأتأكد من أن طيشه لن يغالبه فيخرج لتغطية مظاهرة أو ما شابه، ولم أتركه حتى أصابت جدتي التي تقطن اللاذقية وعكة صحية بعد عام تماماً من انطلاق الثورة، اضطررت معها أن أؤمنه عند أقربائنا، وأنتقل للعيش مع جدتي التي خصصت لي غرفة في منزلها، وخصصت لها وقتي كله ممرضة أسهر على راحتها، ولم أتركها حتى مطلع حزيران/يونيو، عندما ودعتها لأبدأ التحضير لامتحانات الفصل الثاني من عامي

الثالث في الجامعة، بعد أن وعدتها أن غيابي لن يطول أكثر من أسبوعين هي مدة الامتحان، وتركت عندها «بيجامتي» تأكيداً على عودتي، بعد أن اعتادت وجودي واعتدت صحبتها.

كنت حينها قد حضرت جيداً للمواد مستغلة فترة إقامتي معها، ولم أجد صعوبة كبيرة في النجاح فيها واحدة تلو الأخرى حتى وصلت إلى المادة الرابعة قبل ثلاثة أيام من موعد آخر موادي، لأجد عناصرَ من فرع أمن الدولة ينتظرونني في حرم الجامعة، لأرافقهم إلى الفرع من أجل «سؤال وجواب».

لم يستغرق الطريق من الجامعة إلى الفرع أكثر من أربع دقائق، بدت لي دهراً بطوله، وكانت كافية لأفكر بالتهمة التي يستدعونني من أجلها، كنت واثقة أنهم لا يستدعونني لأي أمر فعلته حقاً، أعني أنهم لا يستدعونني من أجل خياطة أعلام الثورة أو ترتيب لافتات وما شابه، فلم يتم اعتقال أي من الأشخاص الذين يعرفون بنشاطي ذاك، كما أني كنت محتاطة جداً أثناءه، لذلك قدرت أن المسألة لا تعدو تقريراً أمنياً عادياً، أو للسؤال عن أخي ومكان اختفائه، وهو ما يعني أن الوساطات التي سيحركها أهلي ستكون كفيلة بإخراجي.

سلمت عند الأمانات حقيبتي وبطاقة هويتي كما سلم العنصر المرافق «جوالي» الذي كان قد أخذه مني سابقاً، وما إن نظر المسؤول عن استلام أماناتي إلى اسمي في البطاقة حتى قال بفخر: «والله وقعتي وما حدا سمّى عليكي!».

لم ألتفت كثيراً لقوله الذي ظننته جزءاً من ضغط نفسي، لكن ومع تواصل دخولي إلى غرف ومكاتب في الفرع، وتواتر الكلمة نفسها في كل منها: «والله وقعتي»، بدأ الخوف يتسرب إلى عقلي، وبدأت أشك أن الأمر الذي يستدعونني من أجله هو تقرير أمني عادي، ثم عندما وصلت أخيراً إلى مكتب قدم لي ضابط فيه نفسه بأنه قريب زوجة جدي «العلوية» التي تزوجها مؤخراً، وأعرب عن خيبة أمله فيّ بعد أن «سولت لي نفسي فعل ما فعلت»، تأكدت أن تهمتي كبيرة، وبدأ دفء الاطمئنان يغادر قلبي الذي تحول خفقانه ارتجافاً وأنا أتساءل عن مصيري.

تركني الضابط في المكتب لحيرتي التي تعاظمت حتى استحالت خوفاً، واستسلمت أخيراً للبكاء عندما وصلت إلى مسمعي النغمة التي خصصتها لأمي على «موبايلي» من غرفة الأمانات القريبة: «أمي.. ثم أمي لحد آخر يوم في عمري..»، وتحول بكائي نواحاً مع تكرار الأغنية مراراً، رجوتهم في كل منها أن يسمحوا لي بالرد عليها، لكنهم رفضوا.: حتى اختفى صوت الأغنية نهائياً بعد فترة عرفت فيها أن شحن جوالي قد نفد.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءً عندما قام العناصر بتقييدي وتغطية عيني ثم اقتيادي عبر درج إلى مكتب في الطابق الثاني من الفرع رُفع عن عيني فيه الغطاء، لأجد نفسي أمام ضابط استقبلني بما يعتاد عليه المعتقل من كلمات نابية في تلك الفروع الأمنية، قبل أن يبدأ مناداتي «بنان الحسن»! لم أستوعب الأمر في البداية، لكن مع تكراره الاسم فهمت ما يرمي إليه.

كانت بنان الحسن اسماً حركياً لناشطة تخرج بمداخلات تلفزيونية على القنوات العربية التي تغطي أحداث الثورة، شأنها شأن هادي العبد الله وغيرهما من الناشطين الذين بدؤوا يكتسبون ثقة الناس بنقلهم ما يحدث، في ظل التعتيم الإعلامي الذي يحاول النظام فرضه على البلاد.

أنا؟! «بنان الحسن»!، كان الضابط ماضياً في شتائمه ووعيده وهو يكرر مناداتي بالاسم.. وكلما حاولت إقناعه بأن يتوقف عن الشتائم ويحترم أنه يخاطب فتاة وطالبة جامعية.. لأتمكن من محادثته، ازدادت شتائمه قذارة، فقررت أن علي نفي التهمة حتى لو عنى ذلك تجاوز حدي كمعتقلة، فانفجرت صراخاً: «أنا مو بنان.. انتوا مخربطين».

ـ «كلكن هيك بتحكوا بالأول».

ـ «أنا والله مو بنان..».

«ومعنا الآن من اللاذقية بنان الحسن.. بنان.. لو تحدثينا عما يحدث في الحفة..».

تناهى الصوت من التلفاز الذي كان الضابط قد فتحه على قناة الجزيرة إلينا، وتنفست الصعداء فرحاً ببراءتي من التهمة التي جاءت دونما عناء، وقفزت

من مكاني أشير إلى الشاشة وأتلعثم محاولة إخباره أن يصغي إلى التلفاز، وحين فعل وقرأ الاسم «بنان الحسن».. انتفض من كرسيه وبدأ يردد أننا شبكة.. وأن هذه الألاعيب لن تمر عليه.

كان جسدي كله يرتجف وأنا أردد: «أنا مو بنان.. والله مو بنان».

وحتى عندما نقلني إلى غرفة أخرى ومحقق آخر لم أتوقف عن ترديد «أنا مو بنان» قبل أن يتسنى له أن يسألني أي سؤال.

كان عقلي قد شُلَّ حرفياً وأنا أشاهد المحقق يرفض الدليل الماثل أمامه على التلفاز، ويصر أنني أنا «بنان الحسن»، ولم أعرف ما الذي يمكن لي فعله فيثبت براءتي أكثر مما حدث؟!

كرر المحقق الآخر قول سابقه: «إنتو كلكن بتقولوا هيك وبعدين تطلعو عاملين ومسوين».

ومضى بعض الوقت في سجال لا طائل منه كنت أكرر فيه «أنا مو بنان»، بينما أصر «إنتي بنان»، وعندما بدا أن الحديث لا يتحرك إلى أي نقطة أخبرني المحقق أنهم توصلوا إلى هويتي بعد التحقيق مع أخي، وأن الصراخ الذي سمعته عندما دخلت لشاب يتلوى تحت الضرب كان صراخه.

لم أحتج التفكير في رد فعلي.. ودون تردد أخبرته: «أنا بنان الحسن.. أنا مين ما بدكن.. بس طلعو أخي».

كنت أعرف حجم التهم التي يطلبونه بها، وأعلم تماماً أنهم أمضوا مدة يبحثون عنه، فبالنسبة إلى نظام كان يكرر منذ اليوم الأول أن لا شيء يحدث في البلاد لدرجة قالت فيها مذيعة التلفزيون الرسمي عن مشاهد لمظاهرة في دمشق إن «الناس خرجوا يشكرون الله على نعمة المطر»، يكون أي جهد إعلامي يوثق خروج مظاهرات هو أكثر ما يخيفه، وليست مبالغة أبداً أن النظام كان يصرف من الجهود لملاحقة الإعلاميين أكثر بكثير مما يفعل لملاحقة حملة السلاح، لذلك كله لم أبالِ أي مصير ينتظرني، وبات هدفي أن يتم الإفراج عن أخي، خاصة بعد أن سمعت ذاك الصراخ، وارتسمت أمامي صورته معلقاً بين يدي ضباط نشأنا نسمع قسوة قلوبهم، وإلى أي حد يمكن أن يصلوا أذيةً لمعتقل.

ابتسم المحقق ابتسامة المنتصر بعد «اعترافي»، وبدأ يتحدث بهدوء عن اتفاق يريد عقده معي، أقوم فيه بظهور تلفزيوني بسيط أعترف فيه بأني بنان الحسن، وأن كل تلك المداخلات التي قمت بها على قنوات التلفزة كانت جزءاً من مؤامرة أقوم فيها بتزييف الحقائق لقاء مبالغ مالية. ولم يحتج المحقق كثير جهد لإقناعي بالموافقة، فقد كان همي أن يقوموا بالإفراج عن أخي، وذلك كان الجزء الآخر من الاتفاق.

طالبت المحقق بأن يسمح لي برؤية أخي، لكنه رفض وأكد لي أنهم سيتوقفون عن ضربه حالياً، وأن اللحظة التي أظهر فيها على التلفاز ستكون اللحظة التي يقومون فيها بالإفراج عنه.

ثم بدأ يرتب معي للمقابلة، وجعل يسألني عن الأشخاص الذين أتواصل معهم، ومصادر المعلومات وما إلى ذلك، وعجبت حقاً لقدرته على اختراع كذبة ثم تصديقها ثم مطالبتي بأن أجيب عن أسئلة تؤكدها، أسئلة لم أكن أعرف كيف أجيب عنها حتى لو أردت التجاوب معه، لكنه اختصر علي كل ذلك وبدأ يملي علي ما كان مكتوباً لديه في تقرير أمامه، جعلت أعيد كتابته على ورقة أعطاني إياها، والذي تضمن أشياء مثل دخولي إلى تركيا عبر معبر باب الهوى لتلقي تدريبات، وعندما انتهى من رسم صورة «المتآمرة» التي أراد، طلب مني التوقيع على ما كتبته بخط يدي، ثم أعطاني الورقة بعد «مراجعتها» وأخبرني أن أحفظها جيداً، من أجل المقابلة، وتركني في المكتب بعد إغلاق بابه علي لأقضي ليلتي.

تلاشت فكرة الهرب التي راودتني بادئ الأمر مع استحالتها من ذلك المكتب الذي كسيت نوافذه بالحديد، وجعلت أطيل النظر إلى الورقة أمامي وأتساءل كيف قبلت كتابة ما أملاه علي.. ثم التوقيع عليه؟! وخطر لي تمزيق الورقة لكني عدلت عن الفكرة بعد أن تذكرت السبب الذي جعلني أقبل بادئ الأمر كتابتها.. أخي القابع الآن في الزنزانة ينتظر جلسة تعذيب أخرى.. وقررت أني سأمضي في اتفاقي مع الضابط حتى النهاية، وأني سأخرج أخي من سجنه ليعود إلى أهلي.

فتح باب الغرفة فجراً، ودخل ضابط عرف بنفسه أنه «الرائد أحمد عبد المجيد»، وأنه هنا لاصطحابي إلى دمشق لأقوم بتصوير المقابلة، وانطلقنا بسيارته يرافقنا عنصران على طريق الشام الذي قاد عليه الضابط بسرعة جنونية، أما أنا فانصب تركيزي على قبضة (جهاز إرسال) فتحها الضابط في السيارة، والتي كان يتحدث بها أشخاص مختلفون عن خسائر النظام أثناء اقتحام منطقة الحفة في اللاذقية، وكان قلبي يقفز فرحاً مع سرد أخبار الضباط الذين قتلوا والآليات التي دمرت.. وللحظة نسيت أين أنا وإلى أين أتجه، واستقر في بالي أننا لسنا مستضعفين بعد اليوم، وأن في البلاد شباباً يعرفون جيداً كيف يذيقون هذا النظام ما أذاقه إيانا عقوداً، وأنهم وإن كانت إمكانياتهم متواضعة يعرفون كيف يواجهون، فكل تلك الخسائر التي مضت القبضة تسردها ساعتين هي مدة الطريق إلى دمشق لم تكن لتحدث لولا قدرة الثوار على المواجهة، وغادرتُ السيارة عند وصولنا بأمل ملأ روحي على خلاف اليأس الذي دخلتها عليه.

اتجهنا بداية إلى مبنى المخابرات العامة حيث وقّع الضابط الذي رافقني أوراقاً يبدو أنها كانت ملفي، ثم أخذني إلى فرع أمن الدولة، ثم إلى مبنى الفرع ٢١٨ الذي سلمت فيه أماناتي، قبل أن يتم اقتيادي إلى مكتب في الطابق الثاني من المبنى ضم شاشة كبيرة مقسومة إلى عدد من الشاشات تظهر كل منها ما تصوره كميرا مراقبة، واستطعت تمييز غرفة جلستُ فيها أربع فتيات، وبعد طول تدقيق في جزء آخر من الشاشة أدركت أخيراً أن ما تعرضه هو مجموعة من الشباب جُرِّدوا من ثيابهم وقُيِّدت أيديهم خلف ظهورهم، ووقفوا قبالة جدار، حاولت إمعان النظر في الشاشة علّي أتمكن من تمييز صورة أخي بينهم، ثم خطر لي أنه هناك في اللاذقية، وبت مصرة أكثر على تنفيذ جزئي من الاتفاق حتى أنقذه من موقف كالذي أشاهده.

دخل الضابط الذي رافقني إلى الغرفة وسلم الضابط الموجود ملفي مخبراً إياه أنها «اعترافاتي»، ثم التفت إلي يخبرني أني سأبقى هنا يومين ثم يتم إعادتي إلى اللاذقية مرة أخرى بعد تصوير المقابلة، وعندما سألته عن أخي أخبرني بأنهم أفرجوا عنه، وأن علي أن أتذكر أنهم يستطيعون جلبه متى شاؤوا، ثم غادر. أما أنا فتم نقلي إلى غرفة سُئلت فيها عدة أسئلة عن ناشطين من جبلة

نفيت أي معرفة بهم، ثم تم نقلي إلى الغرفة التي شاهدتها على الشاشة تضم معتقلات.

كانت مساحة الغرفة جيدةً نسبياً، وعلى الرغم من أنها كانت مليئة بالأوساخ ومرتعاً للحشرات، إلا أنها كانت مقارنة بما تتحدث عنه المعتقلات عموماً ترفاً مبالغاً فيه، فقد ضمت على الأقل حماماً وبيت خلاء، وكان يأتي فيها الطعام كافياً بانتظام، كما وزعت فيها «بطانيات» كافية، وفهمت من طبيعة المعتقلات في الغرفة أنها كانت مخصصة لـ «شخصيات مهمة» نوعاً ما، إحداهن كانت معيدة في جامعة دمشق كتبت على السبورة «أعتذر عن إعطاء المحاضرة حتى يسقط النظام».

قضيت ليلتي في الغرفة ثم تم إخراجي صباحاً للقاء رئيس الفرع، الذي راجع معي الورقة التي ضمت «اعترافاتي»، وبدأ يضيف إليها من نسج خياله تفاصيل يجب أن أذكرها في اللقاء التلفزيوني، وعندما لم أعد أستطيع الاحتمال أخبرته أن الورقة التي بين يديه أمليت علي إملاء في اللاذقية، وأن لا شيء فيها صحيح، حينها قام عنصر خلفي بتذخير سلاحه وطلب من رئيس الفرع الإذن بتصفيتي، ليقوم الأخير بإخباره أن لا داعي لذلك، وأنني سأتعاون معهم من أجل أخي المعتقل في اللاذقية!

عرفت حينها أن أخي لم يتم الإفراج عنه كما أخبرني الضابط الذي جلبني، وأخبرت رئيس الفرع أني سأفعل ما يطلبون للإفراج عنه.

غادر رئيس الفرع المكتب بعد أن أعطاني الأوراق حتى لا أنسى من «اعترافاتي» شيئاً، ثم دخل شخص عرّف بنفسه كمذيع في التلفزيون، وبدا عليه الغضب حين لم أعرفه، مع ما أظهره من اعتداد بنفسه بادئ الأمر.

ثم تم نقلي إلى غرفة أخرى وُضعت فيها كميرا جلس خلفها مصور وإلى جانبه مذيع آخر كنت قد شاهدته سابقاً على التلفاز، إضافة إلى عنصرين بعتادهم العسكري الكامل، وأحد ضباط الفرع، وبدأ تسجيل «اعترافاتي» التي توقف تصويرها كثيراً ليتم إخباري عن أشياء «غفلت» عن ذكرها، وكان الشخص الذي تولى مهمة تنبيهي إلى «النقص» هو الضابط. وما إن فرغت من المقابلة حتى تمت إعادتي مرة أخرى إلى الزنزانة التي جئت منها.

كنت قد دخلت في حالة بكاء هيستيرية عندما وصلت إلى الزنزانة، فحتى تلك اللحظة لم أكن أدرك معنى أن أخرج بمقابلة تلفزيونية أعترف فيها بأني تلك الناشطة التي كانت تنقل تفاصيل ما يحدث من المنطقة الساحلية، وبأني كنت جزءاً من مؤامرة تستهدف البلاد والنظام، فأقوم بتزييف الحقائق.

لم يخطر لي ولا للحظة أني بتلك الشهادة قد اعترفت بتهمة تكفي عند النظام حتى لا أرى الشمس ما حييت، لكن ما خطر لي هو أني قمت بخيانة الثورة والثوار، وبدأت أتصور كيف سيشاهد والداي تلك المقابلة، كيف سيشاهدها أصدقائي، وكيف سيشاهدها الثوار الذين يخاطرون بحياتهم كل يوم عشرات المرات ليخرجوا في مظاهرة أو يكتبوا عبارة على جدار أو يرفعوا علم الثورة أو يواجهوا بالسلاح دوريات الأمن وقطعان الجيش، كيف ستشاهد «بنان» نفسها تلك المقابلة؟!

كنت أتمنى لو أني رفضت التجاوب معهم، وقاموا بتعذيبي، حتى لو عنى ذلك أني سأرضخ تحت التعذيب آخر الأمر وأقبل الخروج في المقابلة، لكن أن أخرج هكذا، دون صفعة حتى، دون أن أبدي أي مقاومة أو أظهر أياً من عناد الثورة والثوار؟!

أحسست بأني خائنة.. ولم يكن يهدئ من ذاك الإحساس الذي جعلني أكره نفسي إلا أني قد قبضت ثمن خيانتي: حرية أخي، لعلي بذلك أكون أنقذته من مصير من يدخل الفروع الأمنية في بلادنا.

تناهى بكائي تدريجياً إلى النوم، حتى أيقظتني رفيقاتي على موعد الغداء الذي كان «دجاجاً مسلوقاً»، لم أكن أتصور أن أي فرع في البلاد يضم وجبة مثله لمعتقلين مهما كانوا مهمين، وأدركت بعد أن سألت المعتقلات أنها المرة الأولى التي يتم فيها تقديم الدجاج لهن، ورددت إحداهن ممازحة أن هذا الدجاج على شرف النجمة التلفزيونية، وعلى الرغم من أني أدركت أنها كانت تحاول إخراجي من حالتي بالمزاح، إلا أن كلماتها جاءت ثقيلة على نفسي، فقد أحسست أني أعامل تلك المعاملة لأن النظام سعيد بما فعلته، وما كان

سيجعل النظام سعيداً لا بد هو أمر يؤذي الثورة وأبناءها، ومن ثَمّ هو خيانة كاملة ارتكبتها.

لم أقبل أن أضع شيئاً من ذلك الطعام في فمي، حتى مع محاولة رفيقاتي التحايل علي، فقد أحسست أني بذلك أقبض ثمن خيانتي.. وأي ثمن؟! دجاج مسلوق.

مضت عدة أيام كنت أنتظر فيها أن يتم إعادتي إلى اللاذقية للإفراج عني، أو يتم السماح لي بالاتصال بوالدتي على الأقل لأعرف منها إن كان أخي قد تم الإفراج عنه أو لا، دون جدوى، ففي الأيام التالية على الاعتقال كنت أخرج يومياً إلى التحقيق الذي لم يتم فيه سؤالي عن أي شيء، وكان علي من الساعة التاسعة صباحاً وحتى الثانية ظهراً يومياً أن أخرج إلى غرفة التحقيق بعد أن تُغطى عيناي، فأجلس على كرسي قبالة المحقق الذي يسمعني صوته مرة أو مرتين طوال تلك المدة، ثم تتم إعادتي إلى الزنزانة، دون سؤال، دون ضرب، دون إجابة حتى عن أسئلتي التي كنت أفصح عنها حين يعيل صبري.

وعلى الرغم من أني في كل تلك المرات التي غُطيت فيها عيناي لم أستطع مشاهدة شكل الغرفة التي كنت أجلس فيها للتحقيق، إلا أنني كنت أسمع بشكل جيد، حولي وقربي، المعتقلين الذين يتم تعذيبهم، كنت أسمع أصوات الجلدات تنهال عليهم، وأصوات تأوههم، وأتساءل: ترى هل طُلب منهم أن يخرجوا بمقابلات تلفزيونية ورفضوا ذلك ليكون هذا مصيرهم؟ لعل ما طلب منهم أقل من ذلك بكثير.. ربما طلبوا منهم الاعتراف بأبسط بكثير مما اعترفت به على شاشة التلفاز، لكنهم رفضوا.

كنت أحس أني أنا التي يجب أن تُعذَّب بدلاً منهم. ومهما كنت أستطيع التبرير لنفسي بأني خشيت على أخي، لم أعد أستطيع فعل ذلك بعد أن شاهدت من طرف غطاء عيني في يوم لم يشد فيه العنصر وثاقه جيداً رجلاً مسناً شبه عارٍ أجلسه محقق لا يبلغ نصف عمره على كشف باب الغرفة الحديدي، بحيث يضغط حرف الباب على ركبه، وهو يهينه ويشتمه. بالتأكيد كانت صحتي أفضل بكثير من ذلك المسن، ولكنه على ما يبدو اختار الإصرار

على موقف أو رفض الاعتراف بما طُلب منه، فكان مصيره التعذيب، أما أنا فخضعت دون أن أكلفهم عناء الشتيمة حتى.

كان إحساسي بالذنب يأكلني، وزاد فيه أنهم رفضوا السماح لي بالاتصال بوالدتي أو أيٍّ من أهلي، وبت أشك في أنهم أخرجوا أخي أساساً، ليصيبني انهيار عصبي أخبرتني المعتقلات لاحقاً أنهن تمكّنَّ بصعوبة من إرخاء قبضة يدي عن يدي الأخرى معه، بعد أن تركت أظافري أثراً عليها، ولم أستيقظ إلا على طبيب الفرع يقوم بإعطائي حقنة مهدئ، ثم يرسلني إلى مكتب رئيس الفرع الذي أخبرني أنهم أرسلوا طلباً للسماح لي بالتواصل مع أهلي، ثم أمضى ساعة في محاضرة فارغة عن الوطن والمؤامرة التي تحاك ضده، والتي تستهدف شباب البلاد أكثر من غيرهم، لتقوم باللعب بعواطفهم.

لم يفلح الانهيار العصبي بإقناعهم أن يسمحوا لي بالتواصل مع أهلي، وخطر لنا أنا ورفيقات زنزانتي أن نبدأ إضراباً عن الطعام حتى يسمحوا لنا بالتواصل مع أهلنا، أو يقوموا بالإفراج عنا، وساعدنا في ذلك أنهم لم يكونوا يعاملوننا بالطريقة التي يعاملون بها المعتقلات عادة، وأننا كنا أقرب لمحتجزات في دولة أخرى تخشى سطوة الإعلام، فتراعي حالة المحتجزين لديها، على خلاف ما يفعله النظام عادة بالمعتقلين الذين ينكل بهم. وبعد أسبوع من الإضراب تم عرضي على قاضٍ بمحكمة عسكرية، ودامت محاكمتي خمس دقائق أخبرت فيها القاضي أن كل الملف الذي أمامه شيء أُجبرت على فعله، بينما اكتفى هو بالتوقيع على الأوراق وإخباري أني انتهيت من عنده، وأن علي الخضوع لمحاكمة مدنية.

فرحت قليلاً بالخبر الذي كان يعني خطوة أقرب إلى الإفراج، وبدا على وجهي السرور وأنا أتحدث مع معتقلة عرضت معي على القاضي، لتستفز ابتسامتي كاتب القاضي الذي أخبرني أنه سينقلني للمحاكمة في حمص عقوبة على «ابتسامتي»، وقد كان.

تم نقلي بعدها إلى الشرطة العسكرية في القابون، ومن ثم إلى سجن عدرا، ومنه إلى الشرطة العسكرية فالمحكمة العسكرية في حمص، ثم السجن المدني

في حمص لليلة واحدة، وأثناء تنقلي كنت أقابل أشخاصاً شاهدوا مقابلتي، سواء الذين في السجون المدنية التي يسمح فيها التلفاز، بل يفرض فيها تلفاز النظام على السجناء، أو معتقلون جدد شاهدوها قبل القبض عليهم، وكل هؤلاء كانوا يخاطبونني بقولهم: «الله محييك»، و«نحن معك»، وما إلى ذلك من كلمات التشجيع التي كنت أتمنى لو أنني أستحق شيئاً منها. وبالقدر الذي جعلتني فيه تلك الكلمات أخجل من نفسي كانت تمدني بقوة كبيرة، لتتحول شخصيتي تماماً من فتاة ظهرت على التلفاز دون صفعة حتى لتعترف بما يريده الأمن، إلى فتاة ترفض الذهاب من اليمين إذا طلب منها ذلك من الأمن عندما تستطيع عكسه، وتحول صمتي الطويل إلى لسان لاذع ينتظر أي كلمة أو إشارة مستفزة ليجلد مصدرها، كأنني كنت أطلب أن تتم معاقبتي على سلاطة لساني، فيختفي تأنيب ضميري.

كان علي أن أنتظر الوصول إلى سجن حمص المدني لأتمكن للمرة الأولى من الحديث مع أهلي، حيث توفرت في السجن جوالات عند السجناء كانوا يدفعون ثمن غض النظر عنها للسجانين. وعلى الرغم من أن الشبكة كانت شبه مقطوعة عن المنطقة في ظل الحملة التي يشنها النظام على أحياء الخالدية والبياضة في المدينة، والتي كانت تتناهى إلينا في السجن دوي القذائف تدكها، مذكرة إياي بقصف حي الرمل في اللاذقية، إلا أنها (الشبكة) كانت تأتي أحياناً ضعيفة، تمكنت خلالها أول مرة من سماع صوت خالتي ترد على اتصالي بكلمة واحدة هي اسمي قبل أن ينقطع الاتصال، اسمي الحقيقي وليس «بنان» الذي اعتادت على سماعه أذني في كل فرع دخلته.

عرفت خالتي صوتي مباشرة ونادتني باسمي مستفسرة قبل انقطاع الخط، وأحسست من هذه الكلمة أن كل شيء بخير، ثم عادت الاتصالات بعدها بساعات لأتمكن من التواصل معهم بمكالمة مطولة عرفت فيها أن أخي لم يكن معتقلاً يوماً، وأنه ما زال يتخفى دون أن يتمكن الأمن من إلقاء القبض عليه، وعرفت حينها أني كنت ألعوبة بيد أجهزة المخابرات، فتاة مسكينة تم استغلال ضعفها وخوفها على أخيها ليتم تصويرها علناً تخون ثورتها.

تمنيت حينها لو أصل إلى الجبل حيث يحمل الثوار السلاح، وأقاتل إلى جانبهم فأطفئ شيئاً من نار قلبي المتقدة، أو لو أستطيع إعادة الزمن فأرفض أن أتحدث بأي شيء ولو قاموا بتقطيعي، وكان يمكن أن أدخل بانهيار عصبي آخر لولا ارتياحي لفكرة أن أهلي جميعاً بخير، وعاهدت نفسي أني لن أصدق كلمة واحدة يقولها أحد من أزلام النظام بعد اليوم، وأني سأخرج من ذاك المكان مهما طال الأمر، ولن أنسى ما حييت خيانتي تلك، وسأعمل دائماً للتكفير عنها.

تم نقلي بعد ليلة في سجن حمص المركزي إلى الشرطة العسكرية في اللاذقية، التي استدعاني فيها ضابط إلى مكتبه ليتحدث إلي عن عظيم جريمتي، وكيف أن عائلتي طوال عمرها لا تملك مشاكل مع «الدولة»، وأني لا بد قد تم التغرير بي، أما أنا فكنت أجيبه بكل لؤم استطعته، حتى عندما أخبرني أنه يعرف جدي ويكن له الود، أخبرته أن لا ينغرّ، وأن «الوردة تخلف شوكة» مضايقة له.

مع وصولي إلى اللاذقية كنت أعتبر أن كل من أقابله في الفروع الأمنية، وأنهم جميعاً شركاء في كل الجرائم التي يمارسونها بحق الناس، وأنهم جميعاً شركاء في الحيلة التي انطلت علي، وأن أقل ما يمكنني فعله أن أجعلهم يعرفون كم أحتقرهم.. وهذا كل ما استطعته، وأقل ما يكفي لتهدئة ناري.

ولأن الكلام لم يعد يكفي بعد فترة، بت أتمنى حقاً لو تتاح لي فرصة لأمزق أحدهم، لأفرغ ما في صدري لكمات وركلات، وجاءت تلك الفرصة أثناء نقلي من الشرطة العسكرية إلى السجن المدني، حين دعاني أحد العناصر الذين يتولون نقلي بـ«عرعورية»، لأقوم بركله وأقفز بالقيد الذي يلف يدي عليه محاولة الوصول إلى عنقه، لكن العنصرين اللذين رافقاني تمكنا من الإمساك بي وإبعادي عنه.

كنت أعرف أني أعامل بشكل مختلف عن المعتقلات الأخريات، وتأكد لي ذلك عندما كانت سلاطة لساني تمر مرور الكرام، وكان هذا يغيظني أكثر، فقد

تمنيت لو أن أحدهم يُستفَز فيقتلني ويريحني، لكن أياً من ذلك لم يحدث، ولم أتمكن آنذاك من فهم السبب في كل ذلك الحرص على حياتي، لماذا لم يتم تعذيبي أو معاقبتي؟ كانت فكرة أنهم ليسوا بحاجة إلى تعذيبي لأني فعلت كل ما أرادوا تأكلني حقاً، لكني أدركت لاحقاً أن المعاملة المختلفة تلك لم تكن بسبب المقابلة التي قبلت الخروج بها، وأن النظام لا يقوم بالتعذيب للحصول على معلومة أو غرض، فيحجم عن التعذيب بعدها، وإنما يقوم بالتعذيب لمجرد التعذيب، أما أنا فتمت المحافظة علي لأن أحداً يقوم بالمفاوضة لإخراجي.

بقيت في السجن المدني في اللاذقية من بدايات تموز/يوليو وحتى أواسط آب/أغسطس، وكان علي كل يوم في السجن أن أعيش مشكلة مع شرطية أو عنصر أو ضابط، فقد كان يحلو لهم أن يدعوني «بنان» أو «عرعورية» أو «كلبة الثورة»، وكل مرة حدث ذلك كنت أترك للساني أن يرد بما عرفته، وعندما بالغتْ إحدى الشرطيات في السجن باستفزازي تمكنت من حشرها في إحدى الزوايا، وأقسمت لها بكل ما هو عزيز أني مستعدة لآخذ فيها حكم إعدام إن هي كررتها، وكان هذا كافياً لتكفّ عن مضايقتي.

مطلع شهر آب/أغسطس دوى جرس السجن في الساعة الثانية ظهراً وأخبرتني السجانة أنهم يستدعونني، وكان وقت الجرس ذاك لا يتم فيه إخراج أي من الموقوفين بتهم سياسية إلا لإعادته إلى فرع أمن الدولة، أو لأن أحد المساجين قد كتب فيه تقريراً أمنياً، فعادة التقارير الأمنية ليست موجودة خارج السجن فقط، وإنما تدار بها السجون أيضاً، والتي يتم فيها تسليط المساجين على بعضهم، فيتحاشون شتيمةً لرأس النظام أو رموزه خشية العودة إلى المعتقلات، والفرق بينهما عظيم.

تم اقتيادي وقتها إلى المحكمة المدنية، ولفت نظري أنهم أدخلوني من الباب الخلفي لها، فيما فهمته لاحقاً أنه خوف من هجوم لتحريري! وتم حينها عرضي على القاضي الذي اكتفى بسؤالي إن كان أي شخص يضايقني في السجن، ثم أشار إليّ بالانتظار، وحينها رأيت الضابط «أحمد عبد المجيد»

الذي نقلني أول الأمر إلى دمشق، وأحسست أنهم يرتبون لإعادتي إلى فرع أمن الدولة، لأعيش كما تعيش المعتقلات الأخريات جحيم الاعتقال، فانفجرت في وجه القاضي والضابط والعناصر وكل من وُجِد في المحكمة صراخاً بأنهم كاذبون، وأنهم خدعوني للاعتراف، وعلى الرغم من محاولات تهدئتي إلا أني غادرت وعيي وقررت أني لن أسكت حتى يقوموا بقتلي فأرتاح، وتشبثت بالكرسي الذي طلب مني الانتظار عليه وأنا أصرخ: «ما بطلع من هون».

ولم تفلح محاولاتهم جميعاً بإسكاتي أو تهدئتي، حتى أخبرني الضابط أني سأخرج عبر صفقة تبادل.

لم أصدق بادئ الأمر، وظننت أنها خدعة أخرى، خصوصاً عندما أخبروني أن فصيلاً من الجيش الحر اسمه «صقور الساحل» يريد مبادلتي على ٤٤ عسكرياً أسرهم في المعارك، حينها جاء شخص عرفني بنفسه كرئيس مؤسسة المياه في جبلة، وأنه الوسيط بين الثوار والنظام لعمل صفقة التبادل، لكني لم أصدق أيضاً، فقام بإخراج جواله والاتصال بشخص أعطاني إياه بعده للحديث معه.

رد شخص على الهاتف وعرفني بنفسه كقائد «لواء صقور الساحل»، وأخبرني بصفقة التبادل، لكني لم أكن أعرفه، ليقوم بإعطاء الهاتف إلى «عمر الجبلاوي»، وهو ناشط وإعلامي كنت أعرفه وأعرف اسمه الحقيقي، فاطمأننت قليلاً عندما أكد لي أنهم يفاوضون الآن لإخراجي، وأن علي التعاون مع الوسيط لتمضي العملية على خير، ثم قام بإخباري أن شخصاً بجانبه أيضاً يريد الحديث إلي.. وحينها سمعت صوت أخي للمرة الأولى، وأدركت أنه لم يكن مختفياً كما أخبرتني والدتي حين تحدثت معها من سجن حمص، وأنه غادر للانضمام إلى الثوار في الجبل.. وحينها.. حينها فقط أحسست مرة أخرى بالخجل من نفسي.

تذكرت حينها كلمة لأحد العناصر في رحلتي الطويلة تلك، والذي كان يخبرني أن كل ما فعلته للثورة بلا قيمة، وأني الآن متروكة للأمن وقد تخلى

عني الثوار الذين خاطرت بحياتي من أجلهم، كنت أتمنى لو كان حاضراً حينها فأخبره أنهم «لم يتخلوا عني».. كنت أتمنى إخباره أنهم قابلوا ضعفي و«خيانتي» بالتمسك بي، والإصرار على إخراجي من بين أيديكم، وأدركت لمَ لم أكن أعامل كباقي المعتقلات؟ ولماذا لم يتم تعذيبي على الرغم من كل ما كنت أفعل؟

تذكرت أيضاً كلمة لأحد المحققين في دمشق، والذي أخبرني أن «الثوار» سيقومون بطلب إجراء مبادلة علي مستقبلاً، وأنهم حينها سيقومون بتصفيتي لاتهام النظام بذلك، وهو ما فهمت منه أن النظام هو من سيقوم بتصفيتي، لذلك بدأت أحتاط منذ تلك اللحظة لما يحدث.

كان الثوار قد بدؤوا العمل على صفقة التبادل منذ اللحظة التي بُثت فيها المقابلة على التلفاز، واستثمروا للضغط على النظام عوائل الأسرى الذين لديهم، والذين كانوا يتواصلون معهم عن طريق هواتف الأسرى أنفسهم، والذين تم القبض عليهم أثناء محاولة جيش النظام وأجهزته الأمنية اقتحام الجبال التي تحصنوا فيها، حتى رضخ النظام أخيراً لمطلب التبادل، وبدأ يرتب لإجراءات إخلاء سبيلي قانونياً.

بعد ذلك اليوم الذي عرفت فيه بصفقة التبادل بأيام تم عرضي للمرة الأخيرة على القاضي ليتم إغلاق ملفي، ثم تم نقلي إلى فرع أمن الدولة حيث التقيت وزير المصالحة «علي حيدر» الذي جلب لي قرار إخلاء سبيلي موقعاً من «بشار الأسد» حتى يتم الإجراء بشكل «قانوني».

كانت الفكرة مثيرة للسخرية فعلاً، أعني حرص النظام على الأوراق القانونية في كل حركة يقوم بها، فيقوم بإملاء اعترافاتي علي لأكتبها بيدي حتى تكون قانونية، ثم أوقع عليها لتكون قانونية، ثم يتم نقلي من قسم لآخر ومن محكمة لأخرى ليكون كل شيء قانونياً، وينسى قبل كل ذلك وبعده أني معتقلة أساساً بسبب تقرير أمني كتبه طالب يدرس معي في الجامعة، كتبه لأنه علوي ولأني سنية، فقد تسنى لي قراءة اسمه على ملفي في غرفة الضابط الذي أملى علي اعترافاتي في فرع أمن الدولة بداية

اعتقالي، وعرفت أني هناك بسبب ذلك التقرير، وعرفت أيضاً أن كل منظومة النظام الأمنية تقوم على تلك الفكرة الساذجة، على تقارير دافعها الوحيد «الشك» أو «الحقد»، ثم يجب أن يصبح ذاك الشك حقيقة حتى يكتمل نصاب المؤامرة قانونياً، وحين يحتاج ضباط المخابرات للقبض على ناشطة إعلامية تفضحهم كبنان الحسن، يستغل أي تقرير من عشرات التقارير المبنية على الشك بأن فلانة هي «بنان»، ثم يختار الأنسب منها، ويضغط على المعتقلة المتهمة لتعترف بأنها بنان، وعلى أخرى لتعترف أنها عميلة للموساد، وعلى ثالثة لتعترف أنها تدير تنظيماً إرهابياً.. وهكذا، حتى يكون كل شيء قانونياً.

عند الظهيرة انطلقنا من فرع أمن الدولة في اللاذقية يرافقنا الوسيط ووالدتي التي كنت مصرة على وجودها، ووصلنا إلى آخر حاجز للنظام، وهو حاجز كفريا على طريق حلب، ووقفنا في شارع يوجد الثوار في آخره، وبدأتْ حينها المفاوضات على الآلية التي سيتم بها الاستلام والتسليم، والتي كان واضحاً أنها لم تُناقش من قبل.

ذهب الوسيط إلى الثوار حينها ليقنعهم أن تتحرك سيارتان في الوقت نفسه إحداهما تضمّني والأخرى تضم جنود النظام الـ ٤٤، لكن الثوار رفضوا مع الوجود الكثيف لقطع من جيش النظام وأجهزته الأمنية برفقتي، وكان واضحاً أنهم يخشون عملية اقتحام أثناء التبادل، حيث طلبوا أن يتم إخلاء سبيلي بدايةً ثم يقوموا بتسليم العناصر الـ ٤٤، وكبادرة حسن نية أفرجوا عن أربعة عناصر مع الوسيط وصلوا إلينا في الجهة التي وقفتْ عندها قوات النظام، لكن المفاوضين من طرف النظام رفضوا الاستجابة وأخذوا العناصر الأربعة، وبدا أن عملية التبادل فشلت حين عادت القافلة التي جئت معها إلى اللاذقية، ودخلت في حالة حرجة مع انهيار أعصابي إثر فشل العملية.

لكنهم عادوا للتفاوض مساءً واتفقوا أخيراً على أن يأخذني الوسيط ووالدتي بسيارة إلى النقطة التي يقف عندها الثوار، وأبقى في السيارة حتى تتحرك حافلة الأسرى التي أوقفها الثوار على الطرف الآخر باتجاه النظام. وبالفعل انتقل

الوسيط حتى وصل قريباً من الثوار، ثم استدار بسيارته مستقبلاً الاتجاه الذي جاء منه، ليكون حاضراً للرجوع في حال عدم تحرك الحافلة، لتقوم مجموعة من الثوار كانت مختفية على أطراف الطريق بمداهمة السيارة وأخذي مع والدتي واعتقال الوسيط، فيما عادت الحافلة باتجاه الثوار، واكتشفنا حينها أن العدد الكلي للأسرى مع الثوار هو أربعة أسرى وليس ٤٤، وأنهم سلموا بالفعل الأسرى الذين لديهم، أما الأربعون الآخرون فكانوا قد قتلوا خلال الاشتباكات، إلا أن الثوار أخفوا خبر مقتلهم، وجعلوا يفاوضون عليهم باستخدام هواتفهم موهمين النظام وذويهم أنهم أسرى.

أفرج الثوار في اليوم التالي عن الوسيط بينما بقيت والدتي معي، وكان إخوتي جميعاً قد خرجوا قبل ذلك إلى الجبل المحرر، والذي غادرناه لاحقاً إلى تركيا، بينما بقي والدي في جبلة مدة عام ونصف حتى لم يعد يستطيع احتمال المضايقات، خاصة أن عوائل الأسرى المفترضين، والذين تبين لاحقاً أنهم قتلوا خلال الاشتباكات، قد بدؤوا بالسؤال عنه في جبلة، ليغادر أيضاً مدينتنا إلى غير رجعة، ويلتحق بنا في تركيا.

لم أستطع حتى اليوم بعد كل تلك السنين مشاهدة تلك المقابلة التي لن أغفرها لنفسي ما حييت، ربما لأني لا أحب أن أتذكر تلك الفتاة الضعيفة الساذجة، أو لأني لا أحب أن أشاهد خيانتي للثورة، وللتكفير عنها قمت بأكثر من مقابلة تلفزيونية تحدثت فيها عن ظهوري على تلفزيون النظام وما حدث معي، وحتى اليوم لا أجدني أستحق ما فعله الثوار لأجلي، بل أجد أن هناك الآلاف والآلاف من المعتقلات المستحقات لإخراجهن بدلاً مني أنا التي خنت الثورة وأهلها، وسأعيش حياتي كلها ممتنة لتلك الفرصة التي لم تتمكن أكثر المعتقلات من الحصول عليها.. سأعيش حياتي أحاول أن أكون كما يجب أن تكون ابنة أعظم ثورات العصر الحديث.

هل أحلم بالعودة؟

لا.. أنا موقنة بعودتي.. متأكدة منها.. ومتأكدة أني سأرتدي «بيجاماتي» التي ما زالت تغسلها جدتي وتضعها على سريري في منزلها كل أسبوع منتظرة

قدومي عليها، الذي وعدتها به منذ عشرة أعوام، عندما غادرت منزلها لأقدم امتحاناتي.

سأعود لا شك.. وستزول تلك المنظومة الهشة التي يحاول النظام بها تشكيل المجتمع بشكل طائفي.. سأعود وسيكون السوري سورياً قبل كل شيء، ولن يكون هناك من يولدون ضباطاً وعناصر أمن، ومن يولدون مغتربين.. سأعود لأشهد رفع علم الثورة في جبلة واللاذقية وطرطوس وسوريا كلها.

سأعود.. وسيزول النظام.. وستبقى سوريا.

القصة الخامسة

ماما.. تعي لعندي

«ماما.. تعي لعندي»

كانت ترتدي فستاناً أزرق، وقد جمعت شعرها إلى جانبي رأسها، مزينة إياه بفراشتين، وجلست وسط مكان أحاطت به البساتين والورود، أما أنا فكنت أجلس قبالتها في أرض سوداء، ومهما حاولت لم أتمكن من الوصول إليها.

وعلى الرغم من أن عمرها لم يجاوز آنذاك الأعوام الثلاثة، إلا أنها بدت في ذلك المنام الذي كنت أراه يومياً خلال فترة اعتقالي بعمر أكبر بكثير.

كانت ابنتي قد فقدت النطق والسمع في عمر الشهرين أثناء إقامتنا قبالة الكلية الحربية في مدينة حمص، حين كانت الصواريخ تنطلق من راجمات جيش النظام لتدك الأحياء الثائرة قريباً من بيتنا الذي اهتز مع كل انفجار، حتى استيقظت ابنتي مرعوبة في يوم اشتد فيه القصف مع اختلاج شديد أصابها فقدت إثره الحاستين، وبدأت معه رحلة علاج طويلة لم تكن أمراً سهلاً في مدينة تحولت سريعاً إلى ساحة حرب.

كنت قد تزوجت أواسط العام ٢٠١١ بعد شهرين من انطلاق الثورة السورية التي لم تحتج كثيراً من الوقت حتى تصل إلى حمص، التي تحولت في أشهر قليلة من عاصمة «النكتة» في البلاد إلى عاصمة الألم، وباتت المدينة التي يعرفها السوريون بوداعة أهلها أول ساحة مواجهة عسكرية

مفتوحة بين الثوار الذين حمل بعضهم فتات السلاح وتحصنوا في أحياء حمص القديمة، وبين قطع الجيش ومجموعات الأمن التي لم توفر سلاحاً ثقيلاً أو خفيفاً في قصف تلك الأحياء، والتي شهدت كثافة كبيرة في المظاهرات التي انطلقت فيها منذ آذار/مارس عام ٢٠١١، كما شهدت أكبر اعتصام عرفته البلاد أواسط نيسان/أبريل من العام نفسه، حين احتشد أبناء المدينة في ساحة الساعة وسطها، محاولين تكرار مشهد اعتصام ميدان التحرير في مصر والذي استمر أياماً كانت كفيلة بإسقاط النظام هناك، لكن في سوريا كان الأمر مختلفاً.

فحتى عندما فرغت أحياء المدينة من شبابها الذين تجمعوا في ساحة الساعة يطلبون إسقاط النظام، لم يجد النظام مشكلة كبيرة في أن يفتح النار على المعتصمين الذين فروا من الساحة بعد أن ملأتها والشوارع المحيطة بها جثثهم، ليؤكد النظام أنه لن يسقط بالمظاهرات أو الاعتصامات، وأنه يفهم لغة واحدة فقط دفع إليها الثوار دفعاً، وكان له ما أراد في المواجهات التي قسمت المدينة إلى أحياء محررة كانت معظم حمص القديمة، وأحياء فرض عليها النظام سطوته، وحينا المتطرف ذي الحالة الخاصة في المدينة، والذي بقيتْ توجد فيه حواجز النظام دون أن تتدخل في حركة الناس، كما تواجد فيه ثوار دون أن يكون وجودهم علنياً، الأمر الذي جعل الحي قبلة لأهالي حمص النازحين من أحيائهم التي ملأها الخراب.

كان زواجي بداية انطلاق الثورة ثم حملي وولادتي قد منعاني من المشاركة في المظاهرات، لكن ومع حركة النزوح إلى «الوعر»، تحول سكان الحي جميعهم إلى خلية عمل كبيرة بدأت تنظف المدارس وتفرشها لاستقبال النازحين، وكنت من بين هؤلاء الذين وجدوا في هذا العمل سبيلاً إلى المشاركة في الثورة، ليصبح حي الوعر نسخة مصغرة عن مدينة حمص بأسواقها وأناسها بعد أن بات المنطقة الوحيدة التي سلمت من المعارك، إلى جانب الأحياء التي كان يقطنها العلويون في المدينة، والتي بقيت أيضاً خارج دائرة الصراع، أما والداي وإخوتي فقد نزحوا إلى مدينة دمشق، واستمروا بالتردد جيئة وذهاباً إلى حمص يزورونني فيها في حينا المتطرف، حتى قررت

مجموعة من الجيش الحر ضرب حواجز النظام فيه وطردها منه، ليصبح الحي بعدها محرراً.. ومحاصراً.. اعتباراً من تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠١٣، شأنه في ذلك شأن أحياء حمص القديمة، مع فارق أساسي كان القصف الشديد على حمص القديمة، والذي لم يحدث ما يشابهه في الوعر حتى وقت متأخر.

قرر والداي العودة من دمشق إلى منزلنا في حي القصور ضمن أحياء حمص القديمة بدايات العام ٢٠١٤، وذلك عندما بدأ الحديث عن اتفاقيات تسوية خشيا فيها أن يتم سرقة المنزل حين يدخله جيش النظام. ولم يمضِ وقت طويل حتى استنفد الثوار في حمص القديمة كل وسائل الصمود، وقرروا أن يقبلوا اتفاقية تهجير في أيار/مايو عام ٢٠١٤، خرجوا بموجبها مع معظم المدنيين الذين يقطنون المنطقة إلى ريف حلب المحرر، بينما دخل النظام إلى تلك المناطق، أو بشكل أدق دفع المدنيين لدخول المناطق قبل جنوده تحسباً لكمائن أو ألغام يمكن أن يكون الثوار قد وضعوها في تلك الأحياء قبل انسحابهم.

حينها كان أخي وزوجته قد قدما من دمشق مع الأنباء عن الاتفاقية، وذلك ليقابلوا والديّ اللذين أمضيا وقتاً محاصرين في القصور برفقة الثوار، وقد كان ما حسب النظام حسابه حقيقة، فقد قامت مجموعات من الثوار بزراعة عدد من الألغام في المنطقة التي ظنوا أن جيش النظام سيدخل منها، ليقوم الأخير بإرسال المدنيين كاشفات ألغام حية قبل جيشه، كان من ضمنهم أخي وزوجته اللذان انفجر بهما لغم أثناء دخولهما المنطقة، فارقا على إثره الحياة.

لا أستطيع نسيان ذلك اليوم ما حييت، فقد كنت قد أمضيت الليل كله أحاول التواصل مع زوجة أخي الحامل محاوِلةً الاطمئنان عليها وعلى أخي بعد أن عرفت بعودتهما إلى حمص للقاء أهلي، إذ لم أكن مطمئنة لرحلتهما تلك، وكان شيء ما داخلي ينبئني أن مكروهاً سيحصل.

وعلى الرغم من ضعف شبكة الاتصالات في حي الوعر، إلا أنني تمكنت من مشاهدة حالات نشرها أقاربي على حساباتهم في برنامج «وتس أب»، وكانت جميعها لجثة تم تغطية وجهها.

حاولت حينها سؤال بعضهم عن تلك الجثة لكن لم يتم إخباري إلا بأنه قريب لنا استشهد، وعندما زاد شكي تمكنت أخيراً من الاتصال بوالدتي بعد محاولات عديدة كانت فيها التغطية سيئة، ليقوم والدي بالرد بدلاً منها، ويكتفي بالاطمئنان علي وطمأنتي عنه وعن أمي دون أن يشرح سبب اختناق صوته الذي سألته عنه مراراً دون إجابة، ثم تمكنت من الاتصال بأخي بعد أن أمضيت النهار كله حتى المساء أحاول، والذي سلّم علي ثم طلب التحدث إلى زوجي.. ولأن التغطية سيئة لدينا فقد كنا نضطر لتثبيت موقع الموبايل والحديث عبر مكبر الصوت حتى يبقى متصلاً بالشبكة.

«في حدا جنبك؟»، سأل أخي زوجي، وقمت بالإشارة إليه ليخبره أن لا أحد بجانبه، حينها أبلغه أن أخي الأكبر وزوجته قد استشهدا بانفجار لغم أثناء دخولهما إلى حمص القديمة.

غاب الضوء عن عيني وروحي، وبدأت أصوّت كالمجنونة، فقد كنت الفتاة الوحيدة بين إخوتي، وكان أخي الأكبر ذاك يعاملني بدلال كبير جعلني أتعلق به كثيراً، لذلك لم يكن فقده عادياً، بل كان فجيعة بحق. وعلى الرغم من إطباق الحصار على حي الوعر حينها، ووجود حاجز لا يسمح إلا لمن يحمل إذناً بالمرور عبره باتجاه مدينة حمص، إلا أنني خرجت في الصباح أحاول إقناعهم أن يسمحوا لي بالمرور.

كنت أحمل ابنتي بين يدي، وتمكنت من الوصول إلى الضابط المسؤول الذي توسّلته ليقبل مشاركتي في جنازة أخي دون جدوى، وعندما فشلت كلماتي نزلت إلى قدمه أقبلها ليسمح لي، فقام بركلي، وشتمي وشتم أخي وأبناء المدينة كلهم، ثم أخبرني أن أقف جانباً وأنتظر تعدل مزاجه الذي قد يسمح لي بالعبور. ولثلاث ساعات وقفت هناك أشاهد إذلاله المارين عبر الحاجز، قبل أن يقرر إعادتي من حيث أتيت.

كان ذلك أول احتكاك حقيقي لي مع ضابط أو حتى عنصر لدى النظام في حياتي كلها، وكان أيضاً أكبر إهانة أحسست بها، وللحظة كنت سعيدة بأن ابنتي لم تكن تسمع، حتى لا تعلق تلك الشتائم التي شملتها ووالدتها بذاكرتها، وإن كانت خسارتها السمع والكلام قد عوضت عنهما بذاكرة مميزة، لا تكاد تنسى معها شيئاً، وحتى هذا اليوم كلما نظرت في عينيها أحسست أنها تتذكر تلك اللحظة تحديداً.. تتذكر إهانتي وإياها، وتشفق علي مما حدث، وتحاول اصطناع ابتسامة تواسيني فيها.

عدت يومها إلى الحي الذي انتظرني زوجي عند مدخله ليصحبني إلى منزلنا، وكان علي أن أبكي أخي وحيدةً ثلاثة أيام دون أن أتمكن من إلقاء النظرة الأخيرة عليه.. دون أن أتمكن من تقبيل جبينه أو وجهه، ودون أن أستطيع شم رائحته التي كانت روحي تشتاقها، وأقسمت حينها أني سأؤذي هذا النظام كما آذاني.

كان حي الوعر حينها محاصراً تدخله المواد الغذائية والأساسية بشكل متقطع عبر مفاوضات شاقة يقوم بها الثوار مع النظام، والتي لم تكن تنجح غالباً، خاصة بالنسبة إلى المواد الهامة كالتجهيزات الطبية والأدوية، وعاد الناس في الحي إلى مرحلة بدائية كان علاج ألم الرأس فيها ربطه، وعلاج آلام الجسد ما توفر من الخل وزيت الزيتون والأعشاب، لكن حتى تلك المواد بدأت بالنفاد، وبات لزاماً أن يتم إيجاد حل مستدام، خاصة مع الإصابات التي كانت تتسبب بها الاشتباكات والقصف المتقطع.

لذلك تشكلت شبكة واسعة في الحي لتهريب تلك المواد عبر حواجز النظام، وكان عماد تلك الشبكة الأساسي هن نساء الحي اللواتي تطوّعن لتلك المهمة التي ساهمت إلى حدٍّ بعيد في صموده أعواماً، لذلك لم أجد أفضل من المشاركة في تلك الشبكة للانتقام من النظام.

قمت حينها باستصدار ورقة تسمح لي بالتنقل من وإلى الحي، وبدأت بالفعل بتهريب الأدوية ومستلزمات العمليات الجراحية البدائية، والذي لم يكن أمراً سهلاً كما اعتقدت بادئ الأمر.

كان النظام قد أقام حواجزَ متلاحقة على مدخل الحي، وكان على كل أبنائه الذين يحملون بطاقات تسمح لهم بالخروج من الحي والعودة إليه أن يخضعوا للتفتيش الدقيق على كل من تلك الحواجز، وكانت عملية تهريب أي شيء تبدأ بطلب من أبناء الحي المحاصرين من أشخاص يعيشون في المناطق الخاضعة لسيطرة النظام بتجهيز شحنة من المواد التي سيتم نقلها على دفعات، وينتظرون أن تتواصل معهم إحدى المخولات بالمرور عبر تلك الحواجز لاستلام عدد من علب الأدوية أو بعض الحقن وخيوط العمليات أو أي شيء آخر بكميات متناهية الصغر يتسنى إخفاؤها ضمن الجيوب، ثم تتحرك الفتاة التي تحمل تلك المواد باتجاه الحاجز الأول، وذلك بعد أن تؤكد لها أخرى تدخل قبلها أن نوبة الحراسة الموجودة حينها ليست متشددة في عملية التفتيش، فطالما كان هناك متشددة لا يمكن لأحد تهريب أي شيء عبرها، وعند التأكد أن نوبة الحراسة على الحاجز الرئيسي الذي تخضع فيه الفتيات للتفتيش بدقة متساهلة، تدخل الفتاة التي تحمل المواد المهربة وقد وزعتها على عدة جيوب، ثم تقوم بالمرور عبرها إلى نقطة بداية الحي تسلم فيها المواد التي تمكنت من تهريبها حتى لا يراها الناس في الحي وهي تحملها، فيكتشفها أحد عملاء النظام الموجودين، ويتم رفع اسمها عبر تقرير أمني ينتظرها عند تحركها القادم لاعتقالها.

كانت كل حبة دواء أو حقنة أو خيط عملية جراحية أو حتى علبة سجائر تدخل إلى الحي تمر بتلك العملية المعقدة، ولم يكن شيء في الدنيا يفرحني أكثر من الانتهاء من إدخال شيء من تلك المواد، التي أحسست في كل منها بانتصار صغير على النظام، وبشيء من ثأري يتحقق، ثم تلاشى ذاك الشعور تدريجياً ليستقر مكانه شعور واحد هو الإحساس بالمسؤولية عن كل أولئك المرضى الذين كنت سبيل الشفاء إليهم، وتبدل لدي الفرح بانتصار صغير إلى الفرح بطفل صغير تأتيه حبة دواء يحتاجها، أو بشاب مزقته قذيفة يجد لصاقة طبية في غرفة العمليات لإيقاف النزيف، كنت مسؤولة عن كل أولئك، عن الاستمرار بإدخال تلك المواد التي بقيت شحيحة طوال أربع سنين كان فيهن الحي محاصراً.

ومنذ البداية قررت أن أجنب ابنتي موقفاً شبيهاً بتلك الإهانة على الحاجز، ولذلك نقلتها إلى بيت والديّ اللذين تعلقَت بهما كثيراً، بينما استمرت زياراتي لها ساعة يومياً أطفئ فيها شوقي إليها، وأمني النفس أنها بتلك الساعة من التواصل لن تنساني، وأن كل ذلك أمر مؤقت لا بد سينتهي بعد حين، لكني لم أتصور يوماً أن تكون نهايته ما وصلنا إليه.

بقيت على تلك الحال أشهراً طوالاً لم يعتد فيهن جسدي على ارتعاشة الخوف أثناء مروري بتلك الحواجز، والتي كان التدقيق عليها يتزايد تدريجياً حتى باتوا يقومون بتفتيشك عند الخروج لمعرفة المبلغ الذي تحمله، ثم يفتشونك عند العودة، فإن كانت لديك ليرة واحدة أكثر من المبلغ الذي كنت تحمله عند الخروج، والمسجل إلى جانب اسمك ضمن لائحة على الحاجز، يتم مصادرتها وإتلافها أمامك، كما يتم معاقبتك إن كان المبلغ الذي كنت تحمله عند الخروج ناقصاً عند عودتك، وكأن عليك الخروج والعودة دون أن تكسب أو تصرف أي شيء، وتلك كانت استراتيجية يريد منها النظام قتل الحياة نفسها في الحي، فإن لم تكن تستطيع إدخال أموال إليه لتتحرك فيه دورة اقتصادية، ولم تكن قادراً على إخراج أموال منه لشراء حاجيات وما شابهها، فقد حولت الحي إلى نقطة سكون، والسكون آنذاك هو قرين الموت.

ثم جاء اليوم الذي رأيت فيه أخيراً إحدى العاملات ضمن تلك الشبكة الواسعة للتهريب يتم إلقاء القبض عليها أمام عيني، كانت الفتاة مسؤولة عن إدخال عملة أجنبية إلى الحي، وكانت تحمل آنذاك ١٠٠٠$ يبدو أن التفتيش الذي كانت تشرف عليه نساء قد تمكن من اكتشافها، فخرجت الفتاة تركض حافية من غرفة التفتيش وهي تصرخ، وتمكن عناصر النظام من اللحاق بها قبل أن تصل جدار «الفرن»، الذي كان نقطة الفصل بين ما هو داخل الحي وخارجه، ثم قاموا بضربها وإهانتها على مرأى منا جميعاً كأنهم يتقصدون جعلها عبرة، بل قاموا بنزع حجابها وسحبها بطريقة مذلة إلى غرفة كان الجميع يعلم أن من يدخلها ينتهي معتقلاً.

أيقظ ذاك المنظر مخاوفي كلها، وبدأت يومياً أرى الكابوس نفسه، والذي كان فيه عناصر الحاجز يلقون القبض علي بتلك الطريقة المذلة، وزاد من خوفي أن المسؤول عن «التفييش» أخبرني أكثر من مرة في غير يوم أثناء وقوفي في طابور انتظار التفتيش أن أمرّ إلى غرفته عند الحاجز ليقوم بـ «ضرب فيش» لي، وهو ما يعني أخذ هويتك والتحقق فيما لو كنت مطلوباً لأيٍّ من الفروع الأمنية، لكني لم أفعل، فقد بات معروفاً أن ما يفعلونه هو اختيار أشخاص من الطابور لا على التعيين، وأن «التفييش» أول مرة ليس لمعرفة إن كنت مطلوباً أو لا، فلو كنت كذلك كان اسمك سيجد سبيله إلى قائمةٍ بيد أحد الضباط الذين تمر بطاقة هويتك أمامهم أثناء تحركك عبر الحاجز، فيقوم باعتقالك، وإنما هو الطريقة التي يتم فيها إرسال اسمك للمخبرين ليبدؤوا التدقيق في أمرك، وكتابة تقاريرهم التي تصبح على إثرها مطلوباً بلا شك، فكل من في الحي كان له قريب في صفوف الثوار على الأقل، وتلك تهمة أكثر من كافية لاعتقالك.

بعد تلك الحادثة توقفت عن حمل مواد إضافية شخصية أثناء تحركي عبر الحاجز، كعلبة دخان لزوجي الذي كان قد انضم إلى صفوف الجيش الحر منذ تحرير الحي، أو بعض الطعام لمنزلنا، وكنت أكتفي بالمطلوب تهريبه فلا أزيد حمولتي، ومن ثَمّ نسبة الخطر باكتشاف أمري. هكذا حتى جاء يوم في شهر آب/أغسطس من العام ٢٠١٥ أنبأني فيه شيء ما بداخلي أنه سيكون مختلفاً، وأنه لن ينتهي على خير، لذلك لم أجلب معي أي شيء ذلك اليوم، ولا حتى حبة دواء واحدة، وعدت إلى الحاجز يكاد قلبي ينخلع مع تزايد إحساسي بمصيبة تقترب، وسيكون على المصائب أن تتكرر مع شعور قلبي المسبق بها أكثر من مرة حتى أصدق أن لدي حاسة إضافية تنبئني بالخطر، وتجعلني أتصرف بناء عليها.

وصلت إلى الحاجز عند الظهيرة، ووقفت أنتظر دوري للتفتيش، وعلى الرغم من أن الدور ضم أكثر من ١٠٠ شخص وقفوا طابوراً أمام غرفة التفتيش، إلا أن انتظاري لم يدم طويلاً، وفاجأني عنصر اقترب مني يناديني باسمي ويطلب مني أن أتبعه ليقوم بـ «تفييشي»! أدركت حينها أني لن أغادر الحاجز باتجاه حيّنا المحاصر، وارتحت قليلاً أني لم أحمل معي ذاك اليوم أي مواد مهربة،

واستثمرت وقت الانتظار أمام غرفة «التفييش» لأقوم بمسح تطبيقات التواصل الاجتماعي والرسائل من جوالي، وكنت أود أن أكمل فأمسح الصور الشخصية قبل أن يطلبني للدخول ويسحب جوالي وأماناتي.

يخطر لي الآن كيف اخترت بلا تردد أن أبدأ بمسح المراسلات قبل ألبوم الصور، وهو ما يعني أني كنت أخشى أن يجدوا رسالة تشي بعملي في التهريب أكثر من خشيتي أن يرى أحد أولئك العناصر صوري الشخصية دون حجاب، وهذا أمر ليس بالسهولة التي يبدو عليها، والخيار فيه ليس محسوماً كما يبدو للوهلة الأولى، أعني أننا نتربى منذ ولادتنا على أن أهم أمانة لدينا هي خصوصيتنا تلك، هي شرفنا وشرف أهالينا، والذي يهون أمامه كل شيء، حتى الحياة نفسها، ولنحافظ عليه يجب أن نحتجب عن عيون الناس، فلا يرون منا إلا ما يرى الرائي في الطريق، ولا يسمعون منا تبسطاً في القول يغريهم بنا، لذلك ليس أمراً سهلاً أن تختار فتاة تربت على ذلك طوال عمرها مسح تلك المحادثات قبل صورها الخاصة، بل لعله يكون أكثر ما يمكن أن أشرح به حجم الخوف الذي تملكني حينها، الخوف من مصير تلك الفتاة التي رأيتها تسحل أمامي قبل أقل من أسبوعين على الحاجز نفسه، بل الخوف من مصير كل أولئك الذين مضت بسيرتهم قصص الرعب التي نشأنا نسمعها عن أشخاص دخلوا فروع الأمن وانقطعت أخبارهم، حتى باتوا ذكرى تعيش في القلوب والعقول دون أن تجري على الألسن إلا خلف باب مغلق، خشية أن يكون مصير الذاكر كالمذكور.

أدخلوني بعدها إلى الغرفة وحاول الضابط الذي كان لطيفاً طمأنتي بأنهم لا يريدون أكثر من استجوابي سريعاً في الفرع، ثم دخل عنصر واقتادني بطريقة مهينة أمام الموجودين على الحاجز ليعلم الجميع أنهم اكتشفوا «إرهابية»، وتلك تهمة كانت كافية ليخشى الجميع التعامل معي لاحقاً عندما أخرج.

أخذتني الدورية إلى فرع أمن الدولة، وهناك استقبلني سجانٌ ضخم البنية كان واضحاً من أنفاسه الكريهة أنه قد تناول شيئاً من الكحول، اقتادني حينها إلى غرفة في الفرع ثم طلب مني أن أخلع حجابي ومعطفي ليقوم بتفتيشي!

رجوته ألا يفعل، أو أن يجلب امرأة لتقوم بذلك، فقد كان الفصل صيفاً، وهو ما يعني أني لم أكن أرتدي شيئاً طويلاً تحت معطفي الطويل، لكنه أبى، وأصر أن يقوم هو بتفتيشي بطريقة مهينة لن أنساها ما حييت، ثم سمح لي بعد توسل أن أرتدي معطفي وحجابي قبل أن يرميني في منفردة مظلمة كان الجلوس فيها مستحيلاً، ليس فقط لضيقها الذي لم يكن ممكناً معه حتى ثني قدمي أثناء الجلوس، بل أيضاً لامتلائها دماً، تمكنت من شم رائحته أولاً، ثم عندما اعتادت عيناي الظلام رأيته بقعاً تغطي كل شيء، وكأن أحداً قام بتقطيع جثة فيها تمزيقاً لتتطاير الدماء فتكسو جدرانها وسُقُفِها.

تركني حينها الحارس في المنفردة دون أن يغلق الباب، وبعد فترة استجمعت فيها قوتي غادرتها لأكتشف المكان الذي كنت فيه، والذي كان عبارة عن ممر تنفتح عليه عدة منفردات شبيهة بتلك التي تُركت فيها، ويغلق عليها جميعها باب كبير. ولم يمضِ كثير من الوقت حتى فقدت قدرتي على التوازن والصبر، وانطلقت إلى الباب أضربه ملء قوتي ليخرجوني.. وقد فعلوا.

فتح لي السجان الذي قام بتفتيشي الباب وأمرني أن أطأطئ رأسي ولا أرفعه، ثم اقتادني عبر ممر تمكنت فيه بطرف عيني التي غالبت خوفي من مشاهدة شباب عراة غطيت رؤوسهم وقيدت أياديهم خلف ظهورهم في غرفة مفتوحة على الممر، وفي غرفة أخرى شاب عارٍ استلقى على الأرض يدوس رأسه محقق، حتى وصلت إلى غرفة جهزت كمطبخ مخصص للزنزانات فيما يبدو، وفيها انتبه السجان إلى وجهي الذي انسحبت منه الدماء، واستبدلت بها العروق فزعاً كان يمضي في كل جزء مني.. يحتلني.. ويظهر واضحاً على هيئتي.

سألته حينها عن تهمتي بعد أن آنست منه تعاطفاً، وأجابني: «التواصل مع إرهابيين.. المساهمة في تمويل إرهابيين.. وأني متزوجة من إرهابي..».

أنكرت الأمر بسرعة وأقسمت كذباً للمرة الأولى في حياتي.. أو لعله كان صدقاً بالنسبة إلي، فأنا لم أكن أساعد إرهابيين، بل أساعد أبناء حيّي، وزوجي ليس إرهابياً، بل ثائراً ومقاتلاً في صفوف الجيش الحر، الذي يقاتل الإرهابيين

حقاً.. النظام وجنوده.. لكني لم أقل ذلك، واكتفيت بالإنكار الذي أخبرني أنه لن يفيدني، وأني سأتعرض إلى ما لا تطيقه نفسي إن أنا أصررت عليه، وأنهم يعرفون كل شيء مسبقاً. حاولت حينها التذاكي وأخبرته أن من غير المعقول أن يقوموا باعتقالي لمجرد تقرير كتبه بي أحدهم، ومن غير المعقول أن يصدقوا ذاك التقرير الذي قد يكون من شخص موتور، ابتسم حينها وسألني إن كنت أعرف هوية صاحب التقرير؟!.

هززت رأسي نافية، ليخبرني بأنه «أبو فلان»!

كان الشخص الذي يتحدث عنه هو جارنا في الطابق الذي يعلو منزلنا، ورفيق سلاح زوجي في مجموعته التي ترابط في «الجزيرة السابعة»، أصعب جبهات حي الوعر وأكثرها اشتعالاً.. لكني لم أصدقه، واعتقدت أن ذاك نوع من الضغط النفسي، وليؤكد لي أنهم بالفعل يعرفون كل شيء مضى يصف لي شكل منزلنا وتفاصيلَ عن زوجي لم يكن ممكناً أن يعرفها دون وجود عين له في المنطقة، بل أخبرني بتفاصيل عن عملي ضمن تهريب الدواء، وهو ما جعلني أفقد ثقتي بكل من حولي، وأصدق أنهم يعرفون كل شيء، وأن الإنكار لن يفيدني.. وكان آخر ما «نصحني» به ذاك السجان بأن أجيب عن أسئلة المحقق كلها دون أن أكذب، ثم قام بإدخالي إلى غرفة التحقيق.

أخذت قراري بألا أكذب وأن أجيب عن كل سؤال يوجهونه إلي، فهم «يعرفون كل شيء مسبقاً»، وكان ما أخشاه حقاً هو أن يطالبوني بالتعرف على من يقومون بتسليمي الأدوية في مناطق سيطرة النظام من خلال صور يعرضونها، فلم أكن لأستطيع ـ ولو شئت ـ الاعتراف بأسمائهم التي لم أكن أعرفها، ولكن التعرف على صورهم كان أمراً يمكنني فعله، لكنهم أراحوني من ذلك عندما غطوا عيني عند باب غرفة التحقيق، فعلمت أن كل ما سيسألونني عنه لن أجد مشكلة في الإجابة عنه.

بدأ التحقيق ضابط استرسل بداية في ذكر معلومات دقيقة عن حياتي وزوجي ونشاطي في التهريب وما إلى ذلك، ثم بدأ يسألني وأجيبه دون أن أغير حرفاً واحداً من الحقيقة، وحين كان يسألني عن أسماء حقيقية كنت أنفي

معرفتي بها صادقة لأننا جميعاً كنا نتعامل بأسماء حركية، ثم سألني عن صديق لزوجي كان يدير إحدى النقاط التي تمر عبرها المواد الطبية إلى المشافي، ترددت قليلاً، ثم علمت أني لا أبالي حقاً، وأخبرته كل ما أراد.

يخطر لي أن الجميع شجعان حين يفكرون بشيء عن بعد، حين يخيّرون وهم جالسون في منازلهم بين أمرين يفترض أن يختاروا بينهما، بل ربما يكون الكثير منهم شجعاناً حقاً إذا كان الخيار بين أن يقدّموا حياتهم أو أن يؤذوا شخصاً آخر، لكن أن يكون خيارك بين الوشاية بشخص آخر، واعتقال عند أولئك الذين تعرف يقيناً أنهم مستعدون ليروك الجحيم واقعاً على هذه الأرض قبل أن يقتلوك، فلا أحد شجاع.. ومن يختارون التعذيب على الاعتراف أولئك قد جاوزوا الشجاعة والجبن وكل تلك الصفات الخاصة بالبشر، وارتقوا ليصبحوا أساطيرَ.. أشخاصاً من عالم آخر لم ندرك ندرتهم حتى عرضوا على ذاك الموقف، ولا أحسبهم كثراً.

اعترفت حينها بما يفعله ذاك الشاب، ولم يكن صعباً بعدها أن يعرفوا أن أختيه يساعدانه في توزيع تلك المواد، ولاحقاً علمت أن اعترافي ذاك كان السبب بأن تصبح أختاه مطلوبتين للأمن، وأن معجزة أنقذتهما من الاعتقال حين عرفتا بأنهما مطلوبتان، وانتهت بهما الدنيا واحدة مهجرة في إدلب، والأخرى بقيت في حمص بعد تسوية وضعها عند النظام لإنهاء ملفها.

انتهى التحقيق بعد عدة ساعات سألوا فيها عن كل شيء، وقلت فيها كل شيء، ثم تم إرسالي إلى زنزانة ضمت أربع فتيات أخريات كانت بينهن تلك التي رأيتها تُسحل أمام الحاجز قبل اعتقالي بأيام، وكنت قد اخترت تصديق أني سأخرج بعد يومين إن أنا اعترفت بكل شيء في التحقيق كما أخبرني السجان، لكن الفتيات في الزنزانة أخبرنني بعد أن سخرن من سذاجتي أن أقلّ ما يقضيه شخص في الفرع هو ١٥ يوماً «على ذمة التحقيق».

تم استدعائي بعدها للتحقيق مرتين على عجالة للتأكد من تفصيل ذكرته، أو معلومة جديدة وردتهم، ولم أتعرض خلال إقامتي في الفرع لأي تعذيب جسدي، بل لم يقم أحد بصفعي، لكني شاهدت فتاة في الخامسة والعشرين

من عمرها تعود إلى الزنزانة بعد أخذها إلى التحقيق وقد أُدميت من شدة الضرب، ثم عادوا ليأخذوها بعد ساعتين دون أن نراها مجدداً، وتم إخبارنا أنها متهمة بتفجير ما.

وبعد أسبوعين قضيتهما في فرع أمن الدولة تم تحويلي إلى فرع الأمن السياسي، والذي تم فيه تكرار التحقيق نفسه بنفس الأسئلة من الفرع السابق، ولأني اعتدت الإجابة عن تلك الأسئلة لم يدم التحقيق أكثر من ساعتين، ولم يطل بقائي في الفرع أكثر من ثلاثة أيام، تمت إعادتي بعدها إلى فرع أمن الدولة.

حينها أخبرتني المعتقلات بأن عودتي ليست أمراً جيداً، وأن ذلك قد يعني تحويلي إلى «سجن صيدنايا»، وصيدنايا هي النهاية فعلاً، هي المكان الذي يدخله المعتقل ليكتب فيه اسمه شهيداً أو مجهول المصير، وبدأت تأتيني حالة عصبية يُشل فيها وجهي ويداي، ويثقل لساني حتى لا أستطيع تحريكه، وأبقى عدة ساعات تقريباً على تلك الحال حتى يزول الشلل.

تلك الأيام بعد عودتي من السياسية كانت بحق أسوأ أيام حياتي، وفيها فقدت الأمل بالحياة نفسها التي بدأت أتودع منها، لكنها أيضاً كانت أجمل أيام حياتي من ناحية كنت قد نسيتها أياماً، فقد بدأت أرى ذاك المنام عن ابنتي وأسمع صوتها تناديني، صوتها الذي تمنيت منذ اللحظة التي رأيتها فيها أن أسمعه، ثم حرمتني إياه صواريخ النظام.

كنت متيقنة حينذاك أنها لم تكن تشتاقني، وأنها اعتادت بعد عامين أمضتهما مع والديّ على صحبتهما، بل لعلها اعتقدت أنهما هما والداها، وأني مجرد صديقة لهما كانت تزورهما ساعة كل يوم، ثم اختفت لاحقاً. وعلى الرغم من المرارة التي تركها ذلك الشعور في نفسي، إلا أني كنت مرتاحة لفكرة أنها لن تعاني فقدي.. ولأول مرة تخطر لي فكرة أني قد لا أراها مجدداً، وأن صوتها لن يكون الشيء الوحيد الذي سأتمناه، بل حتى وجهها ورائحتها وملمسها.. كل ذلك لن أحس به مجدداً، واكتشفت كم كنت غبية وقاسية حين اخترت تركها

عند أهلي والتفرغ لمساعدة أشخاص آخرين.. أشخاص نسيت صورهم وأسماءهم في ذلك المكان، وتذكرتها هي فقط.

ربما كان لذلك المكان حسنة واحدة نهاية الأمر، ففيه ترى الأمور بوضوح، وتعيد ترتيب أولوياتك بوضوح أيضاً، وتعرف بدقة أي الأشياء هي ما يجب أن تبذل فيها وقتك وجهدك، وما هي الأمور الثانوية التي لا يجب الانصراف لها مهما عظمت دون أن تنتهي من أولوياتك، وأقسمت أني إذا كُتبت لي النجاة بعدها فلن أترك ابنتي تفارقني ما حييت، وسأجعلها تعرف تماماً أنني أنا والدتها، وسأصرف وقتي وجهدي وما أملك ليعود لها سمعها ونطقها، ولأسمع صوتها تناديني كما فعلت في الحلم.

كانت الأيام تمضي ثقيلة في الفرع الذي عدت إليه، ولم أفهم تماماً سر عودتي الغريبة حتى بالنسبة إلى المعتقلات الأقدم مني، واللواتي وجدن عودتي أمراً نادراً، ولم أكن أدرك حينها أن زوجي قد بدأ يفاوض على إخراجي ضمن صفقة يقوم بها فصيله مع مجموعة شيعية أجنبية، كما لم أدرك أن والدي وأعمامي قد وضعوا لي محامياً للعمل على قضيتي، والمحامي في بلادنا هو سمسار أكثر منه محامياً فعلاً، وما يفرق بين الجيد والسيئ منهم ليس قدرة المحامي على معرفة ثغرات القضايا والترافع فيها، بل معرفة من يجب أن يدفع له المال وكم يدفع للحصول على ما يريد، ويبدو أن المحامي الذي عينه والدي كان أحد أولئك الجيدين، فقد عرف لمن يدفع المال حتى أنتقل إلى الأمن الجنائي بعد شهرين ونصف تقريباً من اعتقالي. وعلى الرغم من أن لا شيء جديداً في التحقيق الذي أعادوا فيه في ذاك الفرع نفس الأسئلة التي تعودت عليها، إلا أن تعاملهم كان أسوأ تعامل بين تلك الفروع، وكان علي أن أقف أمام محققَين فتحا جوالي وجلسا يشاهدان صوري الشخصية أمامي وهما يصفان لي ما يشاهدان، وكيف يثيرهما ما يشاهدان، ثم وجها لي عدداً من اللكمات التي لم تكن قوية بما يكفي لتسمى تعذيباً كما يعرّف السوريون التعذيب، واكتفيا بذلك قبل أن يعيداني إلى زنزانة في الفرع، خرجت منها بعد أربعة أيام إلى المحكمة.

عند وصولي إلى المحكمة استقبلني المحامي الذي وكله والدي، وطلب مني توقيع توكيل له وطمأنني بأني سأخرج يومها، ثم رأيت أعمامي الذين جاؤوا بدلاً من والدي معتل الصحة ليأخذوني بعد انتهاء محاكمتي، والتي بدأها القاضي بإهانتي على خيانة بلادي وبيع نفسي والإسهام بالمؤامرة، ثم أرسلني للانتظار قبل أن يستدعيني مرة أخرى بعد أن دخل إليه المحامي ويبدأ بنصحي كأب حنون يريد مصلحة أبنائه، فطلب مني أن أعده ألا أعود لأي نشاط شبيه، ثم وقع أمراً بإخلاء سبيلي، لأخرج إلى أعمامي الذين احتضنت كبيرهم طوال الطريق إلى المنزل أبكي أنا وهو حتى وصلنا.

وحين وصلت وجدت والدي وابنتي يقفان وسط شارع منزلنا ينتظران قدومي، احتضنت والدي الذي بكى عندما شاهدني، ثم حملت ابنتي التي تأملت للحظة أن تنطق اسمي.. لكنها لم تفعل، ثم دخلنا المنزل لأجد والدتي التي انهرتُ في حضنها فور مشاهدتها، وكتبت لقصة اعتقالي نهاية سعيدة أخيراً.. أو هكذا ظننت.

كنت قد كلمت زوجي المحاصر في الوعر من جوال عمي في أثناء طريقنا إلى المنزل، ولفت انتباهي أن عمي شتمه عندما رأى اسمه على الشاشة، لكني لم أفهم السبب، ثم أدركت لاحقاً أن هناك مشاكلَ بينه وبين أهلي على خلفية اتهامهم له بالتسبب باعتقالي، كما اتهموه بالتقصير في السعي لإخراجي، لكن ذلك لم يكن صحيحاً، أعني أن زوجي باع كل ما لديه واستدان فوقه ليحاول دفع رشوة للإفراج عني، ثم عندما لم تنجح تلك المحاولة بدأ بالعمل على وضع اسمي ضمن صفقة تبادل، لكن المحامي الذي وضعه والدي كان أسرع، وتمكن من إخراجي دون الحاجة إلى الصفقة.

قضيت بضعة أيام مع والديّ كنت أرى فيها تغامزهما يريدان سؤالي عن أمر دون أن يجرؤ أي منهما على ذلك، حتى نطقت والدتي أخيراً السؤال الذي أجلته كثيراً: «صار معك شي.. بالمعتقل؟».

لم يكن والداي الوحيدين اللذين كانا يتهيبان ذاك السؤال، فقد كنت أعلم أنهما يتحرقان ليعرفا إجابته، وكنت أمني النفس أنهما لن يضطرا لطرحه، ولا

أعتقد أن معتقلة خرجت من اعتقالها إلا واضطرت للتعامل مع موقف شبيه بكل ما فيه من إحراج.. بل وإهانة، بغض النظر عن كون شيء مما يتخوف منه الأهل قد حدث أم لا، إلا أن السؤال وحده كان مهيناً.

طمأنت أهلي أن شيئاً مما يخشيانه لم يحدث، ثم كان علي أن أواجه ذاك السؤال مرات ومرات من أقربائي وجيراني.. لكنه كان أسوأ وأكثر إهانة عندما سأله زوجي، وذلك بعد أن دخلت حي الوعر بعد ستة أشهر لأمضي فيه أيام العيد الثلاثة معه، بعد فترة كان تواصلي معه عبر الهاتف شحيحاً بسبب ظروف التغطية.

أخبرته حينها أن ذلك لم يحصل، وأن أحداً لم يقترب مني في المعتقل، وبدا أنه ارتاح للإجابة بادئ الأمر، وبدا أن مشكلتي الكبيرة كانت مع جيراني في الحي، والذين كانوا يتحاشونني، بل إن بعض أعز جاراتي وصديقاتي في الوعر تجنبن السلام علي، وأبلغتني إحداهن عبر مرسال أن الاقتراب مني قد يشكل خطراً عليهن، ويكون سبباً في اتهامهن بالعمل ضمن التهريب، الذي سيعني اعتقالهن عند تحركهن عبر الحاجز.

خرجت بعد ثلاثة أيام لرؤية ابنتي التي تركتها عند والدي، ثم عدت بعدها بيومين إلى الوعر ليخيّرني زوجي بين الاستقرار في الوعر أو في منزل والدي، والتوقف عن التنقل عبر الحاجز حتى لا يتم اعتقالي مرة أخرى، واخترت البقاء مع ابنتي لدى والدي، والتي أقسمت أني لن أفارقها.

كانت مشكلة تحاشي محيطي لي ليست مقتصرة على حي الوعر، فحتى صديقات طفولتي وبنات عمي اللواتي نشأت معهن في حي القصور تحاشينني، وسمعت من غير واحدة منهن أني جلبت العار لهن، بعد أن باتت قصة اعتقالي معروفة، وكان من المفروغ منه حينذاك أن المعتقلة لا بد ستكون مغتصبة، والمغتصبة في عرفنا البالي «مذنبة».

لم أفهم كيف تمكن مجتمع كامل من التواطؤ على الجمع بين متناقضين هكذا، أعني أن الاغتصاب فكرة تقوم أساساً على سلب إرادة شخص ما، أما

الذنب فيرتبط بفعل خاطئ يرتكبه شخص ما بإرادته، والجمع بين إرادة وانتفائها ليس أمراً منطقياً، فضلاً عن كونه ليس عادلاً.

كنت أحس بالغيظ يأكلني، لماذا يكلفن أنفسهن عناء سؤالي عما حدث لي مع كل ما يعرفنه من ثقل ذاك السؤال إذا كن قد اخترن الإجابة مسبقاً بغض النظر عن إجابتي؟ ولماذا يجب أن يقفن موقفاً يحملنني فيه تبعات أمر لا ذنب لي فيه؟ ولماذا يكن قاسيات لدرجة يجعلن فيها من سعيي لإدخال مواد طبية عاراً يحاسبنني عليه، وأستحق لأجله التقريع بل والمقاطعة؟

قررت حينها أن لا أقارب لي، وأني مكتفية بوالدي وإخوتي الذين وقفوا إلى جانبي حقاً، وكنت أتمنى أن يكون زوجي من دائرتي تلك، لكن المشاكل بيننا لم تتوقف، وبات سؤاله عما حدث لي في الاعتقال متكرراً، وكان واضحاً أنه لا يصدق أن شيئاً لم يحصل لي، ولم أعرف ما الذي يمكن لي عمله، كان يكرر أنه يريد الحقيقة فقط، وأن لا مشكلة لديه حتى لو كان شيء ما قد حدث، حتى وجدت نفسي قريباً من أن أكذب وأخبره أني اغتصبت بالفعل، لعل ذلك ينهي أسئلته التي ضاقت بها روحي، لكني قدرت أن مشكلته ليست فيما لو كنت أخبره الحقيقة أو لا، بل مشكلته الحقيقية هي الاعتقال نفسه، مشكلته هي أني «انكشفت» على رجال غيره، وكم كنت أود لو أخبرته أنه إن كانت تلك مشكلته فعلاً فلربما كان عليه التفكير ملياً قبل أن يسمح لي بالتحرك عبر الحاجز والنشاط في التهريب، حتى لو كانت تلك فكرتي بداية، لكنه كان منتفعاً منها، خاصة عندما كنت أجلب له سجائره وبعض المواد الغذائية المفقودة من الحي، لكن كل ذلك لم يكن ليفيد، وكان الحل الوحيد الممكن بيننا هو الانفصال، بعد فقدان ثقته وبعد ما أحسست به من إهانة في كلماته وأسئلته، بل ما أحسست به من تخلٍّ عني في اللحظة التي كان كل ما أريده فيها زوجاً يتفهمني.. يطبطب على حزني.. ويجبر كسر قلبي.. لكنه كان أبعد ما يكون عن ذلك.

بعد الانفصال استقررت مع والدي في القصور، وباتت حالة الشلل المؤقت التي أصابتني في السجن مرتين أو ثلاثة حالة مزمنة تصيبني كل عدة أيام، حتى

قرر والداي أن يدفعاني لاستكمال دراستي الجامعية، علّي بذلك أنسى ما أحس به، وتغادرني تلك الحالة. وبعد شهر من دوامي في الجامعة اكتشفت أني لم أعد قادرة بعد كل شيء على الدراسة مرة أخرى، وانقطعت عن الدوام، وقررت أن أبحث عن عمل أصرف منه على نفسي وابنتي، التي كان والدها يرسل لها مبلغاً شهرياً يغطي بالكاد احتياجاتها، وبدأت العمل في معرض مفروشات لدى أحد معارفنا، وتفرغت لابنتي التي عادت لتتعرف علي أمّاً من جديد.

كنت حينها قد بت متيقنة أن إحساسي بخطر قادم لا يخطئ، لذلك عندما داهمني ذاك الإحساس بأني مطلوبة للأمن أواخر العام ٢٠١٦، أخبرت مدير المعرض الذي أعمل به، والذي امتلك علاقات جيدة بالأمن، وعلى الرغم من أنه استبعد أمراً كهذا، خاصة أني أعمل لديه منذ عام لم تأتِ فيه دورية واحدة للسؤال عني، إلا أنه طلب من أحد معارفه السؤال عني، وكانت مفاجأته كبيرة حين جاءه الرد بأني مطلوبة فعلاً، وأن لي اسماً معمماً على الحواجز منذ مدة، ولكن لأني لم أكن أستقل أية مواصلات في المدينة، ولم أكن أمرّ على حواجز فيها كل مدة إقامتي تلك، فقد نجوت من الاعتقال.

قام مديري بدفع مبلغ مالي لأحد السماسرة حتى يزيل اسمي من قائمة المطلوبين المعمّمة، ثم أخبرني أن الاسم الذي أزيل اليوم ربما يعود غداً، فمصدر جل تلك الأسماء تقارير أمنية، وما دام هناك شخص قام بكتابة تقرير بي فسيعود ليكتب التقرير مرة أخرى، ولذلك يكون الحل الوحيد أن أغادر المنطقة كلها.

كانت حينها المفاوضات بين الثوار والنظام قد وصلت إلى نهايتها في حي الوعر، وبدأت بنود اتفاق التسوية التي تقضي بخروج الثوار وعوائلهم ومن يشاء الخروج معهم باتجاه ريف حلب الشمالي بالتسرب، وقررت حينها أن أدخل حي الوعر مع ابنتي للمرة الأخيرة، وأخرج مع قوافل المهجرين إلى الشمال السوري، ومن ثم إلى تركيا.

دخلت حي الوعر بدايات العام ٢٠١٧، لأتفاجأ عند دخولي برؤية الرجل الذي أخبرني السجان أنه من كتب التقرير بي عام ٢٠١٥، والذي كان مقاتلاً

في الجيش الحر مع زوجي يقف على حاجز النظام الرئيسي على مشارف الحي، يلبس بدلة جيش النظام العسكرية، ويحمل بندقية، وتأكدت حينها أنه فعلاً من قام بكتابة التقرير، وأنه كان طوال ذلك الوقت مخبراً بين صفوف الثوار.

شاهدني هو أيضاً وحاول اللحاق بي، لكني تمكنت من أن أدخل الحي قبل أن يتمكن من إمساكي، وصرخت من بعيد أخبره أن الفرصة ضاعت عليه، وأني سأغادر إلى تركيا، فقد كنت أعلم أنهم لن يستطيعوا المساس بمن يتحرك ضمن قوافل المهجرين.

وفي آذار/مارس خرجت ضمن أول قافلة غادرت الحي باتجاه جرابلس في ريف حلب الشمالي، ومنها دخلت عبر طرق التهريب إلى تركيا، التي أعمل فيها اليوم ضمن روضة لتعليم الأطفال، وأحاول فيها التأقلم مع حياتي الجديدة التي انقطعت فيها عن محيطي كله باستثناء عائلتين، أسرتي التي وقفت بجانبي حقاً ولم تتخلَّ عني، والمعتقلات السابقات اللواتي يعرفن جيداً معنى أن يتخلى عنك الصديق والقريب، ويصبح أقسى عليك من سجان المعتقل نفسه، فكنَّ حقاً عائلة ثانية لي ولابنتي التي ترافقني في غربتي هذه، وقد بلغت اليوم العمر الذي شاهدتها فيه في ذاك الحلم.

اشتريت لها فستاناً أزرق، وجدلت شعرها كفراشتين، وبدأت معها مسيرة علاج طويلة معقدة، أوقن أن نهايتها ستكون سماع صوتها.. وأن صوتها سيكون هو نفسه الذي سمعته في ذاك الحلم يناديني: «ماما.. تعي لعندي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

القصة السادسة

قارئة الفنجان

جمع الناس ما قدروا عليه من أثاث منازلهم وأشيائهم الثمينة، ثم خرجوا أرتالاً تحملهم سيارات النقل وأقدامهم لمن لم يجد ما يقله، وبدا المنظر مشهداً من مشاهد التغريبة الفلسطينية التي أبدع «حاتم علي» في تصويرها.

وعلى الرغم من أن ذاك المنظر ذكرني بدعائي وأنا طفلة في الثانية عشرة من عمرها: «يا رب سوريا كلها تصير نازحة»، بعد أن وصفتني موجهة المدرسة بـ «النازحة النوَرية»، إلا أنني لم أشعر أبداً أني سعيدة بتحقق أمنيتي، بل شعرت بالضيق الشديد، لأني أدركت حينها أن كل هؤلاء سيكون عليهم أن يعيشوا ما عشناه طوال عمرنا كـ «نازحين»، وهو ليس بالأمر الذي يحب التلفزيون الرسمي تصويره كحالة تكافل اجتماعي تذوب فيها الفروقات، ويقف فيها السوري إلى جانب أخيه السوري في محنته، بل هي حالة من القهر المستمر في كل تفصيل من تفاصيل الحياة، التي تذكرك جميعها أنك «نازح من الجولان»، وأن وجودك «غير مرغوب فيه»، وسيكون علي أن أعيش حياتي كلها أشاهد ذلك الخط الفاصل بيننا وبينهم، بين النازحين وأبناء البلاد الذين طالما نظروا إلينا كشعب آخر، فضلوا ألا يتزوجوا منه ولا يتعاملوا معه، وتمنوا دائماً أن لا يكون موجوداً.

كل ذلك سيتغير، وستصبح البلاد بما فيها ومن فيها بين نازح ومهجر ومقهور، ولن يعود هناك فرق كبير من أي المناطق أنت قبل النزوح، وسيصبح معيار التفاضل الوحيد بين السوريين هو إلى أي منطقة نزحت أو هاجرت، فقاطن مخيم في البلاد ليس كقاطن مخيم في دولة مجاورة، ونازح إلى الساحل

ليس كنازح إلى الشمال في إدلب وريف حلب، ولاجئ في تركيا ولبنان ليس كلاجئ في أوربا.

كنت واحدة من أبناء الجولان السوري الذي يحتله الصهاينة منذ ستينيات القرن الماضي، والذين اختاروا مغادرة أرضهم إلى عاصمة بلادهم دمشق، ريثما يقوم جيش البلاد بتحرير الأرض المستلبة، لكن ذلك لم يحصل، ومضت الأيام التي سيلعن فيها أبناء الجولان تلك اللحظة التي اختاروا فيها النزوح من أرضهم، بعد أن عرفوا أن البقاء تحت سلطة الاحتلال الصهيوني أفضل من النزوح إلى بلادهم تحت سلطة نظام الأسد، الذي كان على الرغم من كل الكلام الممجوج عن القضية المركزية والصراع مع الصهاينة يعامل أبناء الجولان بنفس الطريقة التمييزية التي عاملهم المجتمع بها، ولا أنسى ما حييت أختي التي تكبرني، والتي كان حلم حياتها أن تدخل الكلية الحربية سيزاً على خطا والدي الذي كان ضابطاً في الجيش ضمن مرتبات الفرقة العاشرة، وبعد انتهاء امتحانات الثانوية العامة، ونجاحها في الفحوص الطبية والرياضية، عُرضت على لجنة تضم ضباطاً أخبرتها فيها الضابطة رئيسة اللجنة بلؤم: «مين قلك بدنا منكن إنتو بالكلية؟»، ثم صرفتها دون أن تسألها أي سؤال في المقابلة التي تعد المرحلة المفصلية في قبول الانتساب إلى الكلية، ليضاف ذاك الموقف إلى عشرات المواقف التي شهدتها، والتي كانت تؤكد لي الحقيقة التي يعرفها الجولانيون جميعهم، بأن هذا النظام لا يهتم حقاً لأبناء الجولان وقضيتهم.

كانت الحياة صعبة بما يكفي بالنسبة إلى أي من أبناء الجولان النازحين، لكنها كانت أصعب علينا، فقد توفي والدي مبكراً عن عمر ٤٩ عاماً، مخلفاً وراءه راتبه التقاعدي الذي لم يكن يكفينا ثمن الطعام حتى، وكان علي أن أعيش منذ تلك اللحظة إحساس اليتم، الذي كان سيكون أصعب بكثير لولا جدي الذي أخذ مكان والدي في الإشراف على تنشئتنا، دون أن يمتلك القدرة ليعيلنا مادياً. ولأن الأولاد في عائلتنا كانوا أصغر منا نحن البنات، فقد كان علينا أنا وأختاي اللتان تكبرانني أن نبدأ العمل مبكراً، وجربت منذ الطفولة الشقاء ضمن معامل «قمر الدين» ثم معامل «البطاطا الشبيس» وغيرها من المهن، حتى استقررت على العمل «كوافيرة» نسائية، وتركت الدراسة في الصف

التاسع دون الحصول على شهادته، وتفرغت للعمل، مودعة أحلام طفولتي التي حصرتها بين دراسة التاريخ أو دخول الكلية الحربية لأصبح ضابطة، وأساهم في تحرير الجولان، ذلك قبل أن أدرك أن نظام الأسد وجيشه لن يكون يوماً سبيلاً إلى التحرير.

كنا نعيش في منطقة «السيدة زينب» في دمشق، والتي امتلكت خصوصية كبيرة كونها تضم أعداداً كبيرة من النازحين، فضلاً عن كونها تضم عدداً من الشيعة الذين تضخمت أعدادهم إبان حرب العراق، وتحولوا من أعداد قليلة كنا كأطفال نتجمع لنشاهد احتفالاتهم في عاشوراء، إلى طائفة بات وجودها ثقيلاً على محيطها، خاصة مع المعاملة التمييزية التي كانت تحبوها بها سلطات النظام مقارنة مع السنة؛ ففي الوقت الذي كان يسمح لها فيه بافتتاح الحوزات و«الجمعيات الخيرية» التي انتشرت في الحي والأحياء المجاورة، كان يضيّق على المشيخة السنية في المدينة ككل وفي الحي خصوصاً، بل إن فروع النظام الأمنية وبعد تفجير فرع فلسطين في القزاز عام ٢٠٠٨، باتت تلاحق كل شاب ملتحٍ أو مواظب على الصلاة في المساجد، في وقت تسمح فيه بحراك الحوزات الشيعية، التي نشطت في تشييع المجتمع في الحي ومحيطه، وستظهر أهمية ذاك النشاط جلية بعد انطلاق الثورة السورية حين شكلت معظم تلك الحوزات والجمعيات الشيعية ميليشيات قاتلت إلى جانب النظام في معركته ضد السوريين، إذ كان لها دور كبير في منع انهياره في منطقتنا «جنوب دمشق».

بدأت مبكراً منذ ترك المدرسة التركيز على عملي ككوافيرة، ووضعت لنفسي هدفاً أن يصبح لي اسم معروف في مجالي في المنطقة، وأن أمتلك صالوناً خاصاً بي، وصرفت وقتي وجهدي كله للوصول إلى ذلك الهدف، الذي حققته أخيراً عندما تمكنت من شراء صالون صغير كنت أعمل فيه، وبدا أن الحياة ستبتسم لي أخيراً، وزاد من ارتياحي ذاك الشاب الذي كان منذ تعرفي عليه بداية العام ٢٠٠٩ سندي وأهم دافع لي في تحقيق أهدافي، حتى أصبح شكل الحياة «السعيدة» التي تصورتها هي حياتي إلى جانبه، زوجين نبدأ أسرة ووعداً بالسعادة، ولم يكن أي شيء يقف عائقاً أمام تلك الحياة إلا قليل من الوقت فقط احتجته لترتيب عمل صالوني الجديد، واحتاجه ليرتب أموره قبل التقدم

لخطبتي، ولم نكن ندرك حينها ما تخبئه لنا الأيام التي ستبدأ ربيعاً عربياً، وستنتهي ـ أو لعلها لم تفعل بعد ـ شتاء ثقيلاً.

كانت صحة جدي قد بدأت بالتدهور أواخر العام ٢٠١٠، بالتزامن مع انطلاق ثورة تونس، والتي كان حديث الجميع معها عن اقتراب ثورة مماثلة في سوريا. وعلى الرغم من كل القهر الذي عشته في البلاد إلا أني لم أكن أبالي حقاً فيما لو حصلت ثورة في سوريا أو لا، ربما لأني لم أكن أحس بانتماء حقيقي لها، لكن جدي الذي عاش النزوح من قريتنا في الجولان كان يرى أن الثورة تحصيل حاصل، وكان يدرك جيداً أن النظام في سوريا لا يشبه أي نظام آخر، وأن الثورة حين تنطلق في هذه البلاد سيكون عليها أن تأكل أبناءها ومدنها.

أذكر تماماً المرة الأولى التي شاهدت فيها مظاهرات من درعا تبثها قنوات التلفزيون، حينها لم أصدق أن ما أراه يحدث حقاً، وشككت أن المشاهد التي تبثها القنوات كانت من تونس أو دولة أخرى، ولم أتصور أن تكون تلك الجموع الحاشدة في درعا فعلاً، وعلى الرغم من أن لي أقاربَ يعيشون فيها إلا أني لم أكن أجرؤ على الاتصال بأي منهم، حتى عندما اتصل قريب لي من ألمانيا يريد الاستفسار عما يجري أكدت له أن أياً مما تبثه القنوات ليس صحيحاً، وكان علي أن أنتظر أياماً فقط لأشاهد المظاهرات تصل إلى منطقتنا، وفي غضون أسابيع قليلة باتت «جنوب دمشق» التي كانت تضم أحياءً من المدينة مع بعض المناطق التابعة تنظيمياً لريف دمشق جنوب العاصمة منطقة ثائرة، تخرج فيها المظاهرات سيولاً بشرية كل يوم جمعة، أما جدي فقد استمر يكرر تحذيره لنا منذ بدء المظاهرات بألّا نشارك، وأن ما سيحدث في سوريا لن يشبه غيرها.

استمرت المظاهرات حاشدة في المنطقة، وانقلبت لا مبالاتي إيماناً بانتمائي إلى البلاد، ورغبة جامحة في المشاركة في رسم مستقبلها الذي لن يشبه الحال التي نشأت أعايشها، وسيكون السوري في كل مكان سورياً لا فرق بين نازحه ومقيمه، لكني لم أشأ أن أعصي والدتي التي تسلمت تحذيرنا من المشاركة مكان جدي بعد موته أواسط العام ٢٠١١، حين أحسست باليتم للمرة الثانية في حياتي، بعد يتمي الأول مع موت والدي، ولم يبقَ لي في الدنيا من أحس

به يسندني إلا «أبو عمر»، حبيبي الذي حمل السلاح بدايات العام ٢٠١٢ ضمن صفوف الجيش الحر، مؤجلاً بذلك ارتباطنا الذي كنت أنتظره ثلاثة أعوام حينذاك.

كان الجيش الحر قد بدأ عمليات مواجهة بسيطة مع دوريات أمن النظام وجيشه، ولم تتوسع تلك العمليات إلى مواجهات مفتوحة حتى أواسط العام ٢٠١٢، التي شهدت عدة معارك استشهد في إحداها ضابط منشق من أبناء الجولان أواسط تموز/يوليو خلال شهر رمضان، لتخرج مظاهرة حاشدة تشييعاً له في حينا «حجيرة»، والتي كنت أشاهدها من سطح منزلنا وأتمنى لو استطعت المشاركة فيها، حتى قرر النظام قصف المظاهرة بصاروخ طائرة بعد مغيب الشمس مخلِّفاً مجزرة حقيقية قدر البعض ضحاياها بالمئات.

لم ينم أحد في جنوب دمشق كلها ذلك اليوم، ولأن أختي ممرضة فقد رافقتها إلى مسجد قريب جُمع فيه الجرحى، وبدأ الناس يُخرجون من منازلهم اللحف والأدوية والأقمشة وشواحن الإضاءة بعد أن انقطعت الكهرباء، كما بدأ آخرون يجمعون الجثث التي كان كثير منها مزقاً، فأطراف دون جسد، ونصف جسد، وقطعة لا يعرف من أي مكان من الجسد هي.

بقيت دقائق أحاول استيعاب المنظر، ودقائق أخرى أحاول فيها التحامل على عدم إطاقتي منظر الدم، حتى قررت أني لن أتمكن من المساهمة في أي شيء، وعدت إلى المنزل الذي جلستْ فيه أمي تصبّر نفسها وهي تنتظر خبراً عن أخي المشارك في المظاهرة، والذي لم يأتِ حتى وقت متأخر كانت فيه أمي قد استنزفت دموعها. وفي اليوم التالي غادرنا المنطقة نازحين كما فعل جلُّ أبنائها، في مشهد لن أنساه ما حييت، ذكرني لحظتها بمسلسل التغريبة الفلسطينية. وللمفارقة فقد نزح الكثير من أبناء الحي الذين كان معظمهم نازحين من أبناء الجولان أساساً باتجاه القنيطرة الملاصقة للجولان، والتي أبقى النظام على الدمار الذي خلفه الاجتياح الصهيوني لها موجوداً، ليستمر باستلام مساعدات الأمم المتحدة التي كانت تأتيه دورية لتصل أبناءها كما يفترض، لكنهم لم يكونوا يتحصلون منها إلا على الشيء اليسير.

اختارت والدتي خان أرنبة مكاناً لنزوحنا عند قريبة لها، والتي بقينا عندها أربعة أيام كان علي العودة بعدها إلى جنوب دمشق بعد رسالة أرسلها ابن عم لي تخبرني أن «أبو عمر» استشهد.

بكيتُ أبا عمر طوال طريق العودة الطويل كأني أبكي زوجي، وأحسست باليتم للمرة الثالثة في حياتي، لكنه حينذاك كان يتماً دون سند بديل. وصلنا إلى حي «سبينة» في المساء بعد أن عجزنا عن دخول «حجيرة» التي كان جيش النظام يمشطها آنذاك، ولخمسة أيام تقريباً كنت أحاول الوصول إلى المنطقة التي استشهد فيها دون أن أنجح في ذلك. كنت أريد زيارة قبره فقط، فأكتب خاتمة لحب ملك قلبي ثلاثة أعوام ونصف، ثم جاءني اتصال من أحد معارفي الذي كان أشبه بأخ لي يطمئن علينا، وحين أحس حزناً في صوتي سألني ما بي، وأخبرته بأن الشخص الذي أعلمته سابقاً بقصتي معه قد استشهد، ولم يكن يعرف حينها من هو، وحين أبلغته الاسم أخبرني أنه سيكلمني بعد نصف ساعة، وبعد نصف ساعة اتصل بالفعل، ليخبرني أن شخصاً قربه يريد السلام علي، وكان الصوت الذي سمعته هو صوت «أبو عمر».

عاد إلى قلبي خفقانه مع أنفاسه التي أحسست بها تعبر سماعة الهاتف إلي، وفهمت منه أن قصفاً استهدف مقره استشهد فيه عدد من رفاقه، لكن وجوده في الحمام الصغير تحت بيت الدرج أنقذه من مصيرهم، وأن الخبر الذي انتشر على صفحات التواصل الاجتماعي لم يكن حقيقياً.

ثم تمكنت بعد أسبوع من لقائه عندما عدنا إلى حجيرة، إثر خروج جيش النظام منها، والذي عاد مرة أخرى برفقة مخبرين ملثمين لتمشيطها أثناء وجودنا فيها، ولم يتمكن أخواي من مغادرة المنزل حينها، وكان عليهما أن يجلسا فيه ينتظران دخول عناصر الجيش الذين سيعتقلون الكبير بينهما بلا شك بسبب تخلفه عن الخدمة الإلزامية التي كان أخوه الأكبر ـ الذي يصغرني بعامين ـ يقوم بها آنذاك، لكن أحد الملثمين المرافقين لهم أخبرهم عندما وصلوا منزلنا أنه لا يضم إلا امرأة وبناتها، وأن لا أولاد عندها، لتمر الدورية بسلام.

وقضينا الفترة التالية نتنقل بين مناطق جنوب دمشق من منزل إلى آخر، خلال عمليات الكر والفر بين الثوار وقوات النظام، فلم يكن لدينا قدرة استئجار

منزل حينها، لذلك أمضينا حياتنا تنقلاً بين منازل أقربائنا، وكان لي حينها اتصال يومي مع أكبر إخوتي الشباب الذي كان قد بدأ خدمته الإلزامية ضمن جيش النظام قبل انطلاق الثورة بأشهر في الفرقة ١٧ في محافظة الرقة، وبقي ضمن صفوفه خلال الثورة بعد أن تعذر عليه الانشقاق، حيث انتقلت فرقته إلى محافظة دير الزور لقمع ثورة أهلها، والتي يبدو أن اشتباكات فيها مع الثوار أصابته برصاصة في بطنه، نقل على إثرها إلى مستشفى تشرين العسكري في دمشق في أيلول/سبتمبر عام ٢٠١٢، ليقوم بالاتصال بي وإخباري أنه مصاب في المستشفى، الذي تمكنت مع والدتي وعمتي من الوصول إليه صباح اليوم التالي، بعد رحلة قضينا نصفها مشياً على الأقدام، ونصفها مع سائق سيارة أجرة، سهلَت قصتنا عن وجهتنا لزيارة ابننا المصاب ضمن صفوف جيش النظام، مرورنا عبر الحواجز، وتمكنا من الدخول إليه وزيارته، ليكون أول ما تسأله أمي له بعد احتضانه إن كان قد أطلق النار على الناس، ليقسم لها أنه كان يطلق الرصاص دائماً في السماء.

كنت أنظر إلى جرح أخي الذي امتد من سرته إلى صدره ثم أذهب بخيالي إلى صورة «أبو عمر» يحمل بندقيته هناك ضد زملاء أخي الجريح، وأفكر أن أكبر جرائم النظام لن تكون القصف أو القمع أو التنكيل، بل هي تلك المقاربة، حبيبي وأخي اللذان يقاتلان في صفين متقابلين، هي ذاك الخندق الطويل من الدماء والثأر بين السوريين، والذي كنت أراه يكبر كل يوم، وكنت أعلم أن أعواماً لاحقة لن تتمكن من طمره.

بعد أيام في المستشفى نقلنا أخي إلى منزل جيراننا الذين سمحوا لنا بالمكوث فيه مع استحالة السكن في منزلنا المتضرر من اشتباكات الشهور السابقة، وأنقذتنا قصة أخي المصاب أثناء عملية تمشيط أخرى لجيش النظام، كان منزلنا خلالها يؤوي ثلاثة من أبناء عمومتي المطلوبين للتجنيد، حيث اكتفى ضابط الدورية بمشاهدة شهادته كجندي في «الجيش العربي السوري» أصيب أثناء الخدمة ليتركنا، ثم تمكن الثوار لاحقاً من تحرير منطقة جنوب دمشق بشكل كامل، والتي دخلت حصاراً متفاوتاً بين أحيائها التي فصلها النظام عن بعضها جزراً متباعدة، يمكن التنقل بينها وإلى مناطق النظام بالمرور على

حواجزه، وتم استبدال معاناتنا من الاشتباكات والمداهمات ودوريات التفتيش بالقصف الذي كان يأتي متقطعاً بشكل كانت الحياة معه ممكنة نسبياً.

حاولت حينها إقناع «أبو عمر» الذي كان متفرغاً لقيادة مجموعته أن يسمح لي بمساعدتهم، خاصة أني كنت أعرف كيف أتنقل عبر حواجز النظام التي حاصرت المنطقة، وعلى الرغم من رفضه المتكرر في البداية خشية علي، إلا أنه قبل آخر الأمر بأن أقوم بنقل مبلغ من المال وعدد من بطاقات تعريف عناصر ضمن صفوف الجيش الحر من جنوب دمشق إلى الأحياء الخاضعة لسيطرة النظام في العاصمة، والتي تسلمها مني شخص وصلني به، وأحسست للمرة الأولى أني أقوم بشيء مفيد خلال الثورة التي مضت فيها أيام المظاهرات دون أن أتمكن من المشاركة فيها، ثم أصبحت المهمة مهمات، والمبالغ المالية الصغيرة مبالغ كبرى، كنت أدخلها إليهم في حصارهم، والتي يبدو أنها كانت تأتيهم تمويلاً من مغتربين، ثم بدأت بإدخال الأدوية التي كانت شحيحة جداً في المنطقة المحاصرة، ومع تزايد حجم المهمات تحول إحساسي من كوني مساهمة في الثورة إلى كوني أحد أبطالها فعلاً.. لكن هذا الإحساس لم يدم طويلاً.

إذ سرعان ما بدأت الخيانات واختراق النظام لصفوف الثوار يؤتي أكله، وانطلقت عمليات تصفية واسعة في صفوف القيادات ضمن مجموعات الجيش الحر في المنطقة، والتي طالت أشخاصاً كان اسم أحدهم كفيلاً بهز جيش النظام كله، وبت أخشى على «أبو عمر» مصيراً مشابهاً، خاصة أن مجموعته كانت ذائعة الصيت في المنطقة، وكان لها دور كبير في المعارك التي كانت المجموعات الشيعية هي من تواجههم فيها.

بدأت حينها أناقشه بأن الأمور وصلت مرحلة استعصاء، وأن الوقت قد حان ليفكر بنا قليلاً، وأنه قد أدى ما عليه، يشهد له بذلك القريب والبعيد، كما يشهد له جسده الموسوم بالإصابات، وتمكنت أخيراً من إقناعه بأن نغادر البلاد ونتزوج ونعيش شيئاً من حياة طبيعية، فلم يعد لنا فيها مستقبل نرجوه، بعد أن فقد عمله وشيئاً من صحته، وفقدت أنا صالوني وحلمي، بل بعد أن فقدت البلاد نبض الحياة فيها. وبعد جدال طويل اقتنع وأخبرني أن أقوم باستصدار جوازات سفر

لي وله، وأعطاني مبلغاً مالياً كان كل ما يملك، ووصلني بشخص يعمل سمساراً في دوائر الدولة كان يسهل لهم أمورهم، لأدخل إلى دمشق حتى أنجز تلك المهمة الأخيرة، التي كان يفترض بنا بعدها أن نتزوج ثم يخرج هو عبر طرق التهريب، وأغادر أنا بصورة قانونية، وعندما بدأت العمل على استصدار الجوازات وأثناء وجودي في دمشق اتصلت بي ابنة عمتي لتخبرني بالنبأ وتواسيني:

ـ «استشهد أبو عمر».

لم أتمكن ليلتها من الدخول إلى المنطقة بعد تأخر الوقت، ولم أستطع النوم طوال الليل، وعلى الرغم من أني شاهدت خبر استشهاده منتشراً على عدد من الصفحات الثورية، إلا أن شيئاً ما داخلي كان يريد تصديق أن هذه المرة ستكون كسابقتها، وأنه ربما يكون على قيد الحياة، وإن كان قلبي حينها قد أنبأني بصدق الفجيعة.

دخلت في اليوم التالي، وتوجهت من فوري إلى المقبرة التي وجدت فيها أخاه فدلني على قبره، وجلست هناك أمامه كما اعتدت الجلوس أمام قبر والدي أعواماً طوالاً.

ذاك القبر بات أنيسي الذي عكفت على زيارته كل يوم من الصباح وحتى مغيب الشمس، أقرأ على ساكنه القرآن، وأخبره بتطورات المعارك، وأتجادل معه وألومه: «لمَ استعجلت الرحيل؟»، وأبكي هناك أمامه يتمي الحقيقي.

لم تفلح محاولات والدتي بمنعي من الذهاب إلى المقبرة، وحتى عندما قدمت عليّ فيها وأنا عاكفة على القبر لم أقبل مغادرتها، وبقيت شهراً كاملاً على تلك الحال.

لم يكن استشهاد أبي عمر ثقيلاً علي وحدي، فقد كان كذلك على مجموعته التي فقدت قائدها، أما بالنسبة إلى جيش النظام والمجموعات الشيعية التي كانت ترابط على الجبهة المقابلة لجبهة رباط مجموعته، فقد كان خبراً مفرحاً أطلقوا لأجله الرصاص ابتهاجاً، وفي بعض نقاط تلك الجبهة الطويلة التي

كانت خطوط التماس فيها ضيقة، بحيث يتمكن المتحاربون من تبادل الأحاديث بعد أن يملوا تبادل الرصاص، قام أحد أفراد الميليشيات بإرسال مقطع فيديو عبر تقنية «بلوتوث» يوثق قنصهم أبا عمر، بعد أن تنافخ على المرابطين من الجيش الحر بتمكنهم من قتله، لأشاهد آخر لحظاته في هذه الحياة يقطع الشارع بشجاعة غير مبالٍ بوابل الرصاص المنهمر حوله، ليقوم بسحب شاب من مجموعته أصابته رصاصة في ظهره وسط الشارع، وأقعدته عن التحرك، بحيث شكل طعماً ممتازاً للقناص الذي تحيّن فزعة أحد أفراد مجموعته لإنقاذه، فيقتله أيضاً، وكان ذاك أبا عمر.

كانت قد انقضت فترة جيدة لم تجف فيها دموعي، ولم أخلع عني فيها اللون الأسود حداداً عليه، قبل أن أقرر إكمال مهمته التي استشهد من أجلها، لذلك قضيت الفترة التالية ممرضة لذلك الشاب الذي قتل وهو يحاول إنقاذه، وبعد اختلاطي بمجموعته أدركت أنهم بحاجة إلى من يكمل إمدادهم بالأموال التي كانت تصل من المغتربين والممولين إلى أشخاص في أحياء دمشق تحت سيطرة النظام، كما كانوا بحاجة إلى من يتابع إدخال المواد الطبية إليهم. ومع انتهاء حلمي بحياة مستقرة بعيداً عن كل ما يحدث، وفقدان أملي بالحياة التي باتت سواداً في عيني، عدت إلى مزاولة نشاطي الذي كنت قد اعتدت عليه قبل استشهاد «أبو عمر»، وساعدني في ذلك إلى حدٍّ بعيد كوني غير محجبة، فكنت أستطيع ارتداء العباءة وخلعها بحسب المنطقة التي أمر عبرها، مما يجعل تتبعي صعباً على مخبري النظام، كما سمحت لي طريقة لباسي بتنفيذ مهمات من نوع مختلف، فقد طلب مني أحد الأشخاص الذين كانوا يقومون بتسليمي أموالاً وأدوية بأن أرافقه لتصوير عدد من حواجز النظام وتحصيناته في منطقة المزة، والتي كانت سكناً للضباط وعوائلهم، ولأجل ذلك أخذني لشراء ملابس جديدة ثم إلى محل «كوافير» نسائي لأصلح من هيئتي، ورافقته عبر ذاك الحاجز وأنا أضع يدي حول يده كأننا حبيبان، بينما أحمل كميرا أخفيها قمت فيها بتصوير تلك الحواجز التي لم تكن لتشك بفتاة ترتدي لباساً كذاك، فقد تواطأ النظام -وجل الثوار- على ربط الثورة بالأهالي المحافظين، وهو ما لم يكن خاطئاً كثيراً، وإن وُجِدَ في صف النظام بعض «المشايخ» ومريديهم، كما وُجِد في

صفوف الثوار عدد من غير الملتزمين أو «المتحررين» كما يحب المفتونون بتصنيف التوجهات الفكرية تسميتهم.

ولم أتوقف عن عملي الذي يقتضي التنقل بين المنطقتين حتى قامت قوات النظام بإغلاق الحواجز المفضية إلى جنوب دمشق أمام المدنيين، ليدخل جنوب دمشق حصاراً خانقاً منذ أيلول/سبتمبر عام ٢٠١٣، ولأستقر في دمشق أتنقل بين منزلي ابنة خالتي وابنة عمتي بين القزاز وجرمانا، حيث تابعت استلام مبالغ مالية كان يحولها أقرباء وذوو أفراد المجموعة إليهم، ليتمكنوا فيها من تأمين مستلزماتهم في ظل الحاجة الملحة للمقاتلين الذين انقطعت مصادر رزقهم إلا من بعض التمويل الذي كان لا يكفي تغطية حاجة عوائلهم وأبنائهم. وعندما استيأس مقاتلو المجموعة من إعادة فتح الطرقات والمعابر، أخبرني بعضهم أن أوصل الأمانات إلى أقارب لهم في دمشق، أما أولئك الذين لم يكن لهم قريب فيها فاختاروا أن يخبروني أن أبقي تلك المبالغ القليلة لي، وحرمني النظام بذاك آخر ما يربطني بأبي عمر، فقد كان تنقلي ذاك إلى جنوب دمشق أشبه بآلة زمن تأخذني إلى ما اعتادت عليه نفسي قبل استشهاده، إلى وقت كان فيه إحساس اللهفة هو ما يسيطر عليّ بدل الخوف أثناء عبور الحواجز متجهة إلى المنطقة المحاصرة، التي سألقى فيها حبيبي. رحل أبو عمر لكن إحساس اللهفة ذاك بقي يرافقني أثناء عبور تلك الحواجز، جرياً على ما اعتادت عليه نفسي، تماماً كسيلان اللعاب في تجربة بافلوف المشهورة[1]، ومع إغلاق تلك الحواجز بدأت أفكر مرة أخرى بمغادرة البلاد.

آنذاك كان أحد جيران ابنة خالتي ذوي الأصول الفلسطينية قد رآني عندها، وحاول التقرب مني بغرض الزواج، لكني لم أكن في حالة أستطيع فيها التجاوب معه وقد دفنت قلبي هناك في حجيرة، كما لم أكن في حالة أستطيع معها رفضه، فقد تنازعت نفسي آنذاك رغبتي في الرحيل بعيداً عن كل ما يحصل،

(١) خلال تسعينيات القرن التاسع عشر قام العالم الروسي إيفان بافلوف بإجراء تجربة علمية على عدد من الكلاب، كان فيها يلاحظ سيلان لعابها عند تقديم الطعام لها بعد قرع جرس، ثم بعد فترة قام بقرع الجرس دون تقديم الطعام، ليكتشف أن لعابها سال كأن الطعام أمامها.

والاستقرار وبناء أسرة، ورغبتي الأخرى في أن أبقى في الأرض على طريق أبي عمر حتى ألحق به، وفي كلا الرغبتين كنت أبحث عن أبي عمر، أبحث عنه في حلمنا خارج البلاد، الذي أحسست بأني سألقاه فيه ملاكاً أو طيفاً يرافقني حين أحققه، حتى لو كان تحقيقه مع شخص آخر، حتى ولو كنت بذلك أنانية جداً تجاه هذا الآخر، لكني لم أكن أبالي حقاً. وبقيت أماطل الشاب الذي أخبرني عن رغبته في الارتباط حتى أحسم ذاك الصراع في نفسي، ليحدث ما لم أحسب حسابه أبداً.

كان شهر أيلول/سبتمبر يقترب من نهايته عندما عدت مرة أخرى إلى حي القزاز حيث منزل ابنة خالتي، وكنت أرافقها وابنها إلى السوق لشراء بعض الحاجيات، وأثناء انتظارنا باصَ نقلٍ صغيراً يقلنا اقترب منا عنصر يبدو أنه تابع للحاجز القريب يحمل ورقة بيده ضمت أسماء مطلوبين، وطلب بطاقات هوياتنا، وبعد تدقيقها سمح لابنة خالتي وابنها بالمغادرة، فيما طلب مني أن أتبعه إلى الخيمة التي أقاموها عند الحاجز، وأدركت حينها أني مطلوبة بالاسم، لكني لم أعرف بأي تهمة، خاصة مع تحفظي الكبير في التواصل واحتياطاتي الكثيرة، ولحسن حظي فقد كنت قد مسحت المحادثات والصور كلها من جواليّ اللذين كنت أحملهما، كما تمكّنت من دس الأثر الوحيد من أبي عمر الذي بقي معي في جيب ابنة خالتي قبل أن يقتادوني إلى الخيمة. كانت مجموعة أبي عمر قد أعطتني جواله بعد استشهاده ليبقى معي ذكرى منه، وكان مليئاً بالصور والمحادثات التي لم أجرؤ على حذف أيٍّ منها، لتبقى خيطاً يربطني به، وأعود إليه كلما هزني الحنين.. وطالما فعل.

قام العنصر بتفتيشي سريعاً في الخيمة ثم أخبرني أنهم سيأخذونني إلى فرع الدوريات من أجل «سؤال وجواب» يخلون سبيلي بعده، وتم اقتيادي في سيارة وُضِع في صندوقها الخلفي شخص غُطيت عيناه وقُيدت يداه، أما أنا فجلست في الكرسي الخلفي برفقة عنصرين. وعندما وصلنا إلى الفرع تم إدخالي إلى غرفة يوجد فيها عناصر أمنيون، وكان واضحاً أن منظري غريب بالنسبة إلى العناصر الذين اعتادوا على ما يبدو رؤية المعتقلات المحجبات، وحين تم إدخالي إلى مدير الفرع قام بسب الذات الإلهية -على عادتهم قبل كل جملة

ينطقونها- وسألني: «شو جابك لهون إنتي؟»، أخبرته بتظرّف: «العنصر»، ليبتسم ويسألني: «قصدي مين كتب فيكي تقرير وجابك لهون؟»، وبدأ يتفحّص أوراقاً أمامه تمكنت من قراءة الاسم الذي ذيلت به إحداها، والذي كان قريباً لي موالياً للنظام، بل ومقاتلاً ضمن صفوف الميليشيات الرديفة لجيشه، ثم قام بتفحص حقيبتي ووجد علبة سجائري فيها، وسمح لي بتدخين لفافة تبغ بعد أن أجلسني، وعندما انتهيت منها طلب من عنصر كان يجلس قربه أن يستدعي من يقوم بتفتيشي، ليجلب فتاة بدا على هيئتها الشقاء، وعندما طلبت أن يغادرا الغرفة قبل أن تقوم بتفتيشي، اكتفى بإدارة وجهه وأمرها بالمواصلة، بعد أن هددني أن يجعل أحد العناصر يقوم بالمهمة لو امتنعت، ثم استدعى عنصراً ليقوم باقتيادي إلى «تحت»، وعرفت حينها أن الأمر لن يكون «سؤالاً وجواباً»، وأني أبدأ رحلة اعتقال لا أدري مدتها، ولا أعرف ما تنتهي إليه، وإن كان السجان الذي اقتادني قد أخبرني بعد أن سألني إن كنت أعرف أين أنا بأني قد قدمت إلى «موتي»، ثم أدخلني مهجعاً كبيراً نسبياً، وجدت فيه الفتاة التي قامت بتفتيشي مع أخريات، والتي بادرتني بالاعتذار عما فعلته كونها مجبورة، وعرفت منها أنها عراقية صابئة أساساً كانت قد أسلمت وتزوجت سورياً مطلوباً، اعتقلت بدلاً منه.

حاولت بعض المعتقلات سؤالي عما يجري خارج السجن، إلا أني اعتذرت منهن وأخبرتهن أني أريد النوم بداية مع ذاك الإرهاق الذي تملك نفسي قبل جسدي، ولم أكد أغمض جفني حتى تم استدعائي إلى أول تحقيق لي، والذي فهمت أنه كان أمراً غريباً في ذلك الفرع الذي تقضي فيه المعتقلة أياماً قبل التحقيق.

تم إدخالي إلى غرفة جلس فيها خمسة ضباط، وما إن رآني أحدهم -وكنت لا أزال أرتدي ملابسي نفسها التي دخلت بها- حتى شتم الذات الإلهية، ثم سأل رفاقه بتهكم: «مين قال هي جبهة نصرة؟»، لأعرف التهمة التي اعتقلت بسببها، «عضوة في تنظيم جبهة النصرة الإرهابي».

مضت ساعة تقريباً سألني فيها أولئك الضباط أسئلة سطحية ارتبطت معظمها بعائلتي، وبشخصين تحديداً من أقاربي انشقا عن النظام، كان أحدهما ضابطاً أمنياً تولّى أعواماً مهمة تأمين «الرئيس» أثناء زياراته الخارجية، ثم غادر الضباط بعد تلك الأسئلة، وتركوا للملازم «مجد» استكمال التحقيق معي، والذي أمضى سبع ساعات تقريباً قام فيها بسؤالي عن كل شيء، وتكرار الأسئلة وإعادة اجترارها مرات ومرات ليقارن بين إجاباتي فينفذ من الفروقات بينها إلى ما أخفيه، ولم يكن أي من أسئلته قريباً حتى من نشاطي، بل لم يأتِ على ذكر «أبو عمر» ومجموعته، وعرفت حينها أن التقرير الذي اعتقلت بسببه لم يكن دقيقاً في أي شيء، وإن كان ما فيه خطيراً حقاً، فقد شملت أسئلته شيئاً عن معرفتي بتفجيرات كبيرة هزت دمشق، ومع استرسالي في الإجابات اكتفى مجد، الضابط السمعولي من ريف طرطوس، بالشتائم دون أن يقوم بإيذائي جسدياً.

وفي اليوم التالي استدعيت للتحقيق مرة أخرى، وأعيدت علي الأسئلة نفسها، لكن هذه المرة كان هناك شخص يوجّه الملازمَ مجداً أثناء التحقيق، عرفت لاحقاً أنهم ينادونه «الخال»، وعلى الرغم من أنه كان يتحدث بلهجة شامية إلا أني تمكنت من التقاط لهجته الأصلية في كلماته التي تفلتت منه دون أن يحكم ضبط لحنها كما ينطقها أهل الشام، وعرفت أنه عراقي، فبحكم نشأتي في حي السيدة زينب الذي أتاح لي الاحتكاك بكثير من أبناء العراق بعد لجوئهم إلى سوريا تعرفت على لهجاتهم المختلفة، وبت قادرة على معرفة منطقة الشخص من سماع لهجته، وعجبت حقاً من وجود شخص أجنبي في فرع أمني تابع للنظام، وأنه ليس موجوداً كمستمع فقط، بل يقوم بتوجيه التحقيق، ورفض إجاباتي التي لا توافق غايته، والتي كنت أتلقى على كل منها صفعة أو جلدة أو لكمة، أو ركلة بالحذاء العسكري الذي لا يشبه ألم ارتطامه بالوجه أي شيء آخر، ثم تطور التعذيب ليشمل «الكرسي الألماني»، الذي تطوى فيه يداك على قدميك من الخلف حتى تحس بظهرك قد انفصم، كما شمل الصعق بالكهرباء التي ألصقت أسلاكها العارية بصدري، وأكثرها ألماً الشبح تعليقاً من القدمين اللتين يتم رفعك منهما مقلوباً بحيث لا تستطيع ملامسة الأرض إلا

بطرف إصبع واحد من يدك، ثم جربت الشبح معلقة من قدم واحدة ما زلت أعاني آلاماً فيها حتى اليوم.

لكن أبشع ما حدث خلال تلك الفترة الأولى هو ذاك الشاب الذي تم التحقيق معه أمام عيني، كانوا قد غطوا عينيه وقيدوا يديه وقدميه، وبعد عدد من الجلدات واللكمات قاموا باغتصابه، وهو يصرخ مستنجداً ومتوسلاً، أما أنا فكنت أبكيه، وأكتم صراخي بهم «يا أنجاس.. اتركوه» حتى لا أصل إلى مصيره، وعلمت أني في مكان لا حرمة فيه لأحد ولا لشيء، وحاولت دفع الفكرة الوحيدة التي خطرت لي حتى أحافظ على رباطة جأشي: «إن كانوا قد فعلوا أمراً كهذا بشاب فما الذي يمكن أن يفعلوه بفتاة؟!»، دون أن أنجح في ذلك.

ولولا مشهد شاب آخر تم التحقيق معه أمامي أيضاً بعدها بيومين لانخلع قلبي، ولربما استسلمت إلى مصير أقتل فيه نفسي.. كان العناصر قد غطوا عينيه وقيدوا يديه وقدميه، وانهالوا عليه ضرباً وشتماً، فيما يبدو أنه أسلوب مطّرد لدى ذاك الفرع الذي يستخدم تعذيب معتقل أمام آخر لبث الرعب في نفسه.

لكنه في حالة ذلك الشاب كان رعباً في نفوس السجانين، الذين لم يكونوا يقتربون منه لضربه حتى يبتعدوا خطوتين، ولم يكونوا يشتمونه بكلمة حتى يرد بكلمتين، ويتوعد ويرعد ويزبد، وكلما نفض جسده موهماً إياهم بأنه قد تمكن من فك قيده، كان السجانون المسلحون الطلقاء يهرعون إلى أطراف الغرفة هرباً منه.

أعادني مشهد ذاك الشاب القوي في قيده إلى نفسي وقوتها التي كنت أعرفها عنها، والتي طالما قال عنها «أبو عمر» إنها أكثر ما يحبه فيّ، وأقسمت أني لن أترك لهؤلاء العناصر فرصة الاستمتاع بتدميري، كما أعانني لمواجهة «الخال» الذي كنت أجلس بين جلسات التعذيب/التحقيق الطويلة في مكتبه، حيث يستغل وقت انتظاري ذاك بين الجلسات بإسماعي إهانات على شكل أسئلة تفصح عما في نفسه، وكان يحلو له أن يكرر دائماً سؤاله عن عدد الأشخاص الذين «نمت» معهم، وعن «جهاد النكاح» الذي ظننته أول مرة سئلت عنه اسم شخص، فنفيت معرفتي به، حتى أدركت ما يرمي إليه بعد شرحه غير

المتحفظ لما يعنيه، وعلى الرغم من أني كنت أتحاشى الرد عليه بأي شيء يثير حفيظته أكثر فيعيدني إلى غرفة التعذيب، إلا أني لم أتمالك نفسي حين شتمني بقوله: «ابنة عائشة الزانية»، وهو ما أنبأني عن مذهبه الشيعي الاثني عشري، الذي يختص متعصبوه ـ وإن لم أعرف غيرهم ـ بتلك الشتيمة القذرة.

لم أكن متدينة كثيراً قبل اعتقالي، بل لم أكن ملتزمة بالصلوات حتى، لكن شتائمه البذيئة والطائفية لم تكن أمراً يتعلق بدرجة التدين أكثر مما يتعلق بالهوية والشرف، وهو ما لم أستطع السكوت عنه، ولو عنى ذلك قتلي للحظتها، فانتفضت في وجهه أخبره أن لنا الشرف أن نوصف «بنات عائشة»، وأننا على الأقل نعرف من هم آباؤنا، على خلاف غيرنا ـ دون أن أحدد من هم ـ الذين يجهلون أنسابهم، ليفقد عقله مع تلك العبارة، ويبدأ بضربي بكل ما حوى مكتبه حينها، مخلفاً جرحاً في رأسي ما زلت أشكو منه حتى اليوم، ولم يتوقف عن ضربي وركلي حتى دخل الملازم مجد وخلصني من بين يديه، ليقوم الخال بالتخلص من لهجته المدعاة، ويهددني بلهجة عراقية واضحة أنه سيجعلني أكره حتى أن أنظر إلى نفسي في المرآة.

بقي الأمر على تلك الحال ثلاثة أسابيع ذقت فيها ما لم أعتقد أني أطيقه، وخيل إلي في كل ليلة قضيتها بعد جلسات التعذيب الطويلة تلك أني لن أصبح، وكنت أشاهد والدي وجدي وأبا عمر ماثلين أمامي، يطالعونني مبتسمين من سقف المهجع كأنهم يتحينون لقائي، وكنت أبتسم لهم قدر ما تسمح لي شفاهي التي شق المحقق السفلى منها أثناء «التحقيق»، قبل أن أغمض عيني على أمل أن أفتحها بينهم في الجنة، أو في أي مكان آخر غير ذاك الفرع، حتى اكتشف «مجد» موهبتي بقراءة الفنجان، وهو أمر كنت أتقنه جيداً كما تفعل كل نساء عائلتنا، وذاك ليس من أمور «التنجيم» كما يحب السامع أن يصدق، وإنما طريقة لتمضية الوقت يستمتع بها السامع والقارئ، الذي يعتمد أكثر ما يعتمد في سرده لما يرى في الفنجان على فراسته، فيتمكن من توظيف ما يحس به من هيئة وكلام صاحب الفنجان أثناء التبصير، فيقدر ماضيه وواقعه، ويجتهد في التقاط أحلامه، ويمزج كل ذلك في سياق متصل يبدأ بالحديث عن الأشكال التي رسمتها بقايا القهوة على جدران الفنجان، والتي حفظت بعضها ودلالاتها

من مشاهدتي قراءة والدتي لفناجين صويحباتها، ثم يضيف إليها وعوداً بمفاجآت قادمة، دون أن ينسى الحديث عن المشاكل المنتظرة، والتي تنتهي دائماً بانفراجة كما يأمل صاحب الفنجان.

ومع كل تلك الخبرة التي امتلكتها لم يكن صعباً عليّ قراءة فنجان مجد، والحديث دائماً عن حلمه الذي «سيتحقق قريباً لا محالة»، والذي لم يكن صعباً علي تقديره: ترقية في رتبته ومنصب كبير.

ليس مهماً في قراءة الفنجان أن يصدقك صاحبه، المهم أن تستطيع جذبه للاستماع إليك، والاستمتاع بما يسمع أيًا كان، ثم يكفي أن تثير في نفسه شكاً ما بأن ما تقوله يمكن أن يضم شيئاً من النبوءات، يعينك عليه تعلق الشخص بغيبيات ستجد جل البشر يؤمنون بها وإن أنكروا، ثم يكون لتتابع معرفتك بالشخص دور في مروياتك تلك وأنت تقرأ الفنجان، فتتحول قراءتك تلك إلى عرف يومي لا يستطيب بعده صاحب الفنجان طقس القهوة دون أن يختمه بقراءة ما خلفه فيه.

حينها توقف التعذيب، وتحول التحقيق إلى أسئلة سريعة تنتهي بقراءتي فنجانه، بل وفناجين عدد من زملائه أحياناً، ونشأت صداقة غريبة بيني وبين مجد، من نوع الصداقات التي يتخلى فيه الجلاد عن توحشه ليعود إنساناً، وتتجاوز فيه الضحية مخاوفها وآلامها وحقدها لتصبح محاورة ممتعة، ووعدني حينها ألّا يقوم بتعذيبي مرة أخرى، بل إنه اعتذر عن تعذيبي في البداية، وحجب «الخال» عن حضور جلسات التحقيق، فارتحت من لسانه القذر، وبات الاعتقال منذ ذلك الحين أمراً يمكن التعايش معه.

مضت أيام قليلة على تلك الحال حين أخبرني أنه سيريحني من الخروج إلى التحقيق، فلديه مهمة تمتد أربعة أيام سيغيب فيها، ولسبب أجهله أخبرته عندما ودعني أن ينتبه إلى قدمه، أعني أني لم أحس أن شيئاً يمكن أن يحصل لها، بل نطقت عن غير تفكير وإحساس، وكأن صوتاً من عالم آخر قد تملكني ونطق بذلك التحذير، ابتسم ثم أرسلني إلى المهجع مرة أخرى.

بعد رحيل مجد تم استدعائي إلى التحقيق على غير اتفاقي معه، لأجد الخال وعدداً من الضباط ينتظرونني في مكتب لم يضم أياً من أدوات التعذيب، أخبرني الخال حينها أنه لم يقم باستدعائي للتحقيق، وإنما لتنفيذ وصية مجد لهم بي، فسمحوا لي بالتدخين وشرب المتة، كما طلبوا قهوة شربوها على عجل حتى أقرأ لهم فناجينهم، ثم أرسلوني إلى المهجع في وقت متأخر دون أن أتعرض لكلمة نابية واحدة، واستغربت تعامل الخال معي، والذي كان مختلفاً تماماً عما اعتدت عليه منه، وعن وعده ذاك لي.

تم استدعائي في اليوم التالي مرة أخرى إلى التحقيق، الذي بت لا أمانع الخروج إليه، مع السماح لي بالتدخين وشرب القهوة والشاي والمتة، لكن تقييد العنصر يدي وقدمي، وتغطيته عيني قبل إخراجي لم يكن شيئاً يمكن أن أرتاح له، خاصة أن ذلك لم يحدث لي قبلها في جلسات التحقيق تلك.

كنت أحس أثناء تحركي أني لا أتوجه إلى غرفة التحقيق نفسها، بل ليس إلى أي من غرف تحقيق الفرع، ثم أدركت أنني أغادر الفرع كله عندما مشينا فترة في الهواء الطلق قبل أن ندخل بناء آخر، مشيت فيه عبر ممرات طويلة ونزلت طابقين تحت الأرض حتى وصلت غرفة عرفت أنها ضيقة من تقييد يدي إلى جداريها الذين تمكنت من لمسهما في وضعية أشبه ما تكون بالصلب، كما تم تقييد قدمي أيضاً. كان السجان طوال تلك الرحلة ساكتاً، ولم أكن أسمع إلا صرخات بعيدة لمعتقلين، ثم أحسست بنفس كريه يقترب كثيراً مني، وسمعت صوت «الخال» يتحدث بعراقية طلقة دون تكلف، أخبرني فيها أني قد أخطأت كثيراً حين رددت شتيمته ذاك اليوم، ثم كرر شتم أم المؤمنين عائشة واسترسل بشتائم لم أفهم نصفها لغرابتها.

أحسست أني لست هناك ليتم التحقيق معي، وليس حتى لتعذيبي العذاب الذي اعتدت عليه.. كان «الخال» يريد تنفيذ تهديده لي، ولم يكن وحده، إذ سرعان ما أخذ أشخاص آخرون دورهم في الشتائم أيضاً.

تناوب الخمسة على اغتصابي، الخال وحده، ثم آخر وحده، ثم شخصان مع بعضهما، وأخيراً خامسهم.. أو أن هؤلاء من استطعت الإحساس بوجودهم

وعدهم، فلا أحد يعرف كيف تتلاطم الأحاسيس ويتوه الإدراك في لحظات كتلك، كيف تهاجمك الأفكار متوحشة ضبابية غير مفهومة، حتى إن مشهداً من فلم «توت توت» الذي يقوم فيه سعيد صالح بالاعتداء على الفتاة المجنونة (نبيلة عبيد) خطر لي حينها، كأنني كنت أرى نفسي مكانها في عجزها ذاك.

كنت أتمنى لو أنهم لم يقيدوني فأستطيع قتل أحدهم بيدي العاريتين، أو الدفاع عن نفسي حتى أجبرهم على قتلي، لكني لم أستطع، كانت القيود قد ثبتتني بطريقة لم أتمكن معها من فعل أي شيء إلا الصراخ والشتائم، وبت أحس بالدم ينزل مني ساخناً لزجاً ملأ الأرض تحت قدمي، وغبت عن الوعي.

استيقظت بعدها في سرير طبي قيدت إليه يدي وقدمي، وعلقت لي فيه أكياس المحاليل والدم، والذي عرفت لاحقاً أنه «مستشفى ٦٠١». كان كل شيء في جسدي يؤلمني حينها، لكن حرقاً في يدي كان أكثر ما يستفزني، فقد كان أثر لفافة تبغ الخال التي أطفأها في يدي بعد أن فرغ من اغتصابي لا يزال متورماً، حينها أخبرني أنه سيترك هذه العلامة على يدي لأنه يريد أن أتذكره كلما نظرت إليها، وأتذكر كم أنا «وسخة».

لم أرَ وجه أحد في سقف غرفة المستشفى تلك، كأني قد هُجِرت حتى من أحلام الموت المريح، ولم يخطر لي إلا والدي، أول من يتّمَني في حياتي، والشخص الوحيد الذي أحسست أنه لو كان موجوداً لما حدث لي ما حدث، فقد كنت موقنة أنه كان سيتدبر طريقة يخرجنا بها من البلاد منذ انطلاق الثورة، فلا تستهلكنا الخطوب كما فعلت.

كنت أبكي نفسي ومصيري بأنين مكتوم، فقد أدركت أني في فرع أمني يرتدي سجانوه لباس الأطباء والممرضين، الذين تعاملوا معي بلؤم شديد على الرغم من معرفتهم بما حدث لي، وبدا أنهم يعتقدون أن أمراً كهذا عقوبة عادية وطبيعية بحقنا نحن أبناء الثورة، بل إن ممرضة هناك قالتها لي صراحة بأنها تتمنى لو يسمح لها فتقتلني بدل أن تقوم بعلاجي.

زارني مجد في المستشفى، وقد لف جبيرة على قدمه التي يبدو أنه أصيب بها أثناء مهمته تلك، وكان واضحاً عليه علامات التأثر الشديد، حتى إنه أخبرني

أنه يتمنى لو لم يغادر الفرع ويتركني لزملائه، هززت رأسي دون أن أسأله حتى كيف أصيبت قدمه، وعدت إلى النوم والكوابيس التي كانت رفيقتي على ذاك السرير، ثم بعد عدة أيام تمت إعادتي مرة أخرى إلى الفرع الذي كنت قد دخلته قبل ٣٥ يوماً حينها، وبقيت فيه حتى أتممت ٥٧ يوماً لم أتعرض بعد عودتي من المستشفى إليه فيها لأي تعذيب، وخرجت مرتين لتحقيق بسيط لم يعدُ كونه شكلياً، ثم قبل ترحيلي طلب مني مجد التوقيع على اعترافاتي، ووعدني أن ليس فيها ما يضرني، ثم قال لي بأنه يريد نصحي كصديق بأن لا أذكر ما حدث لي في الفرع لأي أحد في أي فرع آخر، لأن أمراً كهذا سيعقد ملفي، وربما يجعل إخلاء سبيلي أمراً مستحيلاً.

تم بعدها اقتيادي إلى فرع فلسطين الذي استقبلتنا فور دخولنا إليه رائحة كريهة عرفت مصدرها عندما تعمقنا في البناء، ورأينا أكواماً من الجثث ملفوفة بـ«البطانيات» في بهوه تطوف في بركة من المياه الآسنة. كان التحقيق في فرع فلسطين أهون بكثير منه في فرع الدوريات، فلم يتجاوز الشتائم واللكمات المتفرقة، كما أن زنزانتيه المفتوحتين على بعضهما بجدار قصير واللتين ضمتا عدداً من المعتقلات في ما يشبه مجتمعاً صغيراً، كان مما يسمح لك أن تمضي الأيام دون إحساس بالملل، فلكل منهن قصة غريبة تأخذك خارج جدران ذلك المكان، بل إن المهجع ضم معتقلات من أثيوبيا وساحل العاج وجنسيات أخرى، وكان كل ذلك مما يهون الأيام، كما كان لوجود «وفاء» ـالتي التقيتها في فرع الدوريات ثم نقلت معي إلى فرع فلسطينـ دور في إزالة وحشة المكان.

فوفاء هي التي هونت علي أيام التحقيق الأولى في فرع الدوريات، وهي التي كانت تفرش لي يدها مخدة أنام عليها بعد عودتي من جلسات التعذيب تلك، وهي التي أنقذتني من مصير ربما أضطر فيه لإهلاك روحي بعد ما حدث لي هناك.

كنا نتمكن داخل الفرع من شراء لفافة تبغ نديرها بينها، كما كنا نتمكن من شراء ظرف قهوة صغير نستخدم فيه مياهاً ساخنة من الحمام لعملها، وتلك

كانت لحظات من النعيم في ذاك المكان، طعماً من الحياة خارج تلك الجدران، والتي كان لها في نفسي على الأقل أثر بأن الأمل موجود، وأنني سأخرج لأشرب قهوتي مع لفافة تبغ في مكان ما لا أترقب فيه أحداً يفتح باب الزنزانة ويستدعيني إلى التحقيق.

مضت الأيام في ذاك الفرع رتيبة حتى مطلع شهر شباط/فبراير عام ٢٠١٤، عندما دخلت معتقلة كانت تقطن منطقة الحسينية التي تقطنها أختي، وأخبرتنا بالحصار الخانق الذي تعيشه المنطقة، وبأن الأهالي هناك لا يجدون حتى كسرة الخبز، وتذكرت ابنة أختي التي كنت متعلقة بها بشدة، ثم رأيتها في منامي تلك الليلة تناديني بصوت مكتوم: «خالتو.. بدي خبزة»، لأستيقظ من منامي ذاك وقد اسودت الدنيا أمامي، وضاق صدري بكل شيء فيها. ومع وجود بعض المعتقلات بجرائم غير مرتبطة بالثورة كانت إحداهن تجاهر بتأييدها وتصر على استفزازنا، لم أتمالك نفسي مرة أخرى، وسيكون علي أن أعلم أن كل لحظة أخرج بها عن طوري ستورث مصيبة، قمت حينها بشتم الإله الذي تخلى عني، ثم شتمت كل من تذكرته ابتداء من بشار الأسد مروراً برئيس الفرع وانتهاء بالمحقق المسؤول عن ملفي.

لم يكن أمر كهذا ليمر في فرع فلسطين، فتم استدعائي إلى تحقيق في مكتب العميد رئيس الفرع، ثم الضابط المسؤول عن تحقيقي، والذي سمعت أطرافاً من حديثه مع ضابط آخر سأله فيه كيف سيتصرفون في ملفي بعد تلك الشتيمة، التي يمكن أن تؤخر إخلاء سبيلي، ولأفهم لاحقاً أن أياماً فقط كانت تفصلني عن إخلاء سبيلي، لكن تلك الشتيمة مددت فترة إقامتي في تلك المعتقلات.

بقيت في فرع فلسطين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠١٣ حتى أيار/مايو عام ٢٠١٤، ثم تم نقلي إلى قسم شرطة ركن الدين الذي بقيت فيه ليلتين، ثم إلى سجن عدرا المدني الذي زارتني فيه أمي أكثر من مرة، قبل أن يتم عرضي على قاض قرر إخلاء سبيلي في تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠١٤، بعد ١٣ شهراً قضيتها معتقلة.

أخبرت أمي ما حدث معي، وبكيت في حضنها كثيراً كل صفعة وإهانة تلقيتها، ثم عاد تواصلي مع الشاب الذي كان يريد التقدم لخطبتي، والذي اكتشفت أنه اعتقل ستة أشهر وأُخلي سبيله قبل خروجي، وطلبت منه إن كان يريد الارتباط أن نغادر البلاد، ووافق بادئ الأمر، لنخرج عبر طرق التهريب إلى درعا التي كنا نريد الدخول منها إلى الأردن، لكن الأمر لم ينجح، وتراجع الشاب عن خطبتي، وجلست في درعا ضمن منزل أقاربي أحاول إيجاد طريق للخروج، فقد كنت عازمة ألا أبقى في البلاد مهما حصل، حتى تمكنت أختي من تأمين مبلغ مادي لي، كفاني عبر طريق تهريب طويل لأصل الشمال السوري ثم أدخل تركيا التي أقيم فيها منذ بدايات العام ٢٠١٥.

تزوجت في تركيا فترة ثم انفصلت عن زوجي الذي يبدو أنه لم يتحمل ما أفسده في روحي الاعتقال والفقد، وجربت كما فعلت أول حياتي العمل في المعامل والورشات لأؤمن قوت يومي، كما عملت في عدة صالونات نسائية كان صعباً علي الاستمرار فيها، حتى قررت العمل لحسابي الشخصي من منزلي، الذي أؤمن إجاره بشق الأنفس، ولا آمل منه أكثر من الكفاف، فقد ذهب الزمان الذي امتلكت فيه إرادة العمل والإنجاز، كما رحل الوالد والحبيب وغابت العائلة، وبقيت أنا.. «أم عمر» كما يعرفني من ألتقيهم هنا، دون عمر.. ودون أبي عمر.. ودون وطن.. ودون حلم.

القصة السابعة

حـرّة

كان كل شيء في الشارع يتجه إلى الخلف تزامناً مع انطلاق السيارة التي ضممت ابني فيها بين ذراعَي، بعد أن شاهد والدته تضرب لأول مرة في حياته القصيرة، وربما لم يكن يدرك أنها كانت غير مبالية بكل تلك اللكمات، وأن كل ما أهمني لحظتها ألّا يصيبه سوء، وأني سأنتظر بعض الوقت حتى أحس بالألم يتوهج من المواضع التي أوذيت فيها، لكن ذلك الألم سيعود إلى الاختفاء مجدداً، ليس لأني سأكابر عليه فيطمئن طفلي، وليس لأني أفكر بالمصير الذي ينتظرني بعد أن أخبرني الضابط الذي استقبلني فور نزولي من القارب أن وجهتنا هي فرع الأمن العسكري، الذي اكتسب شهرة بكونه بوابة باتجاه واحد.. ولكنّ شروداً مع كل شيء حولي يتجه إلى الخلف، آخذاً معه ذاكرتي إلى حيث بدأ كل شيء، إلى اللحظة التي قبلت فيها الزواج من ذلك الرجل الذي اقترب من استقبال عقده الخامس حينها، فيما كنت أستقبل عقدي الثالث.

كنت فتاة عادية من مواليد أواخر السبعينيات من دير الزور، تمكنت بعد الحصول على شهادة معهد إعداد المعلمين من تدريس اللغة العربية لطلاب المرحلة الابتدائية، وعلى الرغم من محاولاتي الكثيرة لم أفلح بنقل عملي إلى المدينة، التي نشأت فيها ضمن عائلة محافظة، كان لها دور في اختياري المبكر لارتداء الخمار، والذي سيكون أحد الأسباب التي ستجعل من الثورة ضد النظام أمراً مبرراً بالنسبة إلي، لكنه لم يكن أول الأسباب.

فقد كان علي قبل منع النظام المعلمات اللواتي اخترن ارتداء الخمار أو النقاب من التدريس في العام ٢٠١٠، وتحويلهن إلى وظائف أخرى في الدولة بعيداً عن تنشئة الجيل، أن أعيش قبلها بعامين مرارَ مَن غيّب الاعتقالُ زوجَها، تاركاً إياي أماً وأباً لأطفالنا أربعة أشهر ويزيد، كنت في كل يوم منها أقسم بالنار التي تأكل صدري أني سأنتقم من النظام يوماً ما، وأنه سيذوق من النار التي تأكل صدري؛ فعلى خلاف معظم أبناء جيلي والأجيال التي تليني، كنت قد تعلمت قبل الثورة بأعوام ـ وقبل حادثة الاعتقال تلك ـ أن هناك فرقاً بين بلادنا والنظام الذي يحكمها، وأن وجوده على رأسها ليس من المسلمات التي لا تتغير، وأن يوماً ما، سيأتي بلا شك، سيخرج الناس فيه إلى الشوارع يطلبون حقهم الذي اكتسبوه منذ اللحظة التي ولدوا فيها على هذه الأرض، حقهم بأن يكونوا أحراراً يختارون من يحكمهم، ويختارون كيف يحكمهم.

كنت قد بدأت أدرك عالماً آخر مختلفاً تماماً عما اعتدت عليه قبل زواجي، فقد كان لزوجي اهتمامات سياسية جعلته يعزف عن الزواج حتى ذاك العمر المتأخر، بل إنه أخبرني يوماً أنه لم يكن ليتزوج لولا إصرار والدته التي بلغت الثمانين، ربما لأنه كان يعرف أي مصير ينتظر كل من يفكر بـ...، لا.. لا يحتاج الأمر لأي شيء بعد كلمة «يفكر» لتكون تلك تهمة في ظل نظام آل الأسد، يتم بعدها تغييب الشخص في تلك الأقبية التي لا يدخلها الضوء وتفر منها الحياة، مخلفاً وراءه زوجاً وأطفالاً ربما سيكون عليهم أن يكبروا دون أب، شأنهم شأن آلاف السوريين الذين فقدوا آباءهم في تلك الثقوب السوداء، وعاشوا أعمارهم كلها ينتظرون خبراً عنهم لن يأتي غالباً، بل لن يجدوا حتى قبوراً يزورونهم فيها، خاصة وأنه خبرِ الاعتقال في عمر مبكر قبل زواجنا بأعوام.

كنت قد نشأت ككل السوريين وأنا أسمع أن للحيطان آذاناً، وهذا إقرار مسبق بأن لا أحد سعيد بشكل الحكم، أو متقبل له، وأنهم جميعاً يقرون بشاعة النظام وإجرامه، الذي تكفي في ظله كلمة أو فكرة لتدمر حياة صاحبها، وعلى الرغم ممّا تحمله تلك الكلمة من إقرار إلا أنها لا تتمثل فعلاً أو رأياً سياسياً، وتبقى شعوراً داخلياً، تمضي معه الحياة بالشكل الذي اعتدنا عليه، ننشغل فيها

بمعاشنا وحياتنا وأسرنا ونجاحاتنا وفشلنا، محاذرين ارتكاب ما يجعل كل ما عملنا لبنائه أثراً بعد عين.

لكن كل ذلك تغير عندما انتقلت للعيش مع زوجي، وتعرفت على عائلته التي كان يبدو أن لها جميعها اهتماماً بأكثر من الأمور الخدمية والمعيشية، وما زلت أذكر جلوسي بالساعات أستمع نقاشاتهم حول بنية النظام وجرائمه، وحول الطريقة التي تمكن بها من نسج نفسه في بنية النظام الدولي عبر سلسلة من الخدمات والتنازلات، وعن إمكان التغيير القادم مع حالة الانفتاح الإجبارية التي دخلت البلاد مطلع الألفية، وأتساءل: أين كنت طوال حياتي؟!

كيف لأحد أبناء البلاد أن يتناسى كل ما أسمعه كأنه غير موجود؟ كيف لم تخطر لي يوماً فكرة حكم مغاير لهذا النظام؟!

لذلك عندما بدأت أخبار ثورة تونس تدخل كل بيت في عالمنا العربي أواخر العام ٢٠١٠ كنت أحس أن وعداً ما قد اقترب من التحقق، وأن ما بدأ هناك في المغرب العربي سيصل بلادنا قريباً، بل وقريباً جداً. وعلى الرغم من كل ما كنت أعرفه عن إجرام النظام من كل تلك القصص التي لا نهاية لها، إلا أن لهفتي لاقتراب الثورة كانت قد ملكت كل تفكيري، ولم يخطر لي كيف سيكون رد النظام عليها، بل تصورت أنه سيكون عاجزاً عن فعل أي شيء، تماماً كما كان سابقاه التونسي والمصري، اللذان لم يحتاجا أكثر من أيام ليستسلما لصوت الشعب الهادر في الميادين: «الشعب يريد إسقاط النظام».

لم تحتج الثورة كثيراً حتى تندلع في البلاد انطلاقاً من درعا أواسط آذار/ مارس عام ٢٠١١، ثم لم تحتج أكثر من أيام بعدها حتى يصبح واضحاً للسوريين كلهم أن الثمن الذي سيكون عليهم دفعه لقاء حريتهم لن يكون شبيهاً بغيره في دول أخرى، لكن كل ذلك لم يضعف حماسي ذاك، بل زاده اتقاداً، وكذلك كان زوجي الذي أحسست بعينيه تشعان أملاً كما لم تفعلا أبداً، وكأنه يرى حلمه الذي عاشه في خياله طويلاً يتحقق أمامه.

كنت سعيدة جداً لأن أبناء مدينتي التي أحب لم يخلفوا وعدهم مع التاريخ، لتصبح المدينة من أوائل المدن المتجاوبة مع نداء الحرية، الذي كان صداه

يخرج قوياً من حناجر الثوار كل يوم جمعة، ليدخل كل قلب في المدينة فيشعله أملاً، وتوسعت سريعاً المظاهرات في المدينة كماً وعدداً، حتى بات بعضها يمر في شارعنا، وكنت أقضي ليلة الخميس أبحث عن بياضات يمكن الاستغناء عنها، فأقصها على شكل عصب رأس أكتب عليها «يسقط النظام» و«الله أكبر»، وأنتظر على الرصيف مرور المظاهرة بعد صلاة الجمعة وأنا أحملها، فأشير إلى أحد الشباب أن يقترب مني لأعصب رأسه بإحداها، وحين يرى الآخرون العصبة يقتربون تباعاً حتى أفرغ من كل ما لدي.

ثم وبعد أن رأيت كلماتي التي خطتها يداي تكلل رؤوس الأحرار، بت تواقة لأسمعها تخرج من حناجرهم، فعمدت إلى كتابة بعض الهتافات التي ابتدعتها مقفّاةً على أوراق صغيرة، وبدأت أقف على الرصيف نفسه أنتظر المظاهرة لتمر، فأشير إلى أحد الشباب ليوصلها إلى الشخص الذي يعتلي الأكتاف هاتفاً بالناس، فأسمع كلماتي تملأ السماء عنفواناً وثورة.

وحين باتت المظاهرات سيولاً تملأ شوارع المدينة، وتحولت من الخروج يوم الجمعة فقط إلى حدث يومي، أصبحت أنا وزوجي من المواظبين على المشاركة فيها، وبات من غير الممكن أن نتوقف عن التظاهر، فقد تحولت المظاهرات في وقت قصير إلى حاجة أكثر منها واجباً، وحتى عندما كانت زميلة لي تنصحني بالتوقف عن المشاركة، خشية التقارير الأمنية والاعتقالات التي استعاد النظام قدرته على تنفيذها بعد أشهر من الحرية التي عاشتها المدينة، مع تخبط أجهزته الأمنية في مواجهة ما لم تتصوره بادئ الأمر، احتلتُ عليها لتشاهد إحدى المظاهرات عن قرب، علّها تفهم السبب الذي يدفعني للخروج فيها، فقد كانت المظاهرات أحد تلك الأحداث التي تعجز الكلمات عن وصفها، وتحتاج أن تعيشها لتفهم ما تعنيه.

وأثناء وقوفنا في شارع كنت أعلم أن المظاهرة ستمر فيه، اقترب الصوت، ثم طلع علينا الثوار يرددون التكبير، ومروا بالقرب منا، وكنت أحس بخفقان قلبها يغادر صدرها قوياً غاضباً، ثم سالت دموعها تغطي وجهها وباتت تردد مع المتظاهرين «الله أكبر»، ولم أحتج كثير جهد لإقناعها بعدها بالسير خلف

المظاهرة إلى دوار المدلجي، الذي اعتادت المظاهرات الاحتشاد عنده اعتصاماً يستمر حتى ساعات متأخرة من الليل، وفيه وقفت زميلتي التي كانت حتى وقت قريب تجد التظاهر عبثاً واحدة من المتظاهرين، ورددت معهم قسماً بأن لا تنسى دماء الشهداء، ولا تتخلى عن الثورة حتى إسقاط النظام، ومنذ ذلك اليوم لم تسمعني كلمة عن مشاركتي في المظاهرات.

كان الأمر أشبه بطقس يومي، صلاة يتطهر بها السوريون من ذلهم، وينفضون بها عنهم سنين القهر والخضوع، ولم أستطع مقاومة ذلك الدافع داخلي بأن أخرج على منصة المدلجي، فألقي شيئاً من عشرات القصائد الشعبية التي كانت تخرج مني تدفقاً دون تكلف، لذلك طلبت من قريب لي أن يساعدني بالخروج إلى المنصة، وحتى أضمن أن لا أحد سيعرفني من هيئتي مع إخفائي وجهي بالخمار، قمت بلف قطع من القماش على وسطي حتى أزيد حجمي، كما عمدت إلى تغطية فمي بقطعة قماش تحت الخمار لتغير من صوتي، ووقفت هناك أمام الآلاف من المتظاهرين على المنصة، وبعد أن أقنعت أطرافي أن تسكن قليلاً، سردت قصيدة قصيرة كنت قد كتبتها سابقاً، اختتمتها بالقول:

«الشعب قد كسر القناع.. وأعلن صبحه.. فبعد الليل فجر..».

ولأول مرة في حياتي سمعت لقبي الذي سأحبه كثيراً منذ ذلك اليوم يتردد من الناس في محيط المنصة: «الله محيي أصلك يا حرة».. «الله يحميكي يا حرة»..

بقينا على تلك الحال من المشاركة الدائمة في المظاهرات حتى جاء اليوم الذي فتحت فيه عناصر النظام من فرع الهجانة النار على مظاهرة كنا من أفرادها، وبدأ الشباب يتساقطون جثثاً تملأ الشوارع، بينما انتشرنا في الشوارع الفرعية طلباً للنجاة، وبعد طول بحث وجدت زوجي الذي اتشحت أبواب سيارته وفرشها بالدماء، وعلمت أنه أسعف عدداً من المصابين، وقرر من حينها أني لن أخرج إلى المظاهرات التي تتحرك في المدينة، تجنباً لحدوث شيء مشابه، وسأكتفي بالمشاركة باعتصامات المدلجي التي كانت أأمن نسبياً، حتى لا أصبح وغيري من النساء عبئاً على المتظاهرين لو حدث أمر شبيه.

ومنذ ذلك اليوم تحولت المظاهرات إلى حوادث كر وفر، بعد توحش أجهزة النظام الأمنية في المدينة، ثم بات منظر الدبابات والمدرعات التي تتمركز في أحياء دير الزور وعلى مداخلها، وتتجول في شوارعها، أمراً معتاداً بعد الحملات العسكرية التي شنها جيش النظام على المدينة، بدءاً من آب/ أغسطس عام ٢٠١١ الموافق لشهر رمضان، كما بدأ المنشقون عن الجيش برفقة أعداد من شباب المدينة والأرياف حمل السلاح، وتنظيم أنفسهم ضمن مجموعات انتسبت للجيش السوري الحر، وباتت تدخل مواجهات مع قوات النظام، أصبحت معها الحياة في بعض أحياء المدينة مخاطرة، الأمر الذي دفع أهلي إلى مغادرتها إلى ريفها مصطحبين أبنائي معهم، بعد أن عجزوا عن إقناعي بمرافقتهم، مع إصراري على أن مكاني إلى جانب زوجي حيث اختار البقاء في حيّنا الذي حمل بعض أبنائه السلاح، ليسهم في تأمين بعض الحاجيات لهم، أما أنا فكنت أقوم بإعداد الطعام لهم، وأساهم في الأمور التي أستطيع عملها، قبل أن تصبح المدينة ساحة حرب مفتوحة منذ أواسط العام ٢٠١٢، ويغادرها معظم أبنائها نازحين في الأرياف والمحافظات القريبة وخارج البلاد، ونغادرها نحن إلى الرقة بعد اشتداد القصف، وفراغ المدينة من العوائل.

كنا قد خططنا للخروج عدة أيام ثم العودة عندما تهدأ الأمور، لكن القصف والمعارك المستمرة أجبرتنا على البقاء شهرين تقريباً، ثم عدنا إلى البغيلية نازحين في مدرسة متطرفة هناك إلى جانب عدد من العوائل، كسكن مؤقت مع تعذّر الاستقرار في حينا، الذي زرته أواخر العام ٢٠١٢ لجلب بعض الثياب عند دخول الشتاء.

تحركنا حينها عبر طريق طويل خلف المتاريس وبين الفجوات المفتوحة داخل المنازل، حتى وصلت حينا الذي بدت عليه آثار القصف واضحة، وعندما دخلت منزلنا جمعت ما تمكنت من جمعه، ثم قبلت جدرانه، مودعة فيه الذكريات والعز، وشيئاً من روحي بقي هناك لم يغادره، ثم عدنا كما أتينا إلى المدرسة، التي ستصبح منذ ذلك الحين منزلنا الجديد.

كان الأهالي قد أنشؤوا ما يشبه معبراً مائياً قرب المدرسة، تتحرك فيه القوارب بين ضفتي النهر، تنقل الأهالي وشيئاً من البضائع، بينما استثمره زوجي لتأمين انشقاق جنود النظام الراغبين في ذلك، كما كان يؤمن للمقاتلين من الجيش الحر في المدينة اللقاء بعوائلهم في مدرستنا، فكانوا يأتون من الأحياء المحررة إليها، بينما تأتي عوائلهم من الجورة والقصور اللتين بقيتا تحت سيطرة النظام في المدينة، فضلاً عن تأمين بعض المحروقات والمواد التي يحتاجها المقاتلون في الأحياء المحررة، وهكذا كانت تلك المدرسة أشبه بنقطة ذات حالة خاصة، فلا هي محررة، ولا هي تحت سيطرة النظام تماماً، وإن كانت دورياته تداهمها بين الفينة والأخرى لتؤكد سيطرتها عليها. وفي إحدى تلك المداهمات التي جاءت أثناء التحضير لعملية انشقاق يبدو أن النظام كان على علم بها، اعتقل معظم الرجال الموجودين وبينهم زوجي، لكن الوساطات التي حركناها تمكنت من إخراجه بعد أسبوع، قبل أن يتمكنوا من ربط بطاقة هويته بملفه القديم.

بعد حادثة الاعتقال تلك بدأ إخوة زوجي يضغطون عليه للخروج، فأي اعتقال آخر له لن يكون أمراً يمكن الإفلات منه، أما أنا فكنت على الرغم من خوفي عليه لا أزال مصرة على البقاء، إحساساً بواجبي تجاه البلاد والثورة، كما أحس هو، حتى جاء اليوم الذي رأينا فيه أبا محمود مدير السجن في دير الزور، بعد أن تعطلت سيارته على طريقنا إلى أحد الأسواق القليلة المتبقية في المدينة، وعندما وقفنا لمساعدته سأل زوجي بمكر إذا كان لا يزال «سرسري»، وعرفنا حينها أن الوقت لن يطول قبل أن يتم اعتقاله مرة أخرى، وقررنا مغادرة المدينة.

توجهنا بداية إلى الريف حيث تقيم قريبة لي بقينا عندها أسبوعاً أواسط العام ٢٠١٣، ثم غادرنا عبر طرق التهريب إلى مدينة أورفة التركية، والتي كان يأتينا فيها مصروفنا كافياً فائضاً عن حاجتنا من أقاربنا المغتربين.

بالنسبة إلى الكثيرين كان هذا حلماً، أعني أن تجد بيتاً يؤويك، ومصروفاً يكفيك في بلد آمن بعيداً عن كل ما يهددك وأبناءك، وقريباً من حياة مستقرة هي كل ما يطمح له من يجد حياته التي صرف فيها جهده وصحته قد أصبحت أثراً بعد عين، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة إلينا.

بعد أيام من إقامتنا تلك بدأ العيش كأنعام يصبح واقع حالنا، نستيقظ لننام، حياة لا جهد لنا فيها ولا سعي، وهو مما يكفي لينزع من كل إنسان بعض ما يفرق به نفسه عن غيره، بل حتى الحيوانات تخرج صباحاً سعياً إلى رزق الله الذي قسمه لها. لكن ذلك لم يكن أكثر ما يؤرقنا، فبالنسبة إلى أبناء ثورةٍ رددوا في ميادينها القسم:

أقسم بالله العظيم..

لن ننسى دماء الشهداء..

ولن نتخلى عن ثورتنا..

والله على ما أقول شهيد..

ستكون حياة خالية من العمل لأجل الثورة بلا معنى، بل أقرب للموت.

وسريعاً عرفت أن لزوجي مخططاً آخر يدبره منذ قدومنا، فقد كان يريد أن يضعني والأولاد هناك، ويطمئن إلى سلامتنا، ثم يعود مرة أخرى إلى دير الزور، ويكمل الطريق الذي عقد عليه العزم قبل انطلاق الثورة بأعوام: إسقاط النظام.

حين واجهني بخطته تلك لم أنتظر حتى يشرح ويبرر، وأقسمت حينها أن لا مقام لي في بلاد لا يكون فيها، وأني منذ قبلت الزواج قبلت معه ميثاقاً غليظاً، شراكة طويلة الأمد نتقاسم فيها الحلو والمر، السرور والشقاء، والأهم من ذلك كله الطريق.. طريقنا معاً في الحياة التي توقفنا فيها عن كوننا أفراداً منذ ارتباطنا لنصبح عائلة، والعوائل لا تعيش فرادى.

حاول إقناعي بفكرته، لكني رفضت، وكان آخر ما عرضت عليه أن ننزل إلى الريف، إلى منطقة محررة لا وجود للنظام فيها، فأكون قريبة منه هناك، بينما يستطيع هو الدخول إلى الأحياء المحررة (الأكثر خطراً) في المدينة، ويزورنا كل فترة، وقبِل على مضض.

بالنسبة إلي كانت فكرة العيش بعيدة عنه مؤلمة جداً، فهو لم يكن زوجي فقط، بل ومعلمي، الرجل الذي رفع عن عيني غشاوة لم أعلم أنها موجودة،

وأراني في الدنيا شيئاً آخر تصاغرت أمامه همومها التي كنت أعرفها: العمل والزواج والأولاد والمنزل... وبت أعلم أن لكل إنسان في الحياة مهمةً مقدسة، أمراً يولد تكليفه به مع ولادته، وهو السعي لإعمار الأرض، رفع الظلم والمضي في الحياة إلى غايتها؛ لكني قبلت تلك المساومة، لأني علمت أن البديل سيكون رؤيته يذبل أمامي يوماً بعد يوم، ولذلك عدنا بعد أقل من ثلاثة أشهر في تركيا إلى ريف دير الزور على الضفة اليسرى لنهر الفرات (الجزيرة)، ومع إصراره على الدخول إلى الأحياء المحررة حيث رفاقه وأبناء حينا الذين حملوا السلاح، وتفهمي أن للثورة ثمناً علي أن أدفعه بفراقه، طلبت منه الانتظار حتى أدخل المدينة إلى القسم الخاضع لسيطرة النظام، فأجلب والدتي لتعيش معي هناك، فقد كانت فكرة الحياة دون وجوده، ودون الحماية التي كنت أحس بها حوله، ثقيلة جداً علي، وكان وجود والدتي سيخفف عني وحشتي في ذلك المكان. ومع شكنا أن اسمه بات مطلوباً قررنا أن أدخل وحدي إلى منزل أهلي، فأجلب والدتي وأعود في اليوم نفسه، ثم يمكنه المغادرة.

ودعته عند «المعبار» المائي الذي خرجنا منه سابقاً، واصطحبت معي ابني ذا الأعوام الثلاثة، وانطلقت عبر القارب إلى الضفة الأخرى التي أقام عندها النظام نقطة أمنية لتفحص أسماء من يتنقلون من وإلى المدينة، لأفاجأ بأني مطلوبة، وليقوم العنصر الذي استقبلني بالكفر والشتائم واللكمات بوضعي ضمن سيارة، اقتادتني إلى فرع الأمن العسكري.

يمكن للصدمة أن تخرج بعض الناس عن طورهم فيبدؤوا الصراخ والبكاء، بينما يمكن أن تذهل آخرين عن أنفسهم فيدخلوا حالة من السكون الذي يفقدون فيه وعيهم بما يحدث، وربما كنت سأكون من النوع الأول لولا تذكري كلمة طالما رددتها والدتي على مسمعي: «الطير الحر هو الوحيد بين الطيور اللي إذا انمسك يسكن.. لا يخبط ولا يلبط.. لأنه حر»، لم أقاوم، ولم أصرخ، ولم أذهل عن نفسي أيضاً؛ بل سكنت سكون مؤمن مطمئن يسجد بين يدي ربه، وجعلت أهيئ نفسي لما سألاقيه في الفروع الأمنية التي لا يخفى على سوري قسوتها، وتذكرت كل تلك القصص التي أخبرني بها زوجي عن اعتقاله، والتي كان يحكيها بشيء من التفصيل كأنه يحضرني لهذا اليوم.

لا تجب عن سؤال إلا بقدره، ولا تتوسع في الإجابة بتفاصيل تظن أنك بها تطمئن المحقق، لأنك بذلك ستثير لديه أسئلة بدل أن تجيب عنها، ومن يكثر كلامه يكثر خطؤه.

حافظ على أقوالك، ومهما حدث لا تغيرها، حتى لو بدا لك أنها يمكن أن تؤذيك لا تفعل، فأي تغيير سيعني لهم أنك تخفي شيئاً، وبذلك ستزيد جرعة التعذيب.

حافظ دائماً على رباطة جأشك، ولا تستسلم لليأس، وتذكر أن معركتك الأهم هناك ليست مع آلات التعذيب، وليست مع الألم والقهر والمرض، معركتك الأولى هناك مع نفسك، وستكسبها إن أبقيت على الأمل حياً فيها.

رفيقك الوحيد في المعتقل هو إيمانك بالله، هو ملجؤك الذي تأوي إليه، وملاذك الذي تطمئن لحسن رعايته، ومصدر قوتك، ومعقد رجاءك، لذلك لا تسمح لأي شيء أن يهز علاقتك بالله، وتذكر أنه لن ينساك وإن بدا لك خلاف ذلك.

وصلنا إلى فرع الأمن العسكري في المدينة أخيراً، وهناك رأيت أبا محمود عند البوابة، وبعد دخولنا إلى البناء ووقوفي مع عدد من النساء انتظاراً لمصيرنا، دخل علينا الغرفة وهو يسأل عني، لكن ليس باسمي، كان يسأل بوضوح: «مين زوجة فلان؟».

أدركت حينها أن ملفي هناك قد دمج مع ملف زوجي، ولم تكن تلك أخباراً جيدة، فعند نظام كنظام آل الأسد، اعتاد أن يعاقب عائلة كاملة على انتساب ابنهم مثلاً لجماعة الإخوان المسلمين، فتصبح تلك نقطة تلاحقهم في التقدم للوظائف الحكومية، والحصول على الأوراق الثبوتية وما شابهها، سيكون وجود زوجة رجل مطلوب ومعتقل بتهمة سياسية سابقاً أمراً يستحق الاحتفال.

أجبته حينها بأني أنا من يسأل عنها، ليرحب بي بالشتائم التي يعتادها كل من يزور فروع الأمن، ثم سلمت أماناتي وقامت امرأة عرفت أنها من المعتقلات هناك بتفتيشي، ثم وُضِعتُ في زنزانة ضمت أخريات.

كانت المعتقلات متحمسات لدخول شخص جديد، فبالنسبة إليهن سأكون أثراً من الحياة التي يشتقنها خارج تلك الجدران، وبدأن سريعاً سؤالي عن اسمي ومن أين جئت وما هي تهمتي، لأطلب منحي بعض الوقت، حيث أسندت ظهري إلى الجدار، واحتضنت ابني بقوة إلى صدري، محاولة لملمة أفكاري واستجماع قوتي لمواجهة ما بدا واضحاً لي بأنه رحلة طويلة لن تكون سهلة أبداً، وكان علي أن أعرف أن هناك فرقاً كبيراً جداً بين أن تسمع عن الشيء وأن تعيشه واقعاً، وبدأ الخوف الذي صُمم ذلك المكان خصيصاً لإنتاجه يتسرب بارداً وثقيلاً إلى نفسي، ومهما حاولت ردعه كنت أفشل، وأحسست أني أغرق في بحر عميق ابتعد الضوء فيه عني شيئاً فشيئاً، وبدا أني لن أنجو من ذلك المكان، لكن فكرة داهمتني بلحظة أوقفت غرقي، ودفعتني بقوة مرة أخرى إلى السطح.

تذكرت حينها أن الوقت ظهر، وأني لم أصلِّ بعد، ثم فزعت إلى مصدر الأمل الذي أخبرني به زوجي، وسجدت بين يديه سجود من انقطع رجاؤه من كل شيء في الدنيا إلا منه، ورجوته تسبيحاً أن يربط على قلبي فلا أفقد نفسي هناك.

لم أسأله يومها أن يحفظني أو يخفّف عني، كان دعائي أن يقويني. وما إن فرغت حتى عادت إليّ همتي، وفطنت إلى ابني الذي كان يبكي خوفاً، ويعتصر نفسه لدخول الخلاء، فناديت على السجان أخبره بحاجة ابني، وسمح لي بإخراجه إلى الحمامات، وعند عودتنا انتبهت له معتقلات من زنزانة أخرى كان بابها مفتوحاً، فهرعن إليه يقبلنه ويحتضنه، وعرفت أنهن إنما يقبلن فيه أبناءهن الذين خلّفنهم، بل يقبلن فيه الحياة نفسها.

ولم يطل الأمر حتى طلب مني السجان رقم هاتف لأحدٍ في المدينة يمكن له أن يستلم ابني، وعلى الرغم من وجود أهلي فيها إلا أني أعطيته رقم صديق لزوجي، لأضمن بذلك أن خبر اعتقالي سيصل إليه، ثم نبهتني المعتقلات أن علي أن أطلب لباساً ومواد تنظيف وما شابهها حين يأخذون ولدي، لأعلم حين تأتيني أنه قد وصل وجهته، وكذلك فعلت، وحين استلمت كيس ثياب ميزت فيه

شيئاً من لباس زوجة أخي، عرفت أن ابني أصبح بأمان، وانتقلت للتركيز على معركتي هناك.

تم استدعائي إلى التحقيق الأول بعد يوم من اعتقالي، وفيه بدأت الأسئلة عن دخولي إلى تركيا، وعن التمويل الذي جلبته للمسلحين وما شابهها، وبدأت تطبيق أول نصيحة ذكرها زوجي، «أنا ما كنت بتركيا»، ومع تكرار الأمر وإصراري على النفي، بدأ المحقق يصفعني تكراراً حتى أحسست بنقاط الماء المنفلتة من صنبور قريب تدخل عيني حتى دون أن ألمسها. لم أغير إجابتي، وأخبرته أنني كنت أريد حقاً المغادرة إلى تركيا، وذكرت ذلك لبعض معارفي، لكني لم أستطع الوصول وبقيت في الريف، لكن محاولتي تلك لتبرير ما ورد في تقريره الأمني له لم تفلح في إقناعه، وبقي مصراً على أني سافرت إلى تركيا، وجلبت منها أموالاً وسلاحاً، وبعد أن مل من إنكاري استدعى أحد العناصر وطلب منه أن يأخذني فيعريني من ثيابي كلها ثم يعيدني إليه، واقتادني العنصر إلى غرفة ثانية، طلب مني فيها أن أخلع ثيابي، وعندما رفضت ورجوته أن يساعدني، أخبرني أنه عبد مأمور، وأن علي أن أخلع ثيابي وإلا ستتم معاقبته هو، وبعد توسلي إليه أخبرني أن الحل الوحيد هو الاعتراف.

طلبت منه إعادتي إلى غرفة المحقق، وعندما أعاد سؤالي، كررت إجابتي نفسها، ليرسلني مرة أخرى إلى الغرفة الثانية، ولأعود إليه مرة أخرى مرتدية ملابسي، وأكرر إنكاري. حينها صرخ بالعنصر ألّا يعيدني مرة ثالثة حتى يعريني من كل ملابسي، ثم يمر بي على كل غرف الفرع وزنزاناته قبل أن يعود بي، وعندما اقتادني العنصر إلى الغرفة للمرة الثالثة، وطلب مني أن أخلع ملابسي، ورفضت، مد عصا كان يحملها إلى ساقي، وبدأ برفع عباءتي التي كنت أرتديها حتى أوصلها حد ركبتي، ثم أخبرني أن أخلع ملابسي بنفسي، أو يقوم هو بذلك.

حينها قلت له أن يكتب ما يريد من اتهامات، ثم يجلب لي ورقة لأقوم بالتوقيع عليها، لكني لن أعترف بشيء لم أفعله، ليعيدني بعدها إلى غرفة

المحقق الذي ترك سؤالي عن تركيا، وانتقل ليسألني عن زوجي: «زوجك سرسري؟».

كان واضحاً أنه يقصد بسؤاله ذاك نشاطه، لكني تذكرت إحدى النصائح التي أكد عليها زوجي مراراً، من المهم ألا يحسوا أن المعتقل مثقف بأي شكل، فالسجانون لديهم عقدة نقص تجاه المثقفين، ومجرد إثارة تلك العقدة بحديث يدرك معه صاحب السوط أن من بين يديه يفوقه علماً، يكون ذلك سبباً كافياً لمزيد من العذاب، لذلك انتقلت إلى النقيض تماماً، وبدأت أعطي السجان إيحاء ببساطة تفكيري، بل ربما جعلته يحس أني «درويشة» نوعاً ما.

«سرسري! زوجي! لا والله زوجي زين معاي، بحياته ما مد إيده علي، هو كان يضربني أولي لما كان يشرب، بس لما معدته صارت توجعه بطل...».

انفجر السجان في وجهي مكرراً السؤال بطريقة أخرى، وأعدت إجابتي بطريقة من لا يفهم السؤال تماماً، حتى بدا أني قد تمكنت من إقناعه فعلاً بأني «على البركة» حين سألني عن عملي وأجبته بأني معلمة، ليبدأ شتم التعليم الذي جعل «غبية» مثلي مسؤولة عن تعليم أطفال، ثم أعادني إلى الزنزانة بعد أن يئس من أني سأكون مفيدة بأي شكل، وأحسست أني قد ربحت جولتي الأولى هناك، بل ذهبت أبعد من ذلك.

فبعد عدة أيام في الزنزانة لم يتم فيهن استدعائي إلى التحقيق أحسست أني سأخرج قريباً، خاصة أن المعتقلات أخبرنني بأنها دلالة إيجابية، حتى دخلت علينا إحدى معارفي التي لم يمنعني تشوش رؤيتي بعد تلك الصفعات ولا تغييرها هيأتها بعد نزعها الحجاب وارتداء اللباس العسكري من تمييزها، وعلمت حينها أني لن أخرج قريباً، بل ربما لن أخرج ما حييت.

كانت تلك الفتاة من عائلة اختارت مبكراً الوقوف في صف النظام، ودار بينها وبيننا جدال تحول إلى مشكلة تطورت إلى قطيعة منذ العام ٢٠١١، وفي الوقت الذي كنا فيه نواظب على التظاهر، كانت هي وذووها ممن يرون في بقاء النظام أماناً واستقراراً وحفاظاً على المميزات التي تمتع بها مؤيدوه في تلك الفترة، فباتوا يحضرون ضمن اجتماعات اللجان التي شكلها النظام في المدينة

كدوائر ارتكاز اعتمد عليها في البداية لكتابة التقارير الأمنية، ثم تطور عملها إلى ما بات يعرف بـ «اللجان الشعبية» التي نشطت في قمع المظاهرات، ومع التحول إلى المواجهة العسكرية أصبحت تلك المجموعات عاملاً مهماً في مواجهة مجموعات الجيش الحر، حيث عوض النظام نقص أعداد تلك اللجان بعد انقسام المدينة إلى منطقتي سيطرة بتسليح النساء، للمساهمة في ضبط الحيين الخاضعين لسيطرته، وكانت تلك الفتاة إحدى اللواتي اخترن القيام بتلك المهمة الحقيرة، شبيحة في ظل نظام مجرم.

بعد نصف ساعة من ذلك اللقاء القصير الذي لم تنطق فيه كلمة واحدة نزل مدير السجن إلى الزنازين ضمن جولته المعتادة، وعندما فتح باب زنزانتنا أخبرني بلؤم وشيء من الاستغراب أنه لم يتصور أني كذلك! ثم بدأ يردد بغضب أن كل «مسكنتي» تلك لن تنفعني بعد اليوم، وأن المحقق سيأتي بعد قليل، «ووقتها ما رح نخلي الدبان الأزرق يعرفلك طريق».

عرفت حينها أن ادعائي «الغشم» في التحقيق قد انطلى عليهم، وإلا لم يكن ليغضب بتلك الطريقة، كما علمت أيضاً أن ذاك الأسلوب الذي نجح في تجنيبي التحقيق أياماً، بل ربما اقترب من إخلاء سبيلي، سيرتد عليَّ جحيماً بعد إدراكهم أني كنت أتلاعب بهم، فبقدر ما يكره أولئك المثقفين، يكرهون أكثر بكثير من يريد التذاكي عليهم، فكيف بمن نجح في ذلك؟!

فور دخولي إلى غرفة التحقيق بدأ المحقق بضربي بيديه وقدميه كأنه قد لقي غريمه، ثم عمد إلى قضيب معدني كان قد تحول للون الأصفر بعد تركه زمناً فوق «سخانة كهرباء»، وجعل يقربه إلى وجهي مهدداً إياي به، ثم عندما لم ينفع ذلك في تغييري أقوالي من التحقيق الأول، وبالاعتراف بجلب أموال وتهريب سلاح وما إلى ذلك من التهم التي كنت أتمنى حقاً لو أني قمت بها، بدأ تهديدي صراحة بالاغتصاب، ربما لأنه انتبه إلى إصراري على تعديل حجابي كلما بدت لي شعرة خارجه جراء ركلة أو صفعة، ولم يكتفِ بتهديدي به، بل صوّره لي كاملاً، بدءاً من الشخص الذي سيقوم به، وانتهاءً بإشاعة الخبر

بين معارفي وأهلي ليدمر حياتي، لكني مع ذلك ثبتّ على أقوالي، ليعيدني إلى الزنزانة.

كان الألم قد تمكن مني حقاً، لكني أحسست بأني للحظة قد انتصرت عليه للمرة الثانية، أعني أني لم أقر بشيء على الرغم من كل ما حدث، وذاك الإحساس كان مصدراً آخر لقوتي هناك، مصدراً لم يخبرني عنه زوجي لكني اكتشفته، فما الذي يمكن لمعتقل مسلوب الإرادة والحرية أن يعول عليه أكثر من نجاحه في كسر سجانه الذي أُطلقت يداه للتنكيل به دون أن ينجح في ذلك؟

بعد ذلك التحقيق لم يتم إخراجي إلى تحقيق آخر وإن تم الضغط عليّ بالأمر الوحيد الذي كنت أخشاه حقاً طوال إقامتي هناك أن يسلم زوجي نفسه لإنقاذي، فتم إخباري أنه وصل بالفعل إلى الزنزانة المجاورة، لكن سرعان ما اكتشفتُ زيف الخدعة، فحتى مع معرفتي باستعداده لفعل مشابه، إلا أني كنت متيقنة أنه ليس بالغر الذي يمكن خداعه بصفقة شبيهة.

ومضت الأيام طويلة ثقيلة مليئة بالتحديات التي لا تخطر على بال من لا يعيش التجربة حين يسمع عن الاعتقال، كغسيل ثيابك في الوقت المتاح لدخول الخلاء، أو مقاومة البرد الذي يتملكك، أو الوضوء سراً والصلاة خفية خشية أن يصل ذلك إلى السجان فيكون سبباً لجلسة تعذيب دون تحقيق، فقد اكتشفت أن الصلاة ممنوعة هناك، وأن صلاة الظهر التي صليتها أول دخولي كانت مجازفة مضت على خير.

مر ٢٥ يوماً على اعتقالي قبل استدعائي لأبصم على «اعترافاتي» التي لم أقرأها بالطبع، وعرفت أن موعد مغادرتي المعتقل قد اقترب، فإما أن يتم إخلاء سبيلي أو يتم نقلي إلى دمشق عبر الطائرة التي باتت الوسيلة الوحيدة لقوات النظام لنقل الإمدادات والأشخاص من وإلى الأحياء الخاضعة لسيطرته في المدينة منذ مطلع العام ٢٠١٣، عندما تمكن الثوار من تحرير الريف والبادية وإطباق حصارهم عليها. ومع استدعائي بالتزامن مع إجازات تأكدت أني سأُنقل إلى دمشق، فقد كانت الإجازات متزامنة مع موعد الطائرة، وتم نقلي خارج

الفرع مربوطة بالجنازير برفقة ٧٠ رجلاً وخمس نساء كنتُ سادستهن، بعد ٢٨ يوماً صمتهن جميعاً تطوعاً على نية الفرج.

تم تكديسنا ضمن طائرة شحن برفقة توابيت جنود وعدد من العساكر، الذين قضوا الطريق كله ضرباً وإهانة للمعتقلين الشباب، ثم عندما هبطنا أخيراً تحولت الإهانات إلينا، وكان يحلو لكل من يمر بنا من جنود النظام أن يبصق علينا وهو يردد: «جهاد نكاح.. جهاد نكاح». وبعد توزيع أضابيرنا نُقلنا إلى فرع فلسطين، الذي فتشتنا فيه سجانة ضمن الحمامات، قبل أن يتم توزيعنا على زنزانات متعددة كان نصيبي منها غرفة صغيرة ضمت ١٦ فتاة بالكاد اتسعت لهن.

كان أول ما لفت نظري مدى شحوب بشرة الفتيات في الغرفة، والجنسيات المختلفة لهن، وعرفت بينهن إحدى الفتيات التي كانت معنا في دير الزور ونُقلت قبل أسبوعين، فجلست قربها، ليكون سؤالها الأول: «الدير تحررت؟».

يخطر لي اليوم كيف تغير كل شيء في البلاد خلال السنوات السابقة حتى بات السؤال عن التحرير، بل الأمل به، ضرباً من المستحيل، وكيف كنا خلال تلك الفترة ننتظر حقاً جحافل الثوار تفتح لنا أبواب تلك الزنزانات التي سيوضع فيها سجانونا بعد تحريرنا، وكيف سنشهد محاكمتهم علناً بما فعلوه بنا وبغيرنا وبالبلاد كلها، وكيف انتقل نظام كان يلفظ أنفاسه الأخيرة التي كنا نحس بها مع كل حركة وسكنة لجنوده إلى السيطرة على أكثر من ٦٠ بالمئة من مساحة البلاد اليوم بعد عقد من الزمان على انطلاق الثورة، وكيف تحولت آمالنا من دخول دمشق فاتحين إلى الحفاظ على جيب صغير شمال البلاد نرفع فوقه علم ثورتنا، ونرضى منه بسلامة ملايين النازحين الذين تكدسوا فيه يلملمون أحلامهم وجراحهم، ويعيشون على أمل حلٍّ سياسيٍّ ما ربما يأتي يوماً فيعيدهم إلى مدنهم التي رفضوا العودة إليها تحت سطوة نظام يعلمون تعطشه للانتقام منهم، بإصراره على خرق عشرات الهدن والاتفاقيات لقصف مخيم أو مستشفى أو سوق في منطقة نزوحهم.

كنت أنتظر تحقيقي الأول في الفرع ذائع الصيت ببشاعته، لكن الأيام بدأت تمضي دون أن يتم استدعائي أو استدعاء أي أحد إلى التحقيق، ولم يكن باب

الزنزانة يفتح إلا لإدخال معتقلة جديدة أو إدخال الطعام الذي كانت حصتي منه سبع زيتونات وحبة بندورة وقطعة خبز، ثم أخبرتني المعتقلات أن بينهن من مر عليها ثمانية أشهر دون أن يستدعيها أحد للتحقيق، وأدركت أننا لم نكن في ذلك الفرع لاستكمال التحقيق، أو لترتيب إطلاق سراحنا، بل نحن موجودات هناك ليتم نسياننا، لتعذيبنا بأبشع ما سأعرفه طوال عمري.. بالانتظار.

لو خيّرني أحد قبل اعتقالي بين أن أخرج إلى تحقيق يتم تعذيبي فيه أسبوعاً أو أسبوعين، أو أن أترك في زنزانة مدة شهرين، لاخترت الثانية بلا تفكير، لكن عندما تم استدعائي هناك إلى التحقيق للمرة الأولى كاد قلبي يقفز فرحاً، حتى مع علمي بما يعنيه التحقيق في فرع أمني، فلا شيء في الدنيا كلها يمكن أن يصف إحساسك بأنك متروك في ذلك المكان القذر لتموت ببطء، دون أن تعلم شيئاً مما يحدث حولك، ودون أن يخبرك أحد أنك ستعيش أو ستموت، أو حتى كم ستقضي من الوقت.

ثم حين تباغتك ذاكرتك بقصص المعتقلين في تدمر وصيدنايا الذين قضوا ٢٠ عاماً قبل إطلاق سراحهم، تقترب من الانهيار، وتعود إلى كل ذكرى جميلة عشتها، وتكررها مرات ومرات في مخيلتك لتؤكد لنفسك أنك ذلك الإنسان الذي عاش ذلك الحدث، وأنك ستعود لتعيش ما يشبهه خارج ذاك المكان يوماً، ثم تدرك أنك على حافة الهاوية حين تكتشف تفاصيل جديدة في تلك الذكريات لم تنتبه لها حين عشتها سابقاً، كمن يعيد مشاهدة فيلم سينمائي أكثر من مرة حتى يفقد اهتمامه بالمشهد نفسه، ويبدأ التركيز على ما يحدث في الخلفية، فيلاحظ ما علق على جدران غرفة المراهقة الحزينة في أحد المشاهد، ثم ما يرتديه «كومبارس» يشرب القهوة على طاولة خلف الشاب السعيد في آخر، بل ربما يبدأ بملاحظة نوع سيارة تمشي قرب الشرطي الذي يجري لإلقاء القبض على مجرم في ثالث.. ثم تعيدك فكرة الشرطي ذاك إلى الفرق بين عنصر الأمن أو الشرطة على الشاشة وفي الحقيقة، وتنتقل سريعاً من تلك الفكرة إلى المكان الذي غادرته أول الأمر بذاكرتك إلى تلك المشاهد، إلى زنزانتك نفسها التي تنتظر فيها أي شيء ليحدث.

ولأن الانتظار لم يكن يكفي لتعذيبنا كان يحلو للسجانين إطلاق شائعة عن عفو قريب سيشملنا، فنفرح ونتودع من بؤسنا ويأسنا، ثم نتحدث عما سنفعله حين نخرج، ثم نبدأ التساؤل لمَ تأخر العفو كل هذا الوقت، ثم ندرك أنه كان كذبة، فنودع شيئاً من أرواحنا غادرتنا فرحاً ثم خيبة أمل ولم تعد، وبعد فترة من اليأس تتكرر الإشاعة، ويتكرر الأمل، ثم تتكرر خيبة الأمل أقسى منها في المرة السابقة. ومع تتابع الإشاعات، تفقد آخر ما تحبه في نفسك، لهفتك للحرية، وأملك بمغادرة ذاك المكان الموحش، الذي تستسلم فيه أخيراً لفكرة أنك لن تغادر المعتقل ما حييت، وإن كان شيء ما بداخلك يبقى متحفزاً بانتظار تلك اللحظة، ليؤكد لك أن الإنسان خُلق للحرية فقط، وأن الحبس يخالف حقيقته، وينافي فطرته التي خلقه الله عليها.

أمضيت شهرين ونصف الشهر تقريباً على تلك الحال حتى بدأ إخراجنا إلى التحقيق تباعاً، كأن أحداً ما تذكر وجودنا وأصدر أمره أن يتم التحقيق معنا، وحين عرضت على المحقق الذي حمل إضبارتي بين يديه بادر متعجلاً لسؤالي:

ـ «إنتي مع الثورة؟».

ـ «لا».

ـ «تطلعي مظاهرات؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ «لا».

ليكتفي بذلك ويبدأ ضربي بقطعة من أنبوب مياه بلاستيكي أخضر اللون يشيع استخدامه في سوريا، ركز ضرباته به على ذراعي وكتفي، في حين بقيت ثابتة أمامه لم أنطق حتى تأوهاً، وحين انكسر الأنبوب أثناء ضربي أسرع لالتقاط آخر وأكمل ضربي بشدة أكبر، حتى شك على ما يبدو أن الأنبوب لا يؤدي دوره كما يجب، فبدأ بصفعي وركلي دون أن أتأوه أيضاً، وحين اكتفى بذلك بعد عشر دقائق أومأ للسجان ليأخذني إلى الزنزانة مرة أخرى واستدار مغادراً غرفة التحقيق.

لم أكن أصدق أنه يريد إنهاء التحقيق الذي انتظرته كل تلك المدة بهذه الطريقة، وخشيت من شهور أخرى أُترك فيها للنسيان، فبدأت أجري وراءه والسجان من خلفي أصرخ وأرجوه أن يتوقف ويسمعني، أن يسألني عن تهمتي، لكنه لم يستدر، وتمكن السجان من الإمساك بي وإعادتي إلى الزنزانة مرة أخرى.

شغلتني الصدمة عن ذراعيّ وما حدث بهما، فقد كان واضحاً أن التحقيق مجرد رفع عتب لا أكثر، وبدا لي أنه لن يأخذني إلى أي مكان خارج ذلك الفرع، حتى تنبهتْ إحدى المعتقلات إلى ما حدث لي، وكشفت على ذراعيّ اللتين تورمتا بعد كل ذلك الضرب، ثم عمدت إلى قطعة ثياب بللتها بما وجدته من مياه في بعض القوارير البلاستيكية التي كانت الفتيات يخفينها، ثم وضعتها في سقف الغرفة قريباً من أنبوب التهوية حتى تبرد، واستخدمتها كمادات كررت وضعها ورفعها على ذراعي خشية أن أخسرهما.

بقيت شهرين آخرين بعد التحقيق قبل أن يتم استدعائي لأبصم على ورقة، وفي اليوم التالي تم نقلنا إلى القضاء العسكري، وعادت إليّ آمالي كلها مرة واحدة، وبدأت أخطط كيف سأعود إلى دير الزور، وكيف سألتقي زوجي، ومن أين سنبدأ حياتنا مرة أخرى. وأثناء انتظارنا دور عرضنا على القاضي، وحين أخبرت أحد العناصر بعد أن ساءت حالة إحدى الفتيات التي تم إخلاء سبيلها، وكانوا يتناقشون كيف ستتمكن من الخروج على تلك الحال، بأني سأقوم بمرافقتها وإيصالها إلى ذويها بعد عرضي على القاضي، أخبرني أحدهم بأن محكمتي هي «محكمة الإرهاب»، وهو ما يعني أني لن أخرج قريباً، بل ربما لن أخرج ما حييت.. وانهدم كل ما كنت أفكر فيه، وتذكرت كلمة المحقق في دير الزور: «ما رح خلي الدبان الأزرق يعرف طريقك»، وبدأ يغلب على اعتقادي أن تهديده ذاك لم يكن مبالغاً فيه، وتم اقتيادي إلى سجن عدرا.

لم أكن أعرف حينها أن زوجي كان منذ اليوم الأول قد حرك وساطة للإفراج عني، وأني كنت من المفترض أن أخرج من دير الزور لولا تلك «الشبيحة» التي رأتني هناك وعقّدت ملفي. وبعد ثلاثة أيام في سجن عدرا تم إخلاء سبيلي

أخيراً لأجد الشخص الذي تواصل معه زوجي لترتيب الإفراج عني ينتظرني، حيث أخذني إلى بيت قريبة لي في دمشق بتُّ عندها ليلتي، ثم سافرت إلى منزل أهلي في دير الزور حيث الأحياء الخاضعة لسيطرة النظام لأبقى عندهم أسبوعاً، قبل أن أتوجه إلى الريف الذي انتظرني فيه زوجي وأولادي.

وهناك بين ذراعيه سمحت لضعفي أن يتملكني للمرة الأولى منذ اللحظة التي اعتقلت فيها، فحتى عندما بقيت في منزل والدي لم أترك لضعفي أن يسيطر علي، وكنت أنتظره هو لأنكسر بين يديه بعد أن أعيتني كل تلك القوة التي كنت أحاول استحضارها لأبقى متماسكة. بكى هو أيضاً، ولم يسألني عما تُسأل عنه المعتقلات بعد خروجهن عادة إمعاناً في إهانتهن، بل استقبلني بقوله: «أهلين بالحرة»، ثم كان يؤكد لي كلما دار حديث عن اعتقالي أنه لا يريد إلا أن أكون بخير.

بقينا فترة في الريف الذي لم نكن نريد مغادرته، لكن تشخيصي بالسرطان وتعذر الحصول على صورة تبيّن مدى انتشاره إلا من مناطق النظام في دمشق، دفعتنا لاختيار المغادرة إلى تركيا مرة أخرى، فقد أخذت عهداً على نفسي ألا أدخل أرضاً يوجد فيها النظام ما حييت.

أخبرني الأطباء في تركيا أن عملية استئصال الكتل السرطانية تشكل خطراً على الحبال الصوتية، مما قد يفقدني قدرتي على النطق، لكني اخترت الخضوع للعملية وألا أخوض تجربة العلاج الكيميائي الذي لن يبقي من أنوثتي شيئاً.

وكما كنت أسجل لأولادي مقاطع يعايدون فيها والدهم المعتقل قبل الثورة، ليسمعها إذا عاد، سجلت مقاطع بصوتي لأبنائي تبقى ذكرى لهم بصوتي، وجمعتهم لأودعهم، ولأخبرهم ألّا يحزنوا مهما حدث، وأن صوتي قد أدى أمانته في تلك المظاهرات وعلى تلك المنصة، وما صدح إلا بالحق، وأن هذه لن تكون النهاية مهما حدث، ثم جعلت آخر كلماتي قبل دخول غرفة العمليات لزوجي الذي أخبرته أننا قد اتفقنا على الخروج بطريق نعلم أن له ثمناً قد يكون باهظاً، وأن الله كفيل بأن يعوضنا عن كل شيء، وودعته بعبارة: «لا تحزن إن الله معنا».

استيقظت بعد العملية على صوت زوجي: «الحمد لله عالسلامة يا حرة»، وعلى صوتي يردد: «الحمد لله».

لم نعد بعدها إلى سوريا، فقد احتل تنظيم داعش دير الزور، ثم اقتسمت السيطرة عليها قوات النظام وقسد، فيما ملأ أبناؤها ـ ككل السوريين ـ أرجاء العالم لاجئين ونازحين، وتعقدت قضية البلاد بعد تحولها إلى ملف سياسي تبحث فيه الدول عن مصالحها، التي يدفع السوريون ثمنها، وانقطع الرجاء من كل أحد إلا رب العباد، الذي ناجيناه منذ بداية ثورتنا ولا نزال: «ما لنا غيرك يا الله».

إحصاءات

حوادث الاعتقال التعسفي والاختفاء القسري

وثقت الشبكة السورية لحقوق الإنسان ما لا يقل عن ١٠٦٢٨ أنثى لا تزال قيد الاعتقال أو الاختفاء القسري على يد الأطراف الرئيسية الفاعلة في سوريا، منذ آذار/مارس عام ٢٠١١ وحتى ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٢١، موزعين بينهم على الشكل التالي:

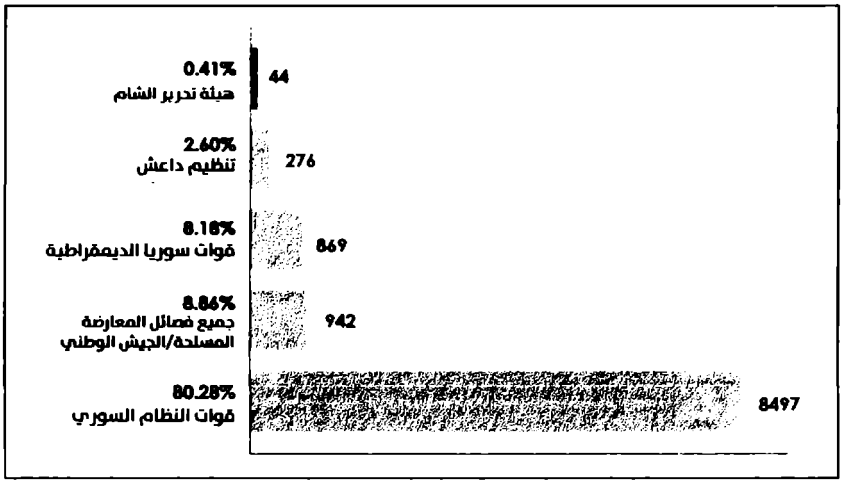

وبلغ عدد المعتقلات أو المختفيات قسرياً في سجون النظام ٨٤٩٧ معتقلة، موزعات حسب سني اعتقالهن كما يوضح الشكل التالي:

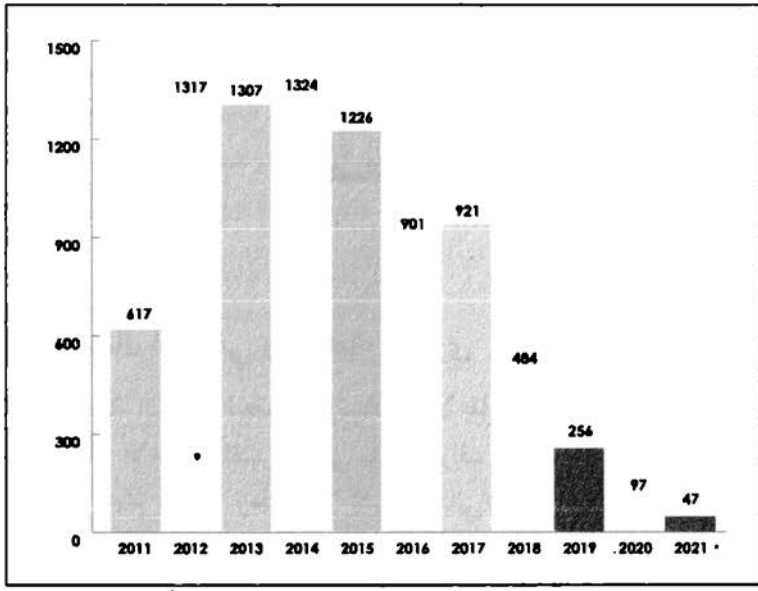

وتوزعت المعتقلات والمختفيات قسرياً في سجون النظام، والذي بلغ عددهن ٨٤٩٧ معتقلة، بحسب المحافظات التي ينتمين إليها كما يوضح الشكل التالي:

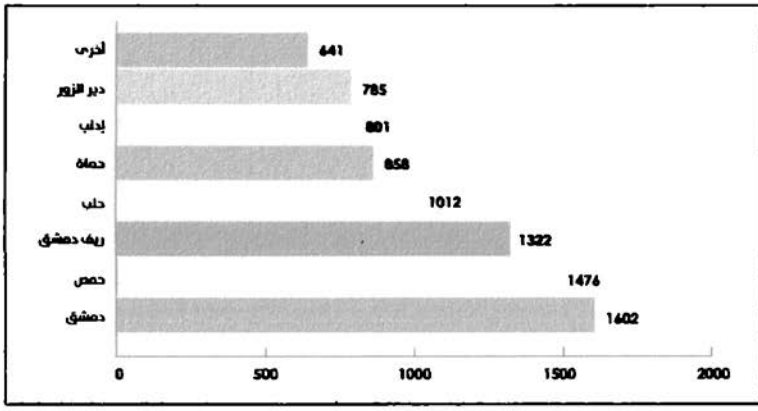

حوادث قتل النساء تحت التعذيب

وثقت الشبكة السورية لحقوق الإنسان مقتل ما لا يقل عن ٩٣ سيدة بسبب التعذيب على يد أطراف النزاع والقوى المسيطرة في سوريا، منذ آذار/مارس عام ٢٠١١ وحتى تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٢١، قتل النظام ٧٤ منهن في سجونه، بينما قتل تنظيم داعش ١٤، وقتلت قوات سوريا الديمقراطية اثنتين، والفصائل الأخرى الثورية ومن في صفها اثنتين.

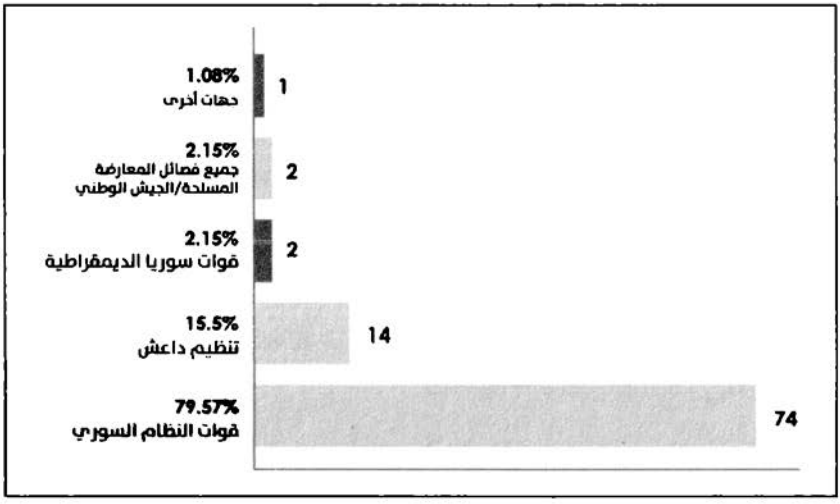

حوادث العنف الجنسي بحق النساء

وثقت الشبكة السورية لحقوق الإنسان منذ آذار/مارس عام ٢٠١١ وحتى تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٢١ ارتكاب أطراف النزاع والقوى المسيطرة في سوريا ما لا يقل عن ١١٥٢٣ حادثة عنف جنسي، استهدفت الإناث بما فيهن فتيات دون سن الـ ١٨ عاماً، كان النظام مسؤولاً عن ٨٠١٣ حادثة منها، بينما كان تنظيم داعش مسؤولاً عن ٣٤٨٧، وقوات سوريا الديمقراطية عن ١٢، وفصائل الجيش السوري الحر وغيرها عن ١١ حالة.

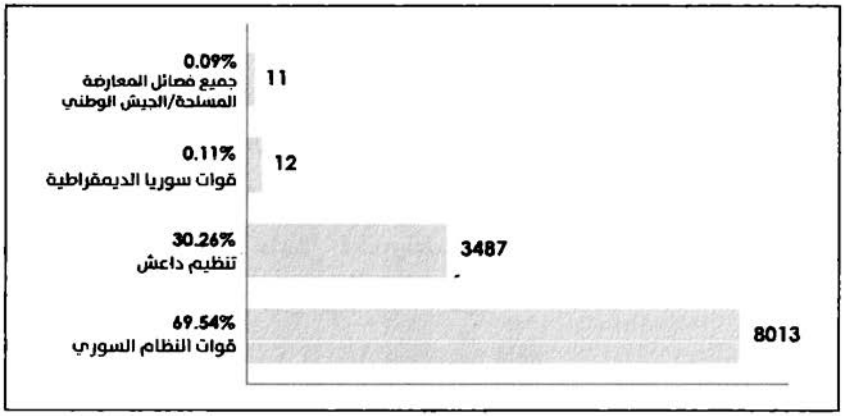
0.09%
جميع فصائل المعارضة المسلحة/الجيش الوطني
11
0.11%
قوات سوريا الديمقراطية
12
30.26%
تنظيم داعش
3487
69.54%
قوات النظام السوري
8013

عن منظمة ناجيات سوريات

تأسست منظمة ناجيات سوريات في شهر أبريل من عام ٢٠١٩ في تركيا، من قبل مجموعة من النساء السوريات اللواتي خضن تجربة الاعتقال والاختفاء القسري، على خلفية الرأي أو النشاط السياسي، ومن المناصرات لهن.

تؤمن ناجيات سوريات بقيم الثورة السورية في العدالة والحرية والديمقراطية، وتسعى إلى كشف الحقيقة وتحقيق العدالة ومحاسبة مرتكبي الجرائم والانتهاكات، إضافة إلى المشاركة في طي قضية الاعتقال السياسي في سوريا، والعمل على منع تكرار هذه الانتهاكات.

تعمل ناجيات سوريات على تمكين الناجيات حقوقياً وقانونياً وسياسياً واقتصادياً، إضافة إلى رفع الوعي بأهمية التوثيق.

للتواصل: womensurvivors1@gmail.com

عن الشهادات

تم توثيق شهادات الناجيات اللواتي شاركن قصصهن في الكتاب عبر مقابلات مطولة أشرف عليها فريق قام بوضع الأسئلة وطرحها خلال المقابلات التي تم تسجيلها، ثم تفريغها، وبعد التفريغ تم إعادة صياغة جميع القصص بأسلوب متقارب، يمكننا من ترتيبها ضمن كتاب واحد، وعرضت جميع القصص على صاحباتها، وتم أخذ موافقاتهن قبل النشر.

حرصنا على إخفاء هويات الناجيات حماية لهن ولذويهن، كما عمدنا إلى تبديل تفاصيل صغيرة للغرض نفسه، لكن الحوادث، وأماكن الاعتقال ومددها، وطرائق التعذيب، وأسماء المحققين، والمناطق التي ينتمين إليها، كلها حقيقية، ليكون الكتاب أقرب إلى شهادة حقيقية على الاعتقال في سجون نظام الأسد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram
@soramnqraa

هذا الكتاب

يضم الكتاب شهادات سبع من المعتقلات الناجيات اللواتي دخلن السجون إبّان انطلاق الثورة السورية، ثم خرجن منها ليَروين حكايات الظلم والألم.

تم توثيق شهادات الناجيات اللواتي شاركن قصصهن في الكتاب عبر مقابلات مطولة أشرف عليها فريق قام بوضع الأسئلة وطرحها خلال المقابلات التي تم تسجيلها، ثم تفريغها، وبعد التفريغ تمت إعادة صياغة جميع القصص بأسلوب متقارب، ليخرج الكتاب بشكله الحالي.

حرصنا في الكتاب على إخفاء هويات الناجيات حماية لهن ولذويهن، كما عمدنا إلى تبديل تفاصيل صغيرة للغرض نفسه، لكن الحوادث، وأماكن الاعتقال ومددها، وطرائق التعذيب، وأسماء المحققين، والمناطق التي ينتمين إليها، كلها حقيقية، ليكون الكتاب أقرب إلى شهادة حقيقية على الاعتقال في سجون نظام الأسد.

الثمن: ٧ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN: 978-614-431-743-3

9 786144 317433

جسور للترجمة والنشر